العمود الجهنمي

ترجمة

د. ابو بكر يوسف

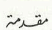
(مجموعة قصص علمية خيالية)

ЧЕРНЫЙ СТОЛБ

СБОРНИК
НАУЧНО-ФАНТАСТИЧЕСКИХ
РАССКАЗОВ

УДК 8 • 344-987

На арабском языке



مقدمة

الخيال ... هذه الكلمة القديمة قدم البشر .... احد جياد مركبة الشعر الاغريقية ، روح الفنون ومحرك ملكة الابتكار.. هذه القوة التى رافقت تطور الانسان دافعة ومفسرة وملهمة ...

ان الخيال فى اساس كل نشاط ابداعى علميا كان او تكتيكيا او فلسفيا . يقول لينين « ... ليس من المعقول انكار دور الخيال فى العلوم ، وحتى فى اكثرها جدا وصرامة » . واذا ما درسنا حياة اينشتين وجيمس وات وعباس بن فرناس وغاليليو وتسيولكوفسكى وغيرهم ، نجد انه كان للخيال النصيب الاوفر فى تحقيق ما اكتشفوه .

ويعود تاريخ الادب الخيالى الى غابر الازمان ، وقد أحبه الناس منذ ايام « الف ليلة وليلة » .

ولكن فى القرن التاسع عشر وبعد النهضة التى شهدها العلم فى جميع المجالات برز الى الوجود ادب جديد هو الادب العلمى الخيالى . وهو ادب يتخذ الظواهر العلمية وارهاصاتها المقبلة والتنبؤ بها وانعكاسات ذلك كله على عالم المستقبل ومصير الانسان كاساس ترتكز عليه الاحداث . انه ادب يصور المستقبل من وجهات نظر مختلفة ، وقد نما فشمل الادب الفكاهى ، والحكاية ، والقصيدة ، وسيناريو الافلام والمسرحيات .

وقد وجد هذا الادب طريقه الى قلوب القراء وعقولهم منذ ايام جول فيرن وهربرت ويلز ، وغيرهما ، حينما اصبحت معالمه تتحدد ، واصبحت الفكرة الخيالية تتناول النتائج الاخلاقية والاجتماعية والسياسية لمستقبل البشر .

ولقد اسهم الكتاب الروس قديما بقسط وافر فى الادب العلمى الخيالى وكانت نزعتهم فى ذلك متميزة بحسها الانسانى الحنون شانها شان الادب الروسى كله الذى هو كما وصفه احد الكتاب « اكثر الاداب انسانية

على الاطلاق » . ويعتبر اودويفسكى أبا الادب الخيالى الروسى ، فقد نشر سنة ١٨٤٠ اجزاء من روايته « عام ٤٣٣٨ . رسائل من بطرسبورغ » .

وهى رواية تصور بعث روسيا ومدينة المستقبل المتكونة من التحام موسكو وبطرسبورغ والانجازات العلمية والتكنيكية كطرق المواصلات الهائلة ، والعربات الكهربائية والمناطيد والغذاء الاصطناعى ، والفوتوغرافيا والتليفون والسفر فى الكون ، وغير ذلك من عجيب الخيال الذى تحقق معظمه فى ايامنا .

وفى عام ١٨٩٣ نشر العالم الروسى تسيولكوفسكى ابو علم الفضاء السوفييتى كتاب « فوق القمر » كملحق لمجلة « حول العالم » . وكان هذا الكتاب حدثا هاما فى تاريخ هذا النوع من الادب فهو اول كتاب علمى خيالى يكتبه عالم . ثم اصدر تسيولكوفسكى عام ١٨٩٥ كتاب « احلام عن الارض والسماء » التى ورد فيها ذكر الاقمار الاصطناعية لاول مرة .

لقد كان التحليق فى الفضاء يعتبر فى ذلك الوقت ضربا من الخيال ، ولم يستطع تسيولكوفسكى ان يصف حتى كيفية التحليق الى القمر . لذلك فانه يرسل بطله الى القمر

في الحلم ، ويصور عالم القمر بشكل واقعي الى درجة مذهلة .

وكتب تسيولكوفسكي بعد ذلك قصة « خارج الارض » عام ١٩١٨ وفيها يسافر ابطاله على ظهر سفينة صاروخية الى الفضاء .

وقد ازدهر الادب الخيالي السوفييتي بعد سنوات الحرب العالمية ، وترتبط به اسماء عدد كبير من الكتاب المخضرمين والشباب ، فقد كتب الاديب السوفييتي العظيم ألكسي تولستوي روايته المعروفة والتي ترجمت الى العربية وهي « هيبربولويد المهندس جارين » التي يطرح فيها قضية العصر .. وهي استخدام العلم الذي اصبح قوة هائلة لمصلحة البشر ولخير البشر . وتصور روايته « ايوليتا » التحليق الى المريخ . ويشهد فيها ابطال الرواية احداثا عاصفة تغير البناء الاجتماعي في الكوكب .

ومن الكتاب اللامعين في هذا المجال ألكسندر بيليايف الذي يطلق عليه لقب « جول فيرن السوفييتي » وقد اشتهر بشخصية اختياندر — الرجل الضفدع « اول رجل يعيش مع الأسماك واول سمكة تعيش مع الناس»

ثم بشخصية اريل — الصبي الذي يحلق في الجو كالطيور .

كان بيليايف يحلم بالوقت الذي ينتصر فيه الانسان على الشيخوخة والموت ويتحكم فيه بالجسد والنوم ويهزم التعب والألم . وتتمثل هذه الأحلام في رواياته « رأس البروفيسور دويل » و« الانسان الذي فقد وجهه » و« الانسان الذي وجد وجهه » و « مختبر دوبلفي » .

ويقوم ابطال بيليايف برحلات عجيبة ويطيرون الى القمر والزهرة والى المحطات الكونية ويغوصون الى اعماق المحيطات ، فهم باحثون في ميدان العلم والتكنيك ، مخترعون مدهشون ، نفوسهم عامرة بالشجاعة والمخاطرة .

ومن اشهر كتاب الادب العلمي الخيالي المعاصرين في الاتحاد السوفييتي الروائي الكبير يفريموف . فقد اتجه الى هذا النوع من الادب واصدر عدة روايات تعد من اروع ما انتج الادب السوفييتي من الادب العلمي الخيالي واشهرها « القرن الابيض » و « الانبوبة الماسية » وروايته الشهيرة التي ترجمت الى العربية « اندروميدا » التي اصدرها سنة ١٩٥٧ ، ورواية « حد الموسى » و « ساعة الثور » و« مراكب النجوم » .

ويضيق نطاق هذه المقدمة عن ذكر كثير من المبدعين السوفييت فى الادب العلمى الخيالى الذى لقى رواجا هائلا بين القراء .

* * *

وفى القصص الاربع المنشورة فى هذه المجموعة « العمود الجهنمى » للكاتبين فاسكونسكى ولوكوديانوف ، و « سرطان البحر يغزو الجزيرة » لاناتولى دنيبروف ، و « انا ذاهب للقاء اخى » لفيتالى كرابيفين و « الى اللقاء يا ساكن المريخ » لرومان ياروف ، يلتقى القارىء باربعة من كتاب الادب العلمى الخيالى السوفييتى المعاصرين . ففاسكونسكى ضابط فى سلاح الغواصات سابقا ، ويمارس الآن التأليف ككاتب محترف وقد انضم الى مهندس البترول لوكوديانوف ، لكتابة رواية « طاقم ميكونج » وهى رواية خيالية هزلية تفيض بالمغامرات العجيبة . وبعد ذلك واصلا الكتابة معا ونشرا عددا من الروايات والقصص منها قصة « العمود الجهنمى » التى تتجلى فيها بشكل ساطع افكار الاممية والصداقة بين الشعوب .

اما اناتولى دنيبروف فاسمه معروف فى الخارج كاحد كتاب الادب الخيالى السوفييتى اللامعين . و « سرطان البحر يغزو الجزيرة » من خيرة ما كتبه من قصص . وتقترن فيها الدعوة ضد الحرب بفكرة تكنيكية تصور الامكانيات الهائلة لعلم السيبرنيتيك .

اما كرابيفين وياروف فهما من كتاب الادب العلمى الخيالى الشباب الذين اشتهروا فى الاعوام الاخيرة .

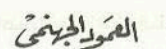
وفى قصة « انا ذاهب للقاء اخى » تصوير بديع للمجازفة والتضحية فى سبيل اكتشاف عوالم شبيهة بالارض فى جو رائع من العلاقات الانسانية الحميمة .

ويجدر ان نشير هنا الى ان اللغة الشاعرية ، والخيال المبتكر ، والوصف الاخاذ البعيد عن جفاف القوانين العلمية ، هى من ميزات هذه القصص .

وفى قصة « الى اللقاء يا ابن المريخ » لرومان ياروف حلم جميل للقاء سكان الارض مع اهل العوالم الاخرى .

ان خير ما نختتم به هذه المقدمة الموجزة هو ما قاله أ لكسى تولستوى الكاتب السوفييتى العظيم عن آفاق هذا النوع من الادب :

« اذا ما اردنا ان نتصور ماذا سيحدث بعد عشر سنوات ، فعلينا ان نتوقف عند النمو النفسانى للانسان . ان انسان المستقبل.. سيكون جميلا.. ذكيا صلبا وشريفا. مشاعره عميقة وواضحة ، لانه سيتربى فى احضان الفن العظيم الذى خلقته طبقة قوية وفتية ، وسيكون رمز الانتقال من جيلنا جيل المناضلين الابطال من اجل عالم جديد ، الى جيل المستقبل الذى سنراه فوق الارض المحررة وسط مدن الشيوعية الجميلة » .



ى. فوسكونسكى
أ. لوكوديانوف

ربما رأيتم صورة الكسندر كرافتسوف ، فهى منشورة فى جميع كتب الجيوفيزياء المدرسية ، فى القسم الذى يبحث « دائرة كرافتسوف » . وفى وقت ما كانت جميع صحف العالم تنشر هذه الصورة فى اعدادها المتتالية .

يطل عليك من الصورة شاب يرتدى قميصا ابيض مفتوحا عند الصدر كان يسمى انذاك «قميص التنس» ، وفى عينيه المزرورتين — من ضوء الشمس الساطعة فيما يبدو — يلوح شىء ما طفولى ، وفى الوقت نفسه ينم عن اصرار . وعموما فهى صورة ليست من عداد الروائع ، بل تحس بأنها التقطت بواسطة حزمة ضوئية مركزة مرت خلال عدسة ، واثرت على فضة برومية ، كما كان متبعا فى النصف الثانى من القرن العشرين . وفى وسعكم ان تشاهدوا اجهزة التصوير تلك معروضة فى متحف تاريخ التكنولوجيا المركزى .

هذه الصورة التقطها على متن السفينة « فوكوكا — مارو » مراسل صحيفة « الازفستيا » اولوفيانيكوف . ولم يكن يظن طبعا انه يصور شخصا قدر له ان يصبح من الخالدين .

ولكن الاسم — كما يحدث كثيرا — طغى على صاحبه واخفاه .

فلو انك سألت اول تلميذ يقابلك هل يعلم من هو الكسندر كرافتسوف ، لأجابك :

— كرافتسوف ؟ طبعا اعرفه ... دائرة كرافتسوف !

— انني اسألك لا عن الدائرة ، بل عن كرافتسوف نفسه .

عندئذ يغضّن جبينه ويقول :

— ولكن ذلك كان فى وقت بعيد جدا . لقد قام بعمل بطولى ما ، فى زمن « قصر الدائرة الكهربائية العظيم »

« قام بعمل بطولى ما ... »

هكذا اذن . ومن ثم ينبغى ان نحكى لتلميذ هذه الايام ، الذى وسع علمه كل شىء ، عن كرافتسوف نفسه . لا عن الاسم ... بل عن الانسان .

لأنه لم يكن على الاطلاق بطلا ، بل كان شابا عاديا جدا . كل ما هنالك ، انه كان يمكن الاعتماد عليه فى كل شىء .

كانت الجرائد فى تلك الايام تطبع على الورق ... اى على مادة سريعة التلف وهشة مصنوعة من عجينة من الخشب السليولوزى . لكنّه لدينا شرائط ميكروفيلم التقطت لتلك الصحف . وقد وجدنا لحسن الحظ مقالة طويلة رائعة عن كرافتسوف (ميكروفيلم رقم ك م م ٢١ ك — ٢٦٨١٤٣٨٩٧٤) كتبها اولوفيانيكوف . كما ان ليف جريجوريفيتش اولوفيانيكوف نفسه لازال قوى الذاكرة بالرغم من تقدمه فى السن ، وقد حكى لنا كثيرا من تفاصيل ذلك الحادث البعيد . بل انه احتفظ بنسخة من آخر رسالة كتبها كرافتسوف ، تلك الرسالة التى لم ترسل . ليس من السهل ان نحكى عن ذلك . فالواقع انه على ضوء حادث ضخم على نطاق الكوكب الارضى كله — ولقد كان « قصر الدائرة الكهربائية العظيم » هكذا فعلا — تبدو اية محاولة للكلام عن مصير انسان واحد اشبه بالادعاء . وسواء اردت ام لم ترد فانه يتحتم عليك ان تتحدث لا عن انسان واحد فقط ، بل عن

البشرية كلها ، لأنها هى وحدها القادرة على كبح جماح الكوارث فى العالم .

ومع ذلك فسوف نحاول ، على قدر المستطاع ، تتبع مصير عجيب لشخص واحد ، هو الكسندر كرافتسوف ، الذى كان واحدا ممن شاركوا بفعالية فى هذه الاحداث التى نرويها .

وباختصار ... نترك الحكم لكم .

— ١ —

لحظة الاستيقاظ من النوم ... يالها من حالة غريبة ! كان القدماء يعتقدون انه لا ينبغى ايقاظ النائم بغتة ، فالروح تترك الجسد اثناء النوم ، و يبقى النائم ميتا حتى تعود اليه . لكن القدماء لم يكونوا يعرفون شيئا عن النشاط الكهروفيزياكيميائى لخلايا المخ ، ولا عن خواص الاحماض النووية .

وخلال عدة لحظات يتذكر الشخص المستيقظ كل شىء . يتذكر من هو ، واين يوجد ، وما مضى ، وماذا ينتظره ...

وقبل ان يفتح كرافتسوف عينيه تخيل فوق رأسه ذلك السقف المطلى بالجير ، الذى الفه منذ الطفولة ، وقاعدة المصباح البلاستيكى المثبتة فى وسطه . ثم ادرك وعيناه لا تزالان مغمضتين ان تلك القاعدة تبعد عنه الآن اثنى عشر الف كيلومتر ، اما هنا فترتفع فوق رأسه الواح ضيقة مطلية بالمينا البيضاء ، تنعكس عليها متموجة اطياف امواج المحيط . تذكر كل شىء ففتح عينيه باحساس من عدم الرضا .

سيكون يوما حارا ساكن الهواء . وسيحدث جدل مع هويل . نعم ، فاليوم لديهم يوم روسى ، وسيتحدثان باللغة الروسية فقط . اما هو ، كرافتسوف ، فسوف يجهز له الطعام وفق ما يرتئيه ، فبماذا يضيّفه لقاء طبق « الاومليت » الممزوج بمربى الكزبرة الحامضية ، الذى اعده له هويل بالأمس ؟

وارتدى النظارة الشمسية الواقية وخرج الى السطح والقى نظرة على باب قمرة هويل الموارب . تناهى الى سمعه ازيز ماكينة الحلاقة الكهربائية ... نعم ، هذا المتأنق العريق قد يفضل ان يصبح طعاما لسمك القرش على ان يخرج فى الصباح وذقنه غير حليقة . اما كرافتسوف

فلم يحلق ذقنه للشهر الثانى ... على اية حال ليس هناك احد قربهم ، على امتداد ثلاثمائة ميل . ولكن حتى هذا لم يكن السبب فى اطلاقه لحيته ، بل انه كان يعرف ان لحيته البنية المتناثرة الشعيرات كانت تثير هويل ، وكان هذا يسبب لكرافتسوف ليس الفرحة ... بل ... كان يسرّى عنه ... او شيئا من هذا القبيل .

وقال كرافتسوف :

— صباح الخير يا هويل .. ماذا تريد ان تفطر اليوم ؟

وتناهى من خلف الباب صوت هويل المتذمر :

— صباح الخير ... اشكرك على اهتمامك الكبير .

وضحك كرافتسوف ضحكة قصيرة ، وتوجه الى المطبخ . وقف امام الثلاجة مترددا ، ثم توجه نحو الرفوف بحزم وتناول علبة الحنطة السوداء . نعم ، عصيدة الحنطة السوداء فى الفطور ... هذا بالضبط ما لا يطيقه هويل .

ترك الحنطة تنضج ومضى يتفقد الطوف . واستغرق ذلك نصف ساعة . فقد كان قطر الطوف خمسمائة متر . وكان ثابتا فى مكانه مع انه لم يكن مشدودا بمرساة ،

فهنا ، فوق اعمق نقطة فى المحيط لم يكن من الممكن استخدام المرساة .

كانت هناك ست مراوح دافعة (رفاصّات) جبارة تجعل الطوف ثابتا : ثلاث منها تدور الى اليمين ، وثلاث الى اليسار . اما اجهزة الارسال المدلاة خارج الطوف فكانت تبث اشاراتها بلا توقف الى العقل الاليكتروني مزودة اياه بكل ما يلزم من معلومات عن الهواء والموج والتيار ، فكان العقل الاليكتروني يدرس هذه المعلومات بلا انقطاع ويعطى الاوامر الى وسائل ادارة المراوح .

اما مراوح المجموعة الثانية — وعددها ايضا ست — فكانت موضوعة تحت الطوف بشكل عمودى ، ومهمتها مقاومة ميل الطوف او تأرجحه . فمهما ثارت ثائرة المحيط فان الطوف يبقى دون حراك — وقد تأكد كرافتسوف وهويل من ذلك مرتين — ولا يزيد مدى انجرافه مع التيار عن مائة متر ، اما عمود الانابيب الذى يخترق الطوف حتى قاع المحيط فلا يزيد انحرافه عن الزاوية الرأسية سوى درجة او اقل .

وكانت ذرى اعلى الامواج لا تصل الى حافة السطح

الذى يرتفع ثلاثين مترا ، وفى بعض الاحيان كانت الريح تلقى عليه ندفا من زبد الامواج العاصفة .

كان كل شيء اليوم على ما يرام ، كالمعتاد . فالمرجل الذرى يسخن بانتظام الماء الذى حولته آلات التقطير الايونية الى ماء عذب ، والبخار يحرك بانتظام الاعضاء الدوارة للتربينات . وكانت مولدات محطة الكهرباء تعمل بالحد الادنى لأن المحيط الهادى كان هادئا ، مبررا بذلك اسمه الغريب . اما فائض الطاقة فكان يستغل فى عمل جانبى ، هو التحليل الكهربائى للفضة الذائبة فى مياه المحيط ، مما كان يعوّض الى حد ما النفقات الكبيرة التى يتحملها المركز الجيوفيزيائى الدولى .

كانت الاجهزة الاتوماتيكية تعمل دون خلل . ونظر كرافتسوف الى سطح المحيط الازرق الذى تضيئه اشعة شمس الصباح الحانية . فى الايام الاولى كان يقف مبهور الانفاس امام هذه اللوحة المهيبة ، اما الان فلم يعد المحيط يثير لديه شيئا غير الضجر .

« سبعة وعشرون يوما حتى نهاية النوبة » ... فكر كرافتسوف وهو يحك ذقنه تحت اذنه اليسرى ... وهى عادة اكتسبها حديثا .

وتوجه الى مركز الطوف حيث انتصب برج حفر ارتفاعه مائة وخمسون مترا ، ونظر الى الشريط فى فتحة الجهاز الكاتب . لقد اصبحت نظرته اكثر انتباها : فخلال اليوم الماضى ازداد ارتخاء اسلاك الرفع بمقدار خمسة عشر مليمترا . وبالامس كان هو وهويل قد لاحظا ان الاسلاك ارتخت قليلا عن المعتاد ، لكنهما لم يلقيا بالا الى ذلك ... ولكن خمسة عشر مليمترا فى اليوم ؟ ...

كان هويل يطرطش الماء فى « حمام السباحة » ... وهى رقعة صغيرة من الماء تفصلها عن بقية المحيط شباك مضادة لسمك القرش . وفى الساعة السابعة والربع تماما سيخرج من المصعد وهو يزفر قائلا : « المياه اليوم دافئة جدا » . ففى جسد هويل الاعجف كان يكمن نابض ساعة دقيقة ملء مرة والى الابد .

اضاف كرافتسوف السمن والملح الى عصيدة الحنطة السوداء وصنع الشاى وخرج من المطبخ فى اللحظة التى صعد فيها هويل الى السطح . فرفع كرافتسوف يده بالتحية دون حماس ، ورد هويل بايماءة ونزع غطاء الرأس المطاطى الابيض ومسح الماء براحتيه من على جسده الاسمر وقال :

— المياه اليوم دافئة جدا .
فدمدم كرافتسوف :
— من كان يظن !
وجلسا للفطور تحت المظلة . وبدا هويل وكأنه لم يلاحظ عصيدة الحنطة السوداء ، فقد شقّ قرص الخبز وحشاه بشريحة سميكة من لحم الخنزير المقدد وصب فى كوبه شايا وروما .
فقال كرافتسوف :
— عبثا لا تأكل العصيدة .
فرد هويل بهدوء :
— شكرا .. فى مرة قادمة . كيف قضيت ليلتك ؟
— كانت ليلة سيئة . ارهقتنى الكوابيس .
— لا تقرأ مجلات بلغة الاسبرانتو قبل النوم .
— دراسة الاسبرانتو افضل على اية حال من تشكيل اقزام بشعة من الصلصال .
فقال هويل وهو يرشف الشاى بالروم :
— نعم ، لا استطيع حتى الآن تشكيل تمثال لك من الصلصال . ربما لأنى لا اعرف بشكل واضح جوهرك الروحى .

— جوهرى الروحى ؟ — وضحك كرافتسوف بتهكم ونظر الى شعر هويل القصير الاشيب — أتريد ان احكى لك حكاية ؟ سأل الارنب الأيّل ذات مرة : « لماذا تحمل على رأسك هذا الثقل ؟ » . فرد الغزال : « كيف لماذا ؟ ! من اجل الجمال طبعا . اننى لا اطيق اولئك الذين يسيرون برؤوس خالية » . فغضب الارنب وقال : « ولكن عندى عالما داخليا غنيا » .
وأخذ هويل يحشو غليونه بتبغ ذهبى فى صمت ، ولكن كرافتسوف ادرك من عينيه المزرورتين انه يفكر فى الحكاية .
ثم قال هويل وسحب الدخان تلفه :
— والآن سأحكى انا . وقع احد الايرلنديين ذات مرة فى قبضة دب فسأله : « اتريد ان تأكلنى ؟ » فقال الدب : « نعم ، سآكلك » ، فقال الايرلندى : « ولكن اتأكلنى دون شوكة ؟ » وكان الدب شديد الغرور ، ولم يشأ ان يعترف بأنه لا يدرى ما هى الشوكة . وفكر ، ثم قال : « نعم ، معك حق » . واطلق سراحه .
— هل هذا كل ما هنالك ؟
— نعم ، هذا كل ما هنالك .

وضحك كرافتسوف ضحكة استخفاف . وصمت قليلا ثم قال :

ـ السلك ارتخى ١٥ مليمترا .

ونظف هويل غليونه من الرماد وبصق فى الصندوق المملوء بالرمل :

ـ هيا نهبط يا فتى .

ثم نهض واتجه نحو البرج على مهل .

وتبعه كرافتسوف وهو ينظر الى ساقيه القويتين المغطاتين بالشعر ، والثنية الانيقة فى نهاية سرواله القصير الاخضر الفاتح .

ورفعا غطاء كوة السطح الثقيل وهبطا تحت ارضية برج الحفر . كان المكان هنا مظلما وخانقا . واشعل كرافتسوف الضوء .

كان امامهما الطرف الاعلى لأنبوب الاسناد والذى ينتهى بعدة بريفنترات * تخترقها ماسورة الحفر متجهة الى اعلى .

* البريفنترات هى صمامات ضخمة لاحكام غلق البئر كلها او الفضاء الدائرى الواقع بين انابيب الحفر وانابيب الاسناد فى حالة اندفاع الغازات من الطبقات الارضية السفلى .

ووقف هويل يفكر بعض الوقت ، ثم صعد الى الشفر (الشفة) العليا ، واخرج المسطرة ثم قاس المسافة حتى القضبان الموجودة تحت الدوار .

وسأ له كرافتسوف :

ـ ماذا اكتشفت ؟

وقفز هويل الى اسفل ثم تفحص البريفنترات من جديد ، واخذ يدمدم اغنية اسكتلندية قديمة .

وسأ ل كرافتسوف وقد بدأ يفقد صبره :

ـ وماذا هناك ؟

ـ اننى انا الذى وضعت هذه البريفنترات بنفسى منذ ست سنوات . ولتنزل على رأسى اللعنات ان لم تكن انابيب الاسناد قد ارتفعت مالا يقل عن ست بوصات !

ـ هل تذكر جيدا كيف كانت موضوعة ياهويل ؟

ولم يرد هويل ، فقد كان من عادته الا يجيب على مثل هذه الاسئلة .

ـ ٢ ـ

منذ ست سنوات ، وبقرار من السنة الجيوفيزيائية الدولية (س . ج . د) بدأت هنا ، فوق هذه الهوة

السحيقة فى المحيط ، اعمال حفر بئر كبيرة العمق لدراسة تركيب الارض . وساهمت جميع البلدان الاعضاء فى بناء القاعدة العائمة للبئر. ثم جاءت اربع فرق من الحفارين ، اختارتهم اللجنة الدولية للعمل فوق الطوف. وكانوا جميعا من امهر حفارى آبار البترول تحت سطح البحر ، ولكنهم كانوا لاول مرة يحفرون بئرا عمقها خمسون كيلومترا . صحيح ان الهوة السحيقة فى المحيط وفرت عليهم اكثر من عشرة كيلومترات ، ولكن حفر اربعين كيلومترا ليس بالأمر الهين .

وكان على اجهزة الحفر ان تشق طريقها لاول مرة فى الغلاف الموجود تحت قشرة الارض ، فى ذلك الستار الغامض .

وفى هذه النقطة تحت قاع المحيط كانت طبقة « موخروفيتشتش» (منطقة تغير الخواص) تقع على اقرب مسافة من سطح الارض .

واستخدمت فى حفر البئر احدث منجزات التكنولوجيا العالمية . فصنعت انابيب الاسناد من سبيكة شديدة الصلابة ولم يجر انزالها حتى قاع البئر ، بل مرت عبر مياه المحيط ولم تتوغل فى قاع المحيط سوى بضع

كيلومترات . وبعد ذلك لم تبطن جدران البئر بالمعدن ، فطريقة الحفر بالبلازما الحرارية التى كانت تصهر التربة وتحولها الى الحالة الغازية ، كانت تسبك الجدران وتجعلها صلبة محكمة الغلق ، وتمنع حدوث اية انهيارات ، وتسد اية طبقات عازلة للمياه قد تعترض طريقها .

وخلال هذه البئر توغلت انابيب الحفر الى اعماق سحيقة مجهولة . ولم تكن الانابيب توّصل ببعضها كالعادة بالماسكات الحلزونية ، بل كان جهاز اللحام الاتوماتيكى العالى الذبذبة يلحمها ببعضها فى لحظة واحدة تقريبا اثناء هبوطها . اما عند رفع الانابيب فكان جهاز القطع الاتوماتيكى الذى يعمل بالبلازما يقطعها فى مواضع اللحام السابقة .

ولو كان حفر البئر كلها قد تم بطريقة الحفر بالبلازما الحرارية لانتهى العمل بشكل اسرع نسبيا ، « دفعة واحدة » . ولكن الهدف لم يكن الحفر فى حد ذاته ، بل اخذ عيّنات متتالية للتربة من جميع الطبقات التى تمر بها البئر . ولذلك فقد كان الحفارون يلجأون بين الحين والحين الى طريقة الحفر القديمة بالبريمة مع غسل المجرى بمحلول طينى مركز ، فليس هناك من

وسيلة اخرى غير بريمة العمود البطيئة ذات الاسنان الماسية للحصول على عينات من الطبقات الارضية فى حالتها الطبيعية الاصلية دون تشويه ، وبزاوية واضحة لتراكم الطبقات ، ومع الاحتفاظ بالتركيب المسامى الطبيعى ودرجة التشبع وغير ذلك من الخواص التى تهم الجيولوجيين .

وفى بعض الاحيان لم يلجأوا فقط الى الحفارات الكهربائية او التربينية بل ايضا الى الحفر الدوار ، حيث يدور عمود الانابيب الضخم بأكمله . وقد امكن استخدام الدوّار على هذا العمق الكبير فقط لأن انابيب الحفر صنعت من سبيكة جديدة خفيفة وصلبة ، اعدت خصيصا لهذا الغرض .

وكان المكان المقدس فى الطوف هو « مخزن العيّنات » ، حيث تحفظ العينات التى كانت على شكل اعمدة اسطوانية من التربة المستخرجة بواسطة بريمة العمود وتوضع على رفوف محمولة مرقّمة فى احواض شبه مستديرة . كان المخزن يشغل ما لا يقل عن نصف مساحة السطح الاوسط فى الطوف . وكان هناك ايضا معمل لدراسة وتحليل العينات . فقد كان من

الضرورى الحصول على بعض المعلومات فورا بمجرد اخراج العينات الى السطح . وبعد ذلك كانت العينات تحفظ من اجل الابحاث التالية ، وذلك بغمرها فى سائل يتحول بسرعة الى بلاستيك شفّاف .

وكم من مرة رفع عمود الحفر ، فكان الجيولوجيون يقرأون ببطء ، وحرفا اثر حرف ، قصة الاعماق المدهشة ، ويحارون امام الغازها .

وعند الكيلومتر الثانى والاربعين تعثر الحفر فجأة . هناك فى الاسفل كانت البلازما ــ الغاز الاليكترونى النووى ــ التى تبلغ حرارتها مائة الف درجة ، تزمجر وتضرب جدران البئر عبثا . وانعطفت مؤشرات الاجهزة حتى اقصى يمين اللوحات .. ولم يجد ذلك شيئا ، فرأس الحفار البلازمى التى لم تقف امامها من قبل اية عقبة قد اصطدمت الآن بعائق لا يمكن تخطيه .

وقرر المشرفون على الحفر سحب الانابيب وفحص رأس الحفار.. ولكن الانابيب لم تستجب للسحب .. كان هناك شىء ما غير مفهوم يمسك بها فى البئر .

فى تلك الفترة بالذات قال احد معلمى الحفر المدعو على رحيموف من اهالى باكو عبارته التى اصبحت فيما بعد شهيرة .

— انها لا تريد التحرك اماما او خلفا .. تماما كحمار من «كاراباخ» .

وجاهد الحفارون عدة اسابيع فى محاولة للتغلب على مقاومة التربة او رفع عمود الانابيب الجبار .

ونشب الجدل بين خيرة جيولوجيى العالم فى صالون الاستراحة على متن الجزيرة العائمة حول هذه الظاهرة الغريبة ، دون ان يتوصلوا الى نتيجة . ولم يكن فى نية البئر التى توغلت الى اعماق خرافية ان تبوح بسرها لأحد .

عندئذ قررت هيئة رئاسة (س . ج . د) وقف اعمال الحفر ، واقفر الطوف المستدير ، وهدأ اللغط المتعدد اللغات ، ولم تعد ترسو على شاطئ الطوف سفن النقل حاملة الهيماتيت (أكسيد الحديد الخام) والطين والمواد السطحية النشيطة اللازمة لمحلول الحفر . وطار العلماء ، وخلا مخزن العينات ، فقد نقلت لاجراء الدراسات النهائية عليها .

ونظمت لجنة الجيولوجيا التابعة لـ (س . ج . د) نوبات عمل مدة كل منها ثلاثة اشهر على متن الطوف . وفى البداية كانت النوبة تتألف من فرقتى حفر ، ولكن مع مرور السنين تقلصت النوبات شيئا فشيئا حتى اقتصرت على شخصين اثنين ... مهندسى حفر .

واستمر الحال هكذا ست سنوات . كان مهندسا النوبة ينزلان الرافعة كل صباح فى محاولة لرفع الانابيب ، ويفتشان كل صباح على درجة توتر اسلاك الرفع . ودائما كانت تظهر فى سجل النوبات عبارة واحدة بجميع اللغات : «الانابيب لا ترتفع» .

ان «حمار كاراباخ» ماض فى عناده !

عندما بدأ حفر البئر الكبيرة العمق كان ساشا كرافتسوف طالبا وكان رأسه ذو الخصلة المدلاة محشوا بكمية هائلة من المعلومات عن عملية الحفر الفريدة هذه استخلصها من قراءة المجلات المتخصصة او سمعها من شهود عيان . وكان كرافتسوف يحلم بالذهاب الى الطوف المستدير القائم فى المحيط ، ولكنه بدلا من ذلك عيّن بعد تخرجه من المعهد مهندسا فى مدينة «نيفتيانيه كامنى» ، حيث يستخرج البترول من بحر قزوين . وعمل هناك بضع سنوات . وفجأة ، وعندما كان قد كف عن التفكير فى البئر المهجورة ونسيها ، عين فى نوبة لثلاثة اشهر على متن الطوف .

وفرح عندما علم ان زميله فى النوبة هو هويل ماكفرسون ، احد العاملين القدامى فى حفر البئر .

وبالفعل ، كانت الايام الاولى شيقة ، فقد كان هذا الاسكتلندى يحدثه كثيرا وهو يمص غليونه ويخلط الكلمات الروسية بالانجليزية عن المياه « الشديدة الغليان » عند الكيلومتر الثانى عشر ، وعن الرمال السوداء عند الكيلومتر الثامن عشر ، تلك الرمال التى لم تجد معها طريقة الحفر العمودى نفعا ، اذ كانت « تلتهم » الرأس الماسية للحفار خلال ساعتين . وتذكر ضاحكا ذلك الجيولوجى الحاد المزاج براموليا ، الشيلى الجنسية ، الذى طلب منهم ان يستخرجوا مالا يقل عن ثمانية اطنان من هذه الرمال السوداء مهما كلّف الامر ، حتى انه صلى لله طالبا منه العون العاجل .

وحدثه هويل ايضا عن الاهتزاز المرعب والضغوط الخرافية ، وعن البكتريا الغريبة التى تسكن فى الطبقات الغنية بالميثان عند الكيلومتر السابع والثلاثين ، وعن اندفاعات الغاز الخطيرة ، والحريق الذى تمكنوا من اطفائه بعد جهود خارقة .

ولم يكن الاسكتلندى يحب التكرار ، فما ان فرغت جعبته حتى تملك كرافتسوف الملل . واتضح انه فيما عدا الحفر تحت البحر ، فان وجهة نظرهما متعارضة تماما ، وكان

ذلك سببا فى جعل الحياة اكثر تعقيدا . كانا يتجادلان بأدب حول اتفه الامور ابتداء من وسائل تحديد كثافة المحلول الطينى حتى التحليل النفسى المقارن للروح الروسية والانجليزية .

فكان هويل يقول بهدوء :

— انتم لا تفقهون شيئا فى نفسية الانجليز . فالشخص الانجليزى فى نظركم هو خليط من صمويل بيكويك والعقيد لورنس وسومس فورسايت .

ويعارضه كرافتسوف هاتفا :

— غير صحيح ! انتم الذين لا تفهمون الروس ، فنحن فى تصوركم شىء ما وسط بين الاخوة كارامازوف و(الاوسطى) على اوفساد !

كان كرافتسوف يثور عندما يأخذ هويل فى الحديث عن خصائص الروح الروسية الغامضة التى قرأ عنها فى مؤلفات دستويفسكى ، حيث يتعاقب الخير والشر كما يدعى كطبقات متوالية ، كالطين ثم الرمل فى الطبقات الحاملة للنفط . وضحك كرافتسوف عندما تذكر هويل الاوسطى على اوفساد وحدسه المذهل بالنسبة لاعماق

الارض . وذات مرة قص عليه الاسكتلندى حادثة وقعت لهم عندما وصلوا بالحفر الى الكيلومتر العشرين ، اذ انكسرت الانابيب لسبب ظل حتى الآن مجهولا . وانزلوا فى البئر آلة تصوير حتى يحددوا عن طريق الصور شكل الكسر وطبيعته ؛ ولكن الفيلم فسد بالرغم من كل الاحتياطات التى اتخذوها ضد النشاط الاشعاعى . عندها تذكر على اوفساد فنه القديم فأنزل فى البئر بواسطة الانابيب «ختما» هو عبارة عن قطعة من الرصاص ، وقربها بحذر من حافة عمود الانابيب المكسور فى الاسفل وضغط «الختم» على مكان الكسر . وعندما سحبوا الختم حتى اصبح معلقا فوق فوهة البئر ، رفع على اوفساد رأسه اليه وتفحص طويلا الصورة المطبوعة على قطعة الرصاص . ثم صنع بيديه — مسترشدا بالصورة المطبوعة على الرصاص — خطافا «سعيد الحظ» ذا شكل غريب وجذب به الانابيب المكسورة حتى ابعدها عن جدران البئر وجعلها فى الوسط ثم استطاع اخيرا ان يطبق عليها فكى القابض الجبار .

وقال هويل :

— ان مواطنكم على اوفساد هو اويل دريللر * حقيقى . انه يرى جيدا تحت الارض . لم ار رجلا احسن منه خبرة فى تجنب الكوارث .

كان الاسكتلندى يحسن الروسية الى درجة لابأس بها ، وان كان يلفظها بلكنة اذربيجانية نتيجة معرفته القريبة بعلى اوفساد الاذربيجانى . فكان يحشر فى كلامه عبارات ليست روسية التركيب مثل : «استريح — ما استريح ... دا كلام مش افهم ... امشى بير اشتغل حفر» . وكان هويل يتذكر اكلة يعتبرها روسية ، كان على اوفساد يعدها فى ايام الراحة من امعاء الضأن واسمها «جيز — بيظ» .

كان كرافتسوف على معرفة بعلى اوفساد اثناء عمله فى آبار «نيفتيانيه كامنى» فى اذربيجان ، لذلك فقد كان يعلم تمام العلم تركيباته اللغوية مثل «استريح — ما استريح ... دا كلام مش افهم» .

لقد كان حب الحفر تحت البحر ، والاحترام لشخص الاوسطى على اوفساد الشيئين الوحيدين ، على ما يبدو ، اللذين يجمعان بين كرافتسوف وهويل .

* حفار آبار بترول (بالانجليزية)

مر يوم آخر . واظهرت المبينات ان عمودى الانابيب — عمود الحفر وعمود الاسناد قد ارتفعا عشرين مليمترا . وحاولا شدّ عمود الحفر بالرافعة ففشلا مثل كل مرة . وكأن الارض تطرد الانابيب من اعماقها بنفسها . ولا تسمح للانسان ان يقوم هو نفسه بهذا العمل .

ودبت الحماسة فى هويل ، فكان يقضى الساعات تحت ارضية برج الحفر وبجوار البرفنترات ويسجل بعض الملاحظات على جهاز التسجيل ، ويغنى طوال الوقت اغانى اسكتلندية .

وقال له كرافتسوف على العشاء :

— اسمع يا هويل .. اعتقد انه ينبغى ارسال برقية الى المركز .

فرد هويل وهو يخلط الشاى بالروم :

— اننى افهمك يا فتى .. تريد طلب مجلات جديدة بلغة الاسبرانتو .

— دعك من المزاح * .

* الترجمة الحرفية للعبارة الروسية : الق المزاح !

فردد الاسكتلندى العبارة ببطء :

— دعك من المزاح ... ياله من تعبير غريب ... بالانجليزية لا يمكن ان تقول هكذا .

وقال كرافتسوف وهو يكبح ثورة غضبه :

— اننى اكرر بالانجليزية : يجب ان نبرق الى المركز . هناك شىء ما يجرى فى البئر .

وفى الصباح طلبا فترة ارسال استثنائية وبلّغا لجنة الجيولوجيا التابعة (س . ج . د) عن الارتفاع الذاتى الغريب للانابيب .

ورد عليهما صوت نائب رئيس اللجنة من بعيد :

— استمروا فى المراقبة . لستم بحاجة الى معونة عاجلة ياهويل ، أليس كذلك ؟

— حتى الآن لسنا فى حاجة اليها .

— حسنا اذن . فالواقع اننا نواجه متاعب خطيرة فى الحفر على شاطئ بيرو . بلّغ تحياتى الى كرافتسوف . وداعا يا هويل .

وخرج المهندسان من كابينة الاتصال فأطبق عليهما جو القيلولة الخانق اذرعه اللزجة . وحكّ كرافتسوف ذقنه قائلا :

ـــ لا بد ان السبب فى متاعبهم قيام حكومة عسكرية ديكتاتورية جديدة ... عليها اللعنة !

فرد هويل وهو يجفف رقبته بمنديل :

ـــ أليس الامر سيان ؟ بشرط الا يعطلوا العلماء والمهندسين عن العمل .

ـــ العالم لا يتألف من العلماء والمهندسين فقط .

ـــ لا دخل لى بذلك ، فأنا لا اهتم بالسياسة . وعندما انظر اليك وانت تركض نحو الراديو لسماع نشرة الاخبار ، يتملكنى الضحك .

فنصحه كرافتسوف :

ـــ اذن لا تنظر ، فأنا مثلا لا انظر اليك عندما تصنع من الصلصال تماثيل نساء وتبتسم ابتسامة شهوة وشبق .

ـــ هم ... لا دخل لك بابتساماتى .

ـــ طبعا ، مثلما لا دخل لك بركضى نحو الراديو .

ـــ هل فحصت الاسلاك ؟

ـــ نعم ، وشددت الجزء المرتخى . اسمع يا هويل ، اى شيطان جعلك توافق على المجئ للعمل هنا ؟ رجل له خبرتك كان يستطيع ان يحفر الآن ...

فقاطعه الاسكتلندى بحدة :

ـــ هنا يدفعون جيدا .

وهبط داخل الكوة .

ـــ ٤ ـــ

واصلت الانابيب زحفها الى اعلى . ففى صباح اليوم السادس نظر كرافتسوف فى فتحة الجهاز الكاتب ولم يصدق عينيه : الانابيب ترتفع بسرعة متر ونصف فى اليوم !

وقال لهويل :

ـــ اذا كانت ستستمر هكذا ، فسرعان ما تنحشر انابيب الاسناد فى الدوّار .

ـــ هذا جائز جدا .

كان هويل خارجا من قمرته ، حليق الذقن ، يرتدى مايوها ازرق .

فسأله كرافتسوف متجهما :

ـــ هل ستستحم ؟

ـــ نعم ، حتما .

وشد على رأسه الغطاء المطاطى واتجه نحو المصعد .

وهبط كرافتسوف عبر الكوة . كانت البرفنترات ترتفع ارتفاعا ملحوظا . وقال لنفسه : « لابد من سحب اللقمة من العضو الدوّار حتى تستطيع البرفنترات ان تمر من خلاله » واخذ يفصل انابيب الادارة الهيدروليكية .

وفى هذه اللحظة وصل هويل . كانت تنبعث منه رائحة البحر المنعشة . وقال :

— المياه اليوم دافئة جدا . ماذا تفعل هنا يافتى ؟

وخلصا البرفنترات من الغواصات وفصلا عنها كل الاجزاء الناتئة ، ثم صعدا الى اعلى .

وقال كرافتسوف :

— اننى لا افهم شيئا . حسنا ، لكن ذلك ارتفاعا ذاتيا للانابيب . هذا شىء لا يصدق ، ولكنه حقيقة واقعة . ولكن اليست مؤخرة عمود الاسناد مغروسة فى الارض ؟ ومع ذلك فهى تزحف الى اعلى ايضا . اى شيطان هذا ؟ عما قريب سنرى قمة انابيب الاسناد، وقد جاءت بنفسها الينا هنا .

فقال هويل : — ينبغى قص انابيب الحفر العليا .

ورفع كرافتسوف وجهه الى اعلى وزرّ عينيه خلف زجاج النظارة ونظر الى مجمّع بكرات الرفع . لقد شدوا فى الايام الاخيرة الاسلاك المرتخية كثيرا ، وهكذا كاد مجمع بكرات الرفع يصل الى قمة البرج . وذهب كرافتسوف الى لوحة الادارة ونظر الى المؤشر وقال :

— لم يعد هناك فى الاحتياطى سوى تسعة امتار .

نعم ، ينبغى قص الانابيب .

وقف هويل امام مفاتيح لوحة الادارة ، وزمجر المحرك الرئيسى عندما اداره هويل ، وازت فى رفق تروس محوّل السرعة فى الرافعة الجبارة ، وشد هويل بها انابيب الحفر . ثم مس باصبعه مفتاحا ، ثم آخر . وبرز من فرش المكنة الاتوماتيكية حامل طويل به جهاز قطع بلازمى والتصق بالانبوب . ومن خلف زجاج ازرق مضاد للكسر انطلق من نهاية انبوب مصنوع من الولفرام خيط رفيع من الغاز الاليكترونى النووى محدثا صفيرا .

وادارت الالة الاتوماتيكية جهاز القطع بسرعة حول انبوب الحفر ، ثم انطفأ اللهيب بفرقعة خفيفة ، وانسحب الحامل الى مكانه .

وتأرجحت « شمعة » انابيب الحفر المقطوعة والتى يبلغ طولها ثمانين مترا وهى مشدودة بالخطّاف ، وسحبتها الرافعة الاتوماتيكية العليا جانبا وانزلتها فى « الشمعدان » ، كما توضع انبوبة اختبار فى حامل الانابيب .

وهبط الخطاف ذو القابض الاتوماتيكى (سبايدر) بسرعة الى اسفل . كان يبدو فى الاعلى اكبر قليلا من سنارة صيد السمك ، ولكنه عندما هبط كاد يشغل المساحة بين ارجل البرج المعدنية كلها .

واطبق السبايدر فكيه المعدنيين على حافة عمود انابيب الحفر التى بقيت فى الاسفل . وادار هويل صمام الرفع فى محاولة لـ « خلخلة » الانابيب لعلها ترتفع . كلا ، لم تخفف البئر قبضتها على الانابيب كما فى المرات السابقة .

لم يكن فى وسعهم عمل شىء ، فتمدد كرافتسوف على الشيزلونغ تحت المظلة ودفن وجهه فى مجلة بلغة الاسبرانتو ، ولفح الهواء جسده باعثا فيه احساسا بالراحة . اما هويل فقد نزع شريط جهاز التسجيل واخذ يتفحص ماسجل عليه وهو يصفر .

ورفع كرافتسوف رأسه وسأله :

ــ ترى ماذا يمكن ان يكون هذا يا هويل ؟ كما لو كانت البئر قد هاجت ...

ودوى صوت هويل حادا على غير عادته :

ــ وما الذى نعرفه نحن عن باطن الارض ؟ اننا لا نعرف سوى قشرة الورق الرقيقة التى تغطى سطح الكرة الارضية .. وحتى هذا لا نعرفه جيدا .

وقال كرافتسوف فى نفسه : « تشبيه لا بأس به » ثم قال بصوت مسموع :

ــ لو لم تنفق البشرية كل هذه الاموال على التسليح...

ــ ماذا قلت ؟

فقال كرافتسوف بصوت متعب :

ــ لا شىء .. اننى احدث نفسى .. كان بوسعنا ان نفعل الكثير لو اتحدنا ، لو كنا عالما واحدا ...

فقاطعه هويل :

ــ هذا لن يكون ابدا .

ــ بل سيكون . حتما سيكون ..

ــ البشرية التى تفضلون الحديث عنها كثيرا ، تميل الى العراك اكثر منها الى البحث العلمى .

— ليست البشرية يا هويل ، بل بعض ال ...

— اعرف ، اعرف ، لقد شرحت لى ذلك : انهم الاحتكاريون ، ولكن ما دخلى انا بذلك ، عليهم اللعنة .

ولاول مرة يرى كرافتسوف رفيقه الاسكتلندى فى مثل هذه الحالة من الهياج .

وقال كرافتسوف وهو يبسط رجليه الطويلتين المسمرّتين :

— حسنا ، دعنا من هذا . ولكن لماذا تصعد الانابيب بإلحاح ؟ ربما كان ذلك بسبب صعود قاع البحر ؟ او بسبب حدوث هزات ما تحت الماء ...

وترك هويل شريط التسجيل ، ودوّن شيئا ما فى مفكرته .

ثم قال بتذمر :

— من الافضل ان تخبرنى لماذا تتمغنط الانابيب .

ورفع كرافتسوف حاجبيه مستغربا :

— تتمغنط ؟ هل انت واثق من ذلك ؟

ولم يرد هويل .

— ولكنها من سبيكة لا تتمغنط ...

— اعرف . الا ان الحقيقة تظل حقيقة . خذ الرسم

البيانى بالقياسات اليومية خلال شهرين — ومدّ يده بالمفكرة الى كرافتسوف .

كان كرافتسوف يعتبر انكباب الاسكتلندى على مسجل المغناطيسية (المغنيطوغراف) نزوة من نزواته الغريبة . بيد انه ذهل عندما نظر الآن الى الجدول البيانى المرسوم بعناية . لقد ظهرت فجأة مغنطة الانابيب فى الاسبوعين الاخيرين . وتزايدت يوما بعد يوم بشكل ملحوظ ، بعد ان لم يكن لها وجود سابقا . وهى بشكل عام ضعيفة للغاية ، ولكن من المفروض الا يكون لها وجود على الاطلاق .

— اتريد ان تقول يا هويل ان ...

— أريد ان اقول انه ينبغى ان نذهب للغداء .

— ٥ —

استيقظ كرافتسوف على عويل الريح . كان الوقت مبكرا جدا ، وقد بدأت خيوط الفجر تتسرب خلال ظلام الليل الحالك . وتدفق الهواء الى القمرة خلال النوافذ المستديرة المفتوحة وهز الستائر وقلّب صفحات

المجلات على الطاولة . كان هواء باردا رطبا ، يحمل رائحة خريف موسكو البعيد ، فسرى فى كرافتسوف احساس بالقلق والفرحة .

وقال فى نفسه « قريبا تنتهى النوبة » ، وفجأة تذكر ماحدث على الطوف فى الايام الاخيرة ، فتبدد على الفور خدر النوم . وارتدى ملابسه وغادر القمرة . كانت البئر مضاءة . يا ترى ما الذى يفعله هويل هناك فى هذه الساعة المبكرة ؟ واسرع كرافتسوف نحو البرج فسمع صفير الريح وهى تضرب درجاته المعدنية ، وزئير المحيط وقد أيقظته عاصفة بدأت تهب . وفى السماء المظلمة لم تبد النجوم او القمر .

وصعد كرافتسوف ركضا على جسر البئر فرأى الاسكتلندى واقفا على حافتها .

— ماذا حدث يا هويل ؟

ولكنه رأى بنفسه ما حدث . كانت البرفنترات تصعد ببطء خلال فتحة العضو الدوار ذات الزوايا الثمانى ، وقد نزعت منها اللقم . تصعد تحت سمعهم وبصرهم وقد دفعها الى اعلى عمود انابيب الاسناد ... كان منظرا مذهلا ، غريبا ، ليس له مثيل .

وقال هويل : — ينبغى نزع البرفنترات .

— أليس ذلك خطرا يا هويل ؟ واذا حدث تدفق غاز ...

— ينبغى نزعها وهى لا تزال هنا .. لو صعدت الى اعلى فسيكون من الصعب نزعها .

وشرعا يعملان بمهارة بواسطة المفكّات الكهربائية ، فنزعا الشفرة الضخمة ثم خلصا احد البرفنترات وشبكاه فى خطاف الرافعة المساعدة . وبنفس الطريقة فصلا البرفنتر الثانى والثالث . وعندما كانا يفكّان البرفنتر الاخير ، كان هذا قد وصل الى مستوى الصدر فقد استمر عمود انابيب الاسناد فى صعوده تدفعه قوة غامضة .

صحيح انه لم يكن يرتفع بنفس السرعة التى يرتفع بها عمود الحفر ، فقد شمخ هذا الاخير عاليا فوق فوهة البئر على ارتفاع حوالى اربعين مترا .. ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ ماذا سيحدث عندما ترتفع انابيب الاسناد اكثر وتحجب عن النظر انابيب الحفر داخلها ؟ هل يقطعانها ؟ ولكن جهاز القطع البلازمى الاتوماتيكى مصمم بحيث يقطع انابيب الحفر التى يبلغ قطرها ٨ بوصات ، ولن يكون فى مقدوره الدوران حول انابيب

الاسناد التي يبلغ قطرها ٢٠ بوصة ، فلم يخطر ببال احد
ان انابيب الاسناد ستصعد من البئر ...

وحك كرافتسوف ذقنه قائلا :

— ترى ماذا كان يفعل على اوفساد لو كان مكاننا ؟

فرد هويل :

— ما سنفعله نحن .

وحدق كل منهما في عيني الآخر . ثم سأله كرافتسوف :

— ننزل في انابيب الحفر قاطعة الانابيب ؟

— لن يسعفنا الوقت ، فسرعة الصعود تتزايد باستمرار ،
ثم اننا لن نقدر على ذلك بمفردنا . سنقطع انابيب الحفر.

مثل هذا القرار لا يتخذ إلا في الحالات القصوى .
ولقد كانا بالفعل في حالة حرجة للغاية . لن يكون في
مقدورهما التصدي للعمودين معا ، فسرعتهما آخذة
في الازدياد . ليس امامهما اذن الا مخرج واحد :
ان يجذبا عمود انابيب الحفر حتى لا تتكسر الانابيب
في مكان ما في الاعماق ، وبعد ذلك يسحبان هذا
الجزء المكسور الى اعلى بأسرع ما يمكن ويقطعانه
قطعا بجهاز القطع الاتوماتيكي . وبعد ذلك يتفرغان
للصراع ضد انابيب الاسناد .

ومرة اخرى وضع هويل اصابعه على مفاتيح لوحة
الادارة ، فعوى المحرك الرئيسي ، ثم ازت تروس محول
السرعة ، وطقطقت اسلاك الرفع وصرّت وهي تكاد
تتمزق تحت ضغط الحمل الرهيب ، وسرى في القلب
احساس بالوحشة من سماع هذا الصرير . وهبت دفعات
من الريح ، واشتبكت بالاسلاك المشدودة الى اقصى
حد ، وصفرّت لحن اغنية من اغاني القراصنة .

وزحف مؤشر ميزان الثقل ، وهو يرتعش ، الى الخط
الاحمر ، بينما اخذ المهندسان يحدقان فيه بصمت ،
ثم سمعا فجأة فرقعة ضعيفة جاءت اليهم من اعماق
البئر خلال عمود الانابيب الطويل . وارتد المؤشر بشدة
الى الجهة اليسرى . والآن بقي عمود انابيب طوله تسعة
آلاف وثلاثمائة متر معلقا بالخطاف .

وهتف كرافتسوف فرحا :

— كسرناه ! ادر جهاز القطع .

واستمر الخطاف يشد الى اعلى عمود انابيب الحفر
المقطوع . ولاءم هويل سرعة جهاز القطع مع سرعة
صعود الانابيب ، فصعد الحامل على العمود الى اعلى
مع الانابيب بوتيرة واحدة ، والتف لهب البلازما الازرق

حولها . وبينما كانت الرافعة الاتوماتيكية العليا تنقل «الشمعة» المقطوعة ، هبط جهاز القطع والتصق بالانبوبة من جديد . وهكذا اخذوا يقطعون شمعة اثر شمعة ، وجهاز القطع يصعد ثم يهبط فى كل مرة .

كان ضوء الفجر قد انتشر منذ مدة طويلة ، وسقط المطر ثم انقطع ، بينما كانت الريح تسوق سربا من سحب العواصف على ارتفاع منخفض فوق المحيط .

ثم برز عمود انابيب الاسناد الى درجة اصبح من الصعب معها قطع انابيب الحفر ، فاضطر المهندسان الى مواجهته . ونزع كرافتسوف جهاز القطع البلازمى من الحامل الاتوماتيكى وامسكه بيديه ، واخذ يقطع به سطح انبوبة الاسناد الخشن الذى تراكمت علية القواقع البحرية ، حتى تمكن اخيرا من قطعه «من جذوره» . وبعدها عاد جهاز القطع الاتوماتيكى يصعد ثم يهبط .

ومر الوقت سريعا حتى حلّ المساء .

واخيرا انهيا هذا العمل الشيطانى : فقد فرغا من جذب العمود المكسور كله ، وتقطيعه ، ورصه فى الشمعدانات .

وجر كرافتسوف قدميه الى المطبخ ليعد القهوة . وعندما خرج من هناك حاملا الصينية رأى هويل يتلوى فى الشيزلونغ ، وقد ضغط على قلبه .

ونادى بصوت مبحوح :

— الى بالنتروجليسرين ... فى دولاب الحائط ... الرف العلوى ... الى اليسار ...

وركض كرافتسوف الى قمرة هويل والتقط انبوبا زجاجيا . ووضع هويل تحت لسانه حبتين بيضاوين . وسأ له كرافتسوف بقلق .

— كيف الحال ؟ احسن ؟

فأومأ هويل برأسه .

وسقاه كرافتسوف قهوة ثم اسرع الى حجرة الارسال ، ولكنه لم يتمكن من الاتصال بالمركز الا فى الساعة الحادية عشرة مساء .

وصرخ فى الميكروفون :

— نعم ، نعم ، فورا ! ليس اقل من فرقتين ! وطبيب ! ماذا ؟ نعم ، طيب ، ماكفرسون اصابته نوبة ...

ولكن هويل شد الميكروفون من يده ، وقال بصوت متزن :

— لاداعى للطبيب ... ارسلوا اربع فرق انقاذ ... طاقم كامل ... بسرعة .

— ٦ —

سح المطر رذاذا واضطرب المحيط .

ولكن كرافتسوف لم يلاحظ شيئا . قضى الليل كله يقص أنابيب الاسناد فلم يشعر بحلول الصباح الرمادى . ولم يسمح لنفسه براحة قصيرة سوى مرتين ، وذلك ليطمئن على هويل . كان الاسكتلندى راقدا فى قمرته يراوده النوم .

وسأل هويل كرافتسوف بصوت لايكاد يسمع :

— كم سرعة الصعود ؟

— اربعة أمتار فى الدقيقة .

ونظر اليه بقلق ثم أضاف :

— وكيف حالك الآن ؟ ألم تتحسن ؟

فهمس هويل :

— جهاز القطع .. هل يعمل ؟

فهز كرافتسوف كتفيه :

— يعمل .. حسنا ، حاول أن تنام يا هويل . انى ذاهب .

كان جهاز القطع الاتوماتيكى يعمل جيدا ، لكن يدى كرافتسوف تعبتا من حمله ، وزادت سرعة صعود الانابيب ، ولكن كرافتسوف كان لايزال قادرا على ربط اجزاء الانابيب المقطوعة فى خطاف الرافعة المساعدة .

ونفد غاز الارجون فاضطر لان يهرع الى المخزن ، ويشحن أنابيب الغاز على عربة . واستغرق ذلك نصف ساعة ، وعندما اقترب بالعربة من البرج وهو يسير بها على الشريط الحديدى كان عمود الاسناد يكاد يصل الى قمة البرج .

وحوّل كرافتسوف التشغيل من لوحة الادارة الرئيسية الى لوحة ادارة المصعد وصعد الى أعلى ، وتمكن بصعوبة من تركيب « السبايدر » عيار ٢٠ بوصة مكان السبايدر السابق عيار ٨ بوصات . وعند تحرك السبايدر الى أسفل ليلتقى بالانبوبة ثم يطبق على حافتها العليا باحكام ، ضبط كرافتسوف سرعة الصعود ثم هبط الى اسفل وأدار جهاز القطع .

وقطع الانبوبة — وكان القطع مائلا — وشد نهايتها

بواسطة المصعد المساعد ، وضبط العربة تحت نهاية الانبوبة المقطوعة . وبعد بضع حركات حذرة تمكن من انزال قطعة الانبوبة التى يبلغ طولها مائة وعشرين مترا على الجسر ، فى الناحية الاخرى من البرج . ولم يعد ظاهرا فوق فوهة البئر سوى طرف الأنابيب الصاعدة .. وكان ارتفاعه ثلاثة امتار ، فبدا مثل جذع شجرة مقطوعة ... والى أن يرتفع هذا الجزء الى قمة البرج فان أمام كرافتسوف فسحة قصيرة من الوقت .

ينبغى أن يقدم الشاى لهويل .

وجر قدميه بمشقة وسار محنىّ القامة نحو قمرة الاسكتلندى . وخلع قفازه ومسح به وجهه المبلل بقطرات العرق والمطر. كان رأسه يدور قليلا من التعب ، وربما لانه فى الواقع لم يذق شيئا من الطعام طوال أربع وعشرين ساعة .

لم يجد هويل فى القمرة .

وشاهد باب المطبخ مفتوحا فأسرع الى هناك . طبعا ، انه هويل ، واقف بجوار الموقد يحرك بالملعقة شيئا فى قدر الطعام .

فصرخ فيه كرافتسوف وقد طار صوابه :

— أى شيطان جاء بك الى هنا ؟ اذهب حالا الى الفراش !

فقال هويل بهدوء :

— عصيدة الحنطة السوداء ... لم اكن أتصور أنها بطيئة النضج الى هذا الحد .

صمت كرافتسوف وهو ينظر الى الدوائر الزرقاء تحت عينى الاسكتلندى . ثم قال :

— اذهب الى الفراش . سأكمل أنا طهيها .

فدمدم هويل :

— كان ينبغى أن تصبح سجّانا لا مهندس حفر .

وخرج الى الشرفة .

وأنزل كرافتسوف غلاية الشاى من على الموقد وصب شايا لهويل ولنفسه . وشرب عدة جرعات ثم وضع الكوب على المائدة .

من الشرفة كان يمكن مشاهدة المدى الذى وصلت اليه أنابيب الاسناد فى صعودها .. كانت سرعتها تزداد بشكل ملحوظ .

واسرع كرافتسوف الى البرج ، ولكنه عندما أشعل جهاز القطع ، وبدلا من اندفاع لهب البلازما الازرق

الرفيع ذى درجة الحرارة العالية ، اشتعل لهب واسع بطئ ذو دخان .

وأطلق كرافتسوف جملة سباب ورجع بجهاز القطع الى الوراء ليفحصه تحت ضوء المصباح الساطع ، ولكنه ما أن تقهقر خمس خطوات حتى عاد الجهاز يقذف لهبه البلازمى الازرق .

ما هذه الالاعيب ؟ ...

وأسرع الى الأنابيب ، وقرّب منها الجهاز ، ولكن البلازما عادت فتحولت الى لهب عادى. فأدار كرافتسوف المحابس بعصبية ، وشدّ الخراطيم ، ولكن دون فائدة .

وتردد صوت خلفه :

— كنت أتوقع ذلك ...

— اسمع يا هويل .. اذا لم تلزم فراشك توا فانى ...

— اطفئ جهاز القطع فلن يعمل .

— لماذا ؟

— ان ارتفاع الانابيب الذاتى يزداد ، ويشتد المجال المغناطيسى للعمود . ولهذا لا يعمل مؤين جهاز القطع بالقرب من البئر .. يحدث تعادل ، أتفهم ؟

— وما العمل ؟

أطفأ كرافتسوف جهاز القطع ، والقى به على سطح الطوف .

— توجد فى المخزن حارقات غازية .

فدمدم كرافتسوف :

— انها عتيقة .

— ليس أمامنا مخرج آخر . لابد من مواصلة القطع .

وركبا العربة قاصدين المخزن. واضطرا الى استخلاص أنابيب الغاز من ركن مهجور فى المخزن غاص بشتى أنواع الادوات . وفجأة أنّ هويل بصوت مخنوق ، وتهالك على أحد الصناديق . فترك كرافتسوف الانبوبة وهرع اليه .

وقال هويل : — لا شيء ... سانهض الآن ...

وأخرج بيد مرتعشة انبوبة زجاجية من جيبه ، ودس تحت لسانه حبتين بيضاوين . واستطرد قايلا :

— لا شيء ... ستمر الازمة ... اذهب أنت .

وأسرع كرافتسوف بالعربة المشحونة الى البئر ، وأخذ يركب الانابيب فى صمامات جهاز القطع ويلف صواميل التوصيل بطريقة محمومة باصابع دامية .

سارت عملية القطع بواسطة الغاز ابطأ بكثير من

عملية القطع بالجهاز البلازمى . وزحف الوقت بلا نهاية، وبلا نهاية أيضا صعدت أمتار وأمتار من الأنابيب .

سبعة أمتار فى الدقيقة !

وأخذ يقطع الانابيب كيفما اتفق ، ولم يعد يسحب الاجزاء المقطوعة ، بل كان يقفز مبتعدا عندما كانت تهوى مدوية فوق الجسر . وظل اللهب الأزرق يئز بلا انقطاع والحارق يرتعش فى يديه ، وأصبحت خطوط القطع مائلة ومنحرفة .

هل مرت ساعة ؟ أم يوم ؟ لقد توقف الزمن ... لا شيء غير اللهب والأزيز ، ودوىّ الأجزاء المقطوعة وهى تهوى . وثمة فكرة واحدة علقت بذهنه المتبلد :

« سأكمل طهيها بنفسى ... بنفسى ... »

ولم ير هويل عندما جاء يجر قدميه ثم وقف يراقب الضغط ، ويغير انابيب الغاز الفارغة بأخرى جديدة .

ولم يسمع هدير محركات الطائرة ، ولم ير كيف هبطت طائرة مائية على سطح المياه المضطرب بجوار الطوف، ولا قوارب المطاط الحمراء وهى تقفز فوق الأمواج متوجهة الى المرساة وعلى ظهرها رجال يرتدون معاطف المطر .

واستقرت على كتفه يد ثقيلة .

فشد كتفه وصرخ بآخر ما بقى لديه من قوة :

— ابتعد !

وتركت اليد كتفه ولكنها لم تختف ، بل التقطت منه الحارق ، ثم امتدت يد أخرى ونحّته برفق .

فرفع كرافتسوف رأسه وحملق ببلادة فى الوجه ذى الملامح القاسية والتجاعيد والشاربين السوداوين فوق الشفة العليا .

ودمدم بلسان لايكاد يتحرك :

— على أوفساد ؟ ...

وانكفأ على وجهه .

— ٧ —

فى تلك الايام ظهرت فى كثير من صحف العالم أخبار قصيرة من المراسلين الخاصين فى مانيلا وجاكرتا وطوكيو ، التقطتها بعد ذلك ونشرتها الصحف المحلية .

« أخبار من المحيط الهادئ » : دبت الحياة فى البئر المحفورة على عمق ١٢٠ ألف قدم والتى كانت قد

هجرت فى ال (س . ج . د) الماضية » (« نيويورك هيرالد تريبيون ») .

« ظاهرة طبيعية غامضة . اعماق المحيط تدفع أنابيب الحفر من البئر الكبيرة العمق » (« تايمز ») .

« بطولة مهندس سوفييتى . يوم من الصراع المرهق على الجزيرة العائمة فى المحيط الهادئ » (« ازفستيا »).

« الاوسطى على اوفساد يهب للنجدة » (« باكينسكى رابوتشى »).

« روسى واسكتلندى يصارعان شيطان البحر » (« ستوكهلم تيدينهن »)

« العقاب الالهى يحل بمن توغلوا فى باطن الارض » (« أوبزرفاتورى رومانو ») .

« نحن قلقون ... هذا يحدث بجوارنا مرة أخرى » (« نيبون تايمز ») .

— ٨ —

نظر كرافتسوف الى المبيّن ، وعقد جبينه ، ثم حكّ رقبته تحت اذنه اليسرى . لقد حلق لحيته صباح اليوم ، ولكنه ظل على عادته القديمة .

عشرة أمتار فى الساعة ... عما قريب سيخرج عمود أنابيب الاسناد كله الى السطح .

كانت أربع فرق تتناوب فيما بينها قطع الانابيب وهى تكاد لا تلاحقها فى صعودها الجنونى . وغص سطح الطوف بالاجزاء المقطوعة . وكانت الرافعة الاتوماتيكية تنقلها بلا انقطاع الى ظهر شاحنات ذاتية التفريغ ، وهذه تنقلها بدورها الى سفينة شحن تقف بجوار المرساة وترفع علما هولنديا .

وأقبل الاوسطى على اوفساد نحو كرافتسوف وهو يخطر فى مشيته، وكان وجهه الذى لفحته الريح والشمس يبدو لامعاً من العرق . وقال :

— خسارة ...

فردد كرافتسوف بشرود :

— نعم .. حرارة .

— اننى اقول خسارة ... خسارة ان تضيع هذه الانبوبة الطيبة ...

ومصمص شفتيه .

ثم صاح فى شاب أشقر طويل الساقين يرتدى سروالا قصيرا من الجلد :

— يا جيم ... تعال هنا .

وقفز جيم باركنسون من على الجسر ، وسار فوق قطع الانابيب يهز ذراعيه الطويلتين . وبالرغم من صغر سنه فقد كان واحدا من أحسن عمال التركيب فى آبار النفط فى تكساس . ووقف فوق أنبوبة محافظا على توازنه ، ونظر الى على أوفساد مبتسما . وكان ظل مقدمة « الكاب » الاخضر الذى يضعه فوق رأسه يسقط على وجهه النحيف بينما يتحرك شدقاه فى ايقاع وبلوكان بينهما قطعة لبان .

وأشار على اوفساد الى خطاف المصعد المساعد وقال له :

ـ علق فيه هزازة ... بليرسين ؟ * وضع رجالك اللحامين فيها ، وارفعها بمحاذاة الانبوبة ، بنفس السرعة التى تصعد بها الانبوبة ، واضح ؟

وشرح على اوفساد بحركات يديه كيف يرتفع عمود الأنابيب وبجواره الهزازة ، ثم اضاف :

ـ « لفت » ! « هو ب » ! « بليرسين » ؟

وأراد كرافتسوف أن يترجم هذا الى اللغة الانجليزية

* مفهوم ؟ (بالاذربيجانية) .

4*

ولكنه رأى ان جيم قد فهم على أوفساد تماما ، وبصق قطعة اللبان مصوبا اياها الى المسافة بين قدميه وقدمى على اوفساد فأصاب الهدف ، ثم قال :

ـ أوكى !

وانحنى فربت على كتف الاوسطى بمودة وقال بلغة روسية ركيكة :

ـ على اوفساد .. كوّيس !

وقهقه ضاحكا . ثم انصرف ليصدر التعليمات الى فتيانه .

وبعد ربع ساعة صعدت الهزازة بجوار عمود الانابيب وقد تدلت فى خطاف المصعد . وصفّر أحد العمال الرومانيين من النوبة العاملة ، وكان فتى أسود الشعر قوى البنية ، وصاح قائلا:

ـ هيا... هيا !

وأطل الشاب التكساسى من الهزازة . وضحك ضحكة استهزاء ورفع ابهامه الى أعلى . ثم سدد الحارق الغازى كالبندقية الى جسم الانبوبة الرمادى وأعمل فيه لسان اللهب .

فى حوالى الساعة السابعة مساء عقد براموليا الممثل الشيلى للجنة الجيولوجية اجتماعا فى صالون الاستراحة .

وأفرغ فى جوفه كوب الليمونادة المثلجة دفعة واحدة ، والقى جسده البدين على ظهر الكرسى المصنوع من جدائل القش ، وقال :

— سنيورى .. ادلوا بآرائكم . هل تريد أن تبدأ أنت يا هويل ؟

كان هويل جالسا بجوار كرافتسوف يقلب أوراق مفكرته ، وقد تحسنت حالته شيئا ما بعد الأزمة القلبية .

ولكنه قال بصوت خفيض :

— فليخبركم زميلى كرافتسوف أولا بنتائج القياسات الأخيرة .

— نعم ، تفضل يا سنيور كرافتسوف .

فقال كرافتسوف :

— سرعة الصعود الذاتى للأنابيب أحد عشر مترا فى الدقيقة . وبموجب حساباتى المبنية على متابعة زيادة سرعة الصعود ، فان أنابيب الاسناد كلها ستكون قد

أزيحت من أرض المحيط بعد أربع ساعات ، وستتدلى حافتها السفلى فوق قاع المحيط ...

ولكن النمسوى شتام — وكان الوحيد الذى يرتدى رباط عنق وسترة وسروالا من بين سكان الطوف — قاطعه :

— لو سمحت لى أيها الشاب . لقد استخدمت كلمة « أزيحت » . فاذا كان الامر كذلك فان حافة الأنابيب لن « تتدلى » أبدا فوق قاع المحيط كما قلت ، بل على الارجح سيظل يدفعها الى أعلى ذلك الشىء الذى أزاحها ، أليس كذلك ؟

وتعجل كرافتسوف قليلا وهو يرد :

— على اغلب تقدير ... اننى فقط لم أوفق فى التعبير ... والآن ماذا عن عمود أنابيب الحفر ؟ انتم تعلمون أننا كسرناه فى الاسفل ، ولكنه بلاشك يواصل الصعود . وحسب احصائياتى فان حافته العليا توجد الآن على عمق حوالى سبعة آلاف متر ، أى أنه يرتفع داخل أنابيب الاسناد وفى جزئها الذى يوجد الآن فى وسط المياه ...

كان كرافتسوف يتحدث الآن ببطء ويختار كلماته بعناية ...

ـ وفى حوالى الساعة السادسة صباحا علينا أن نتوقع ظهور عمود أنابيب الحفر فوق فوهة البئر. ولذلك اقترح...

ولكن صوت شتام المرتعش تردد من جديد :

ـ اسمح لى ... قبل أن ننتقل الى الاقتراحات ينبغى أن نتأكد من بعض الامور . هل تعتقد يا سيد كرافتسوف أنه ـ الى جانب صعود عمود الاسناد ـ تصعد أيضا جدران التقوية الصناعية للبئر ، وبعبارة أخرى تلك الطبقة المنصهرة فى جدران البئر والتى تعتبر امتدادا لعمود الاسناد ؟

وأجاب كرافتسوف بتردد :

ـ لست أدرى .

كان يشعر بقليل من الوجل أمام شتام ، فقد كان فى هذا النمسوى شىء ما يذكره بمدرس الجغرافيا فى سنوات التلمذة .

ـ اننى فى الحقيقة لست جيولوجيا ، بل مجرد حفّار...

فقال شتام مؤكدا :

ـ يعنى أنت لا تعرف . اكمل من فضلك .

وسعل كرافتسوف قليلا وقال :

ـ رجالنا الذين يقومون بالقطع بالغاز ... رجال القطع بالغاز يلاحقون الانابيب بمشقة . فكيف سيكون الحال عندما تصعد الأنابيب أسرع ؟ اننى اقترح ارسال برقية لاسلكية عاجلة الى المركز لكى يبعثوا الينا بسكين « فوتوكوانتم » ، فلدينا فى موسكو جهاز رائع (س . ف . ك ـ ٦ أ) ، وهو عبارة عن سكين تقطع أى مادة مهما كان سمكها وفى سرعة البرق .

فردد براموليا وهو يهز رأسه :

ـ س . ف . ك ـ ٦ أ ... نعم ، ... انها فكرة ـ وصبّ فى حلقه كوبا آخر من الليمونادة ـ لماذا سكتّ ؟

فقال كرافتسوف :

ـ هذا كل ما لدى .

ـ ياسنيور ماكفرسون !

فرد هو يل :

ـ نعم . رأيى كالتالى : لقد مرت البئر عبر شق فى الستار الارضى . وهناك مادة ما حوّلها الضغط الهائل الى الحالة للدنة . وقد وجدت لها مخرجا ولذلك تدفع العمود الى أعلى ...

وتدخل شتام :

— اسمحوا لى . أيها السادة ، ينبغى أن نتبع أسلوبا منطقيا . اننى أعود الى موضوع جدران التقوية الصناعية . هل تعتقد أن ...

فرد هويل بتحفظ :

— لا اعتقد يا مستر شتام أن جدران البئر يمكن أن تكون على مثل هذه الدرجة من الانهيار .

فقال النمسوى ملخصا :

— أنت لا تعتقد، أما أنا فأعتقد أنه ينبغى فورا انزال كاميرا تليفزيونية لنعرف ماذا يحدث للتربة . توجد هنا كاميرا تليفزيونية ، أليس كذلك ؟ وعندما ننزلها يكون عمود الاسناد قد خرج من التربة ، وسنرى عندئذ ماذا يحدث لجدران التقوية الصناعية . اننى مندهش ياسيد ماكفرسون من أنك لم تقم بانزال الكاميرا منذ بداية الظاهرة . تفضل اكمل كلامك .

فقال هويل :

— نعم ، بخصوص الكاميرا اتفق معك .. كان اهمالا منى . ان المادة التى تدفع الانابيب لها خصائص مغناطيسية. فقد قمت بتسجيل القياسات منذ بداية النوبة ، وتأكدت أن الأنابيب تتمغنط . انتظر لحظة — وفع صوته قليلا

وقد رأى النمسوى يفتح فمه — اننى أعرف مقدما سؤالك . نعم ، الانابيب مصنوعة من سبيكة لا تتمغنط ، ومع ذلك فما أقوله حقيقة : الأنابيب تتمغنط . ومجالها المغناطيسى يتعادل مع مؤين جهاز القطع . تفضلوا بالاطلاع على الرسم البيانى لقياساتى .

وأسرع شتام يضع نظارته على عينيه وانحنى فوق الرسم البيانى . أما براموليا فنظر من فوق كتفه وهو يلهث ويمط شفتيه . وكان على أوفساد قد قرب أذنه المليئة بالشعر من فم كرافتسوف ، وأخذ هذا يترجم له ما قاله هويل بصوت خفيض . وبعد أن سمع على اوفساد تقرير هويل شرد بذهنه وهو يعبث باصبعه فى اذنه . هذا الرجل المجرب العجوز ، الذى حفر اثناء حياته الكثير من الآبار ، وجد نفسه هذه المرة أمام معضلة .

وسأل براموليا :

— هل تريد أن تقول شيئا ياسنيور على أوفساد ؟

وترجم له كرافتسوف السؤال .

فقال على أوفساد بعبارات منغمة :

— ماذا أقول .. طبعا أنا أفهم قليلا فى موضوع الحفر ما الحفر .. ولكنى لم أقابل فى حياتى مثل هذه

التربة ، اقسم لكم بشرفى . دعونا ننتظر ، وعندما تخرج هذه المادة الى السطح سنعرف .

ورفع شتام رأسه عن الرسم البيانى وقال :

ــ لا يمكن بأى حال من الأحوال أن ننتظر . فنحن لا نعرف ماذا حدث فى باطن الارض ، وانهيار جوران التقوية قد يتسبب فى هزات أرضية قوية . أيها السادة ، اننى اقترح بعد انزال الكاميرا اجلاء الجميع عن الطوف ونقلهم الى السفينة الهولندية .

فصرخ كرافتسوف :

ــ لا ، لا يمكن ! عفوا يا مستر شتام ، ولكنى أويد ما قاله على اوفساد . ينبغى أن ننتظر لنرى ماذا يحدث بعد قذف الأنابيب . لابد من الحصول على معلومات !

وأومأ هويل :

ــ اننى موافق . فالاجهزة هنا على الطوف ، ولا ينبغى الرحيل .

ونظر الجميع الآن الى براموليا ، فقد كانت له الكلمة الاخيرة . وأخذ الشيلى السمين يفكر وهو يمسح على صلعته .

ثم قال أخيرا :

ــ يا سنيورى ... القضية على حد فهمى مطروحة هكذا : هل هناك خطر مباشر علينا أم لا ؟ والاجابة على هذا السؤال صعبة يا سنيورى ، لأننا أمام ظاهرة طبيعية غير مفهومة . ولكنى تعودت أن أعالج مثل هذا الأمور كرجل زلازل . ويخيل الى أيها الزميل شتام أنه من وجهة نظر علم الزلازل فانه ليس هناك خطر مباشر ...

وصرخ فجأة : « كاراميا » ! بعد أن نظر الى النافذة : ما هذا ؟

كان عمود الاسناد الرمادى يصعد من البئر ، وقد احتضنه ولف عليه يديه وساقيه شخص يرتدى « بيريه » أزرق وبدلة عمال زرقاء . وأخذ عمال التركيب الواقفون فى الأسفل يصفرون ويصرخون فى اثره. وتدلى من الهزازة الصاعدة بجوار العمود شخص من القاطعين بالغاز وأخذ يصرخ هو الآخر وكان يبدو فى قمة الاعجاب.

وسأل براموليا بقلق :

ــ هل هو من فتياتك يا جيم ؟

فهز باركنسون الذى كان يمضغ لبانته ببرود اعصاب رأسه بالنفى .

وقال على اوفساد :
— انه حفارى تشولكوف — مولكوف يعبث قليلا.
وخرج من الصالون وسار يخطر فى مشيته فوق قطع الانابيب متجها نحو البرج . وتبعه الجميع .
وتساءل براموليا :
— تشولكوف — مولكوف ؟
فرد كرافتسوف ضاحكا :
— كلا ... تشولكوف فقط .
وصاح على اوفساد بشىء ما رافعا رأسه الى أعلى . فانصاع الرجل الذى يركب الهزازة لامر الاوسطى وقطع العمود على مسافة مترين أسفل تشولكوف المحلق ، وهبطت قطعة الأنبوبة بتشولكوف ببطء متدلية على الخطاف .
وصرخ على اوفساد :
— اقفز !
وتخلص تشولكوف من الانبوبة دفعة واحدة ، وسقط على يديه ورجليه ، ثم استوى قائما على الفور ، وأخذ يفرك ركبتيه . كان وجهه المستدير كوجه غلام شاحبا وقد حدقت عيناه الزرقاوان بفزع .

وقال على اوفساد مهددا :
— لماذا تتشيطن ؟
فدمدم تشولكوف وهو يتطلع حواليه باحثا عن البيريه ، الذى سقط من على رأس عندما قفز :
— كنت قد تراهنت مع الفتيان .
وبرز من حشد الحفارين أمريكى ربعة يعصب رأسه بمنديل فاقع اللون . ومد يده الى تشولكوف بولاعة ذات نقش غريب وربت على ظهره وهو يبتسم .
وألقى براموليا فى الحفارين كلمة قصيرة ، وعاد افراد الفرق الى عملهم وهم يتضاحكون . وانتهت المسألة عند هذا الحد .
ولكن كرافتسوف كان وحده الذى لاحظ أن يدى تشولكوف كانتا ترتعشان عندما أخذ من الامريكى الولاعة التى كسبها فى الرهان .
فسأله بصوت خفيض :
— ماذا حدث ليديك ؟
فأجاب تشولكوف :
— لا شىء .

وفجأة رفع رأسه الى المهندس ونظر بعينين زائغتين ،
وقال :
ـ الأنبوبة ذات قوة جذب مغنطيسي .
ـ كيف ؟
فردد تشولكوف :
ـ تجذب نحوها .. صحيح أنها لا تجذب بشدة ..
كما لو كانت مغناطيسا وكنت أنا قطعة حديد ...
وأسرع كرافتسوف الى صالون الاستراحة حيث كان
براموليا ينهي الاجتماع ، قائلا :
ـ لن نقوم باخلاء الطوف الآن .
وضحك الشيلي وأضاف :
ـ بمثل هؤلاء الفتيان الشجعان لن نخشى شيئا .
وسوى شتام شعره الكتاني بفرشاة صلبة ، واتجه نحو
الكاميرا وهو يدمدم بشيء ما عن الاستهتار الروسي
والشيلي .
وانتحى كرافتسوف بهويل جانبا تحت المظلة وأخبره ،
بما سمعه من تشولكوف ، فقال هويل :
ـ هكذا اذن ؟

ـ ١٠ ـ

مرت أربع ساعات على بدء عملية انزال الكاميرا
التليفزيونية ، وكان سلك الكابل ينسحب من بكرة ضخمة
فى رافعة الاعماق البعيدة ، ويمر فوق مجمع البكرات
فى نهاية المؤشر الشبكي ليغوص فى المياه القاتمة .
وكان أحد عمال التركيب من فرقة على أوفساد يقف على
السطح نصف عار ، يدخن سيجارة وينظر من حين
الى آخر الى مؤشر عمق الانزال .
واقترب منه على اوفساد ، وقال بحزم :
ـ السيجارة يدخنونها عندما يذهبون فى نزهة . ضع
يدك على الفرامل .
وقال العامل بمودة وهو يقذف السيجارة الى البحر :
ـ لا تخش شيئا يا أوسطى .. كل الاجهزة حولنا
أتوماتيكية .
ـ الاتوماتيك فى حاله ، وانت فى حالك .
وتفقد الاوسطى العجوز الرافعة من باب التمسك
بالنظام ، وتحسس بيده كراسى التحميل ليتأكد من
أنها لم تسخن .
وسأل :

— ترى كم الساعة الآن فى باكو ؟

ودون أن ينتظر اجابة توجه الى قمرة جهاز الاستقبال التليفزيونى .

كان شتام وبراموليا وكرافتسوف جالسين هناك أمام الشاشة التى كانت تومض .

وسأل كرافتسوف وهو يتطلع الى الشخص الداخل بعينين ناعستين :

— كيف الحال ؟

فأجاب على أوفساد بأسى :

— بحر عميق جدا . لابد من الانتظار نصف ساعة آخر .

ثم أضاف بعد تفكير :

— وربما ساعة .

وأطل من الباب رأس عامل اللاسلكى المناوب .

— هل كرافتسوف هنا ؟ موسكو تناديك . اسرع !

وخرج كرافتسوف مهرولا الى الشرفة .

كان الطوف مضاء بالكشافات القوية ، والأنابيب تقرقع عند الرافعة الاتوماتيكية ، وترددت كلمات بلغات مختلفة . واسرع كرافتسوف الى كابينة اللاسلكى .

— آلو !

وسمع خلال الخشخشة والضوضاء الصوت الحبيب البعيد يأتيه مضطربا :

— مرحبا يا ساشا* ! هل تسمعنى يا ساشا ؟

— مارينا؟ مرحبا! نعم ، نعم ، اسمعك .. كيف استطعت الا تعد ...

— ساشا ، ماذا حدث عندكم ؟ يكتبون عنك فى الصحف ... انى قلقة للغاية ...

— كل شىء عندنا على مايرام ، اطمئنى يا حبيبتى !... ياللشيطان ، ما هذه الموسيقى المزعجة ... مارينا ، كيف حالك ، كيف فوفكا** ، كيف ماما ؟ مارينا أتسمعيننى ؟

— نعم ، نعم ، الموسيقى مزعجة ... كل أحوالنا بخير ! ساشا ، هل أنت بصحة طيبة ؟ قل الحقيقة ...

— فى كامل الصحة ! كيف فوفكا ؟

— فوفكا بدأ يمشى ، بل ويركض ، أوه ، لو تعرف كم يشبهك !

* ساشا — هو اسم التدليل لألكسندر بالروسية .
** فوفكا — اسم التدليل لفلاديمير .

— هل يركض ؟ — وضحك كرافتسوف من الفرحة — برافو يا فوفكا ! قبلّيه نيابة عنى ، حسنا ؟
— حسنا . لقد استلمت مجلاتك بلغة الاسبرانتو ، هل أرسلها لك ؟
— لا داعى الآن . لدينا عمل كثير جدا ... لا ترسليها الآن !
— ولكن ماذا حدث ياساشا ؟ لماذا تصعد الأنابيب ؟
— الشيطان وحده يعلم !
— من ؟ من يعلم ؟
— لا أحد حتى الآن يعلم . كيف حالك فى المدرسة ؟
— أوه ، تلاميذ الصف العاشر متعبون جدا . وعموما فالحال طيب ... ساشا انهم يستعجلوننى هنا لكى أنهى ...
وتردد صوت رتيب باللغة الانجليزية :
— طوف ا س . ج . د ! طوف ا س . ج . د ! لندن تناديك .
وصاح كرافتسوف :
— مارينا ! مارينا ! مارينا !

وهزّه عامل اللاسلكى من كتفه برفق فوضع كرافتسوف الميكروفون على الطاولة وخرج .
طالعه ضوء الكشافات الأبيض ولهب الحارقات الطنّان المتناثر الشرر ، والسطح الغاص بقطع الأنابيب. ثم فجأة محيط أسود من الماء والسماء .. وليلة خانقة رطبة .
وسار كرافتسوف الى البرج وهو يقفز من انبوبة الى أخرى . كانت فرقة جيم باركنسون تعمل هناك .
— كيف الحال يا جيم ؟
— ليس على مايرام .
وقفز جيم جانبا وسقطت الأنبوبة المقطوعة على السطح محدثة دويا فدفعها ونظر الى كرافتسوف ، وقال :
— أخشى أن ينهار البرج . اصغ يا سيدى .
وكان كرافتسوف قد سمع بالفعل أزّيزا غامضا ، وشعر بالسطح يهتز تحت قدميه .
وأضاف جيم :
— لقد ارتفعت درجة حرارة المياه . فقد نزل الفتيان ليستحموا ولكنهم خرجوا بسرعة . الحرارة على سطح الماء لا تقل عن أربعين درجة .

كان صوت مارينا العالى لا يزال يتردد فى أذنى كرافتسوف « يكتبون عنك فى الصحف » ... ياترى ماذا يكتبون ؟ « اننى قلقة للغاية ... » أنا نفسى قلق ... فثمة شىء ما غامض وخطير يقترب ...

كان الضوء مشتعلا فى قمرة هويل ، فدق كرافتسوف الباب المواورب وسمع الصوت المتذمر :

— ادخل .

كان هويل جالسا الى الطاولة فى قميص ابيض مفتوح الأزرار وسروال قصير ، منكبا على رسومه البيانية . واشار الى المقعد وقدّم لكرافتسوف علبة السجائر . وسأله :

— كيف حال الكاميرا التليفزيونية ؟

— قريبا ... هويل ، لقد تحدثت مع موسكو .

— مع زوجتك ؟

— نعم . انهم يكتبون عنا فى الصحف .

فضحك هويل بازدراء .

— هل لديك عائلة يا هويل ؟ انك لم تتحدث عن ذلك ابدا .

فأجاب هويل بعد فترة صمت طويلة :

— لدىّ ابن .

وتناول كرافتسوف من على الطاولة شكلا من الصلصال الأخضر لغزال بقرون كبيرة متفرعة .

وقال وهو يقلب الغزال فى يديه :

— لقد تصرفت معك بشىء من الفظاظة . اتذكر ، لقد صرخت فيك ...

ولكن هويل أشار بيده اشارة مقتضبة . ثم أدار نحو كرافتسوف وجها متعبا ، ومر بيده على شعره القصير المائل الى الشيب ، وقال :

— أتريد أن احكى لك . يوجد فى اسكتلنده كهف فى الجبال يسمى « بادى بلاك » ، وفى هذا الكهف أحسن صدى مهذب فى العالم . فاذا صحت هناك : « كيف حالك يا بادى بلاك ؟ » يرد عليك الصدى فورا «على خير مايرام ، أشكرك يا سيدى » .

— ماذا تريد بذلك ؟

— لا شىء ... مجرد قصة تذكرتها .

وأدار رأسه الى الباب المفتوح وسأل :

— ماذا حدث ؟ لماذا سكت كل شىء عند البرج ؟

كانت فرقة باركنسون تتزاحم لدى حافة البئر .

وسألهم هويل :

— لماذا لا تقطعون الأنابيب ؟

— انظر بنفسك .

كان عمود الاسناد ثابتا لايصعد .

ودهش كرافتسوف :

— ياله من أمر غريب ! أيعقل ان الصعود الذاتى قد انتهى ؟

وعندها اهتزت الانبوبة وقفزت فجأة الى أعلى ثم هبطت على الفور الى وضعها السابق ، بل أسفل قليلا . واهتز الطوف بشدة ، اذ لم يستطع التشغيل الاتوماتيكى لمراوح الدفع أن يصدر رد الفعل فى الوقت المناسب .

ثم اهتزت الانبوبة من جديد وتحركت الى أعلى والى اسفل ، ثم دفعة أخرى ، وأخرى دون انتظام . وماد سطح الطوف تحت الأقدام ، وتدحرجت فوقه قطع الأنابيب فى جلبة .

وصرخ كرافتسوف :

— انتبهو لا قدامكم ! ثبتوا كل ما يمكن تثبيته .

وجرى عمال التركيب الذين كانوا يستريحون من مساكنهم مهرولين . وهرع هويل وكرافتسوف الى قمرة جهاز الاستقبال التلفيزيونى . كان براموليا جالسا

هناك يكاد أنفه يلتصق بالشاشة ، وبجواره كان يقف شتام وعلى أوفساد .

وقال كرافتسوف باندفاع وهو يلتقط أنفاسه :

— عمود الاسناد يقفز !

فرد شتام :

— لقد حذرتكم . انظروا ماذا يحدث للتربة .

كان هناك شىء ما رمادى على شاشة جهاز الاستقبال يتحرك ويتفتت وينهار . وكانت الصورة تتلاشى أحيانا ، ثم تعود تظهر صورة كئيبة لقاع المحيط القفر المتعرج . ثم يتحرك كل شىء من جديد على الشاشة . يبدو أن الكاميرا كانت تدور حول نفسها ببطء هناك فى القاع .

وميز كرافتسوف الصورة الآن ، ففوق قاع المحيط ارتفع جبل من الكتل المتراكمة ، كان ينمو ويتحرك ويتساقط ، وعلى جوانب هذا الجبل تساقطت الاحجار لا باندفاع كما يحدث فوق سطح الأرض ، بل برفق ، كأنها لا تريد السقوط .

حرك شتام المفتاح قليلا فأظلمت الشاشة ، ثم فجأة ظهرت الأنبوبة فى زاويتها العليا الى اليسار ...

وهتف براموليا :

° Tubo de entubacion —

كانت الانبوبة تبدو على الشاشة كقشة . واهتزت ، فقد تراكمت تحتها كومة من كتل الحطام ، وتشوشت الصورة من جديد ، وهنا اهتز الطوف بشدة لدرجة أن براموليا سقط من كرسيه .

وساعده كرافتسوف على النهوض . فصاح الشيلي وهو يزفر :

— أوه ... يا مادونا ... سانت — ياجو ...

ودوى صوت شتام :

— لقد حذرتكم ... ان جدران التقوية الصناعية تندفع من البئر مع التربة . والحافة السفلى لعمود الاسناد تتراقص فوق جبل من الحطام . لا أحد يعرف ماذا سيحدث بعد ذلك . ينبغي اخلاء الطوف فورا .

فقال هويل :

— كلا ... ينبغي رفع عمود الاسناد بواسطة الخطاف ، وبأسرع ما يمكن .

وأيده كرافتسوف :

— مضبوط ... عندئذ سيكف عن التراقص .

°انبوبة الاسناد (بالاسبانية) .

واحتج شتام :

— هذا خطر ... اننى لا أوافق ...

فقال على أوفساد :

— خطر عندما لا يكون الانسان حذرا . سأراقب الأمر بنفسي .

فقال الشيلي :

— ارفعوا العمود . ارفعوه وقطعوه ... فقط بسرعة ... بحق جميع القديسين ...

وأخذ الطوف يهتز كأنما أصابته حمى ...

ووقف على اوفساد أمام لوحة ادارة المحرك الرئيسى وأدارها فصعد الخطاف الى أعلى جاذبا عمود أنابيب الاسناد ، وصرّت الأسلاك ، وأزّ اللهب الأزرق .

وصاح على اوفساد وهو يتابع عملية الصعود بعين يقظة :

— هيا ، هيا ... لم يبق الا القليل ...

كانت اجزاء الأنابيب المقطوعة تتساقط على السطح . وبعد أن رفع عمود الأنابيب عاليا عن التربة توقف الطوف عن الاهتزاز على الفور .

كان الصباح الأزرق الساطع يلف المحيط عندما برزت أنابيب الحفر من البئر بفعل قوة دافعة غامضة .

وكان الجهاز البلازمى لا يعمل كسابق عهده ، وجهاز القطع الغازى يعمل ببطء . ولكن أصبح من الممكن الآن تثبيته على الجهاز الأتوماتيكى للقطع الدائرى فكان هذا الجهاز يصعد الى جانب الانبوبة وبنفس سرعتها ، ويدور رأسه القاطع حولها . وبعد أن ينتهى من قطعها يهبط الى أسفل ، ثم يزحف صاعدا بجوار الأنبوبة .

ولكن سرعة الصعود الذاتى للانابيب أخذت تزداد وتزداد حتى لم يعد القاطع الاتوماتيكى قادرا على ملاحقتها . فأخذت خطوط القطع تنحرف وتتخذ شكلا حلزونيا حول الأنبوبة . واضطروا الى إيقافه والانتقال الى القطع اليدوى وبالجلوس فوق الهزازة المعلقة فى خطاف المصعد المساعد ، والصاعدة بجوار الأنابيب .

كان قاطعو الأنابيب يتبدلون بسرعة ، فان وتيرة العمل الجنونية كانت ترهقهم جدا ، زد على ذلك هذا الطقس الحار . واقلعت سفينة الشحن بعد أن حملت بالأنابيب المقطوعة الى أقصى طاقتها ، ولكن سطح الطوف حول البئر كان لايزال غاصا بأجزاء الانابيب .

وأنطبعت فى أذهان العاملين الى الأبد هذه الايام

المشحونة بالشمس المحرقة والعمل الجنونى وأبخرة المحيط الرطبة ، وهذه الليالى المضاءة بالكشافات ولهيب الغاز الأزرق .

انطبع فى ذهنهم الى الابد صوت على أوفساد المبحوح ونداؤه الكفاحى :

— هيا ، هيا ، لم يبق الا القليل .

— ١١ —

وصلت الطائرة المائية فى الفجر . وبعد جهد كبير تم نقل صناديق السكين الفوتوكوانتم (س . ف . ك — ٦ أ) الى الطوف .

وتصفح كرافتسوف كتيب التعليمات ... نعم ، انه يعرف هذا الجهاز ... وهو جهاز سهل الاستخدام ، ولكن يبدو أنه جاء متأخرا .

لم يبق فى البئر سوى مائتى متر من أنابيب الحفر .. مائة وخمسون ...

وأمر على أوفساد بانزال الهزازة ، فمن الخطورة أن يوجد أحد ما فى الأعلى عندما تخرج الامتار الاخيرة من الانابيب .

مائة وعشرون ... ثمانون ...

كان ضوء الصباح الاحمر يتأجج فى الشرق ، لكن أحدا لم يلاحظ ذلك وظل ضوء الكشافات القوى يغمر سطح الطوف . وأخذ عمال الفرق الاربع يزحزحون الأنابيب من الممر ، فقد أمر براموليا بأن تقف سيارة « جيب » بجوار البئر حتى يستطيع العمال القائمون بالقطع أن يستقلوها لحظة الخطر ويبتعدوا بسرعة عن البئر الى حافة الطوف .

ولم يعد بجوار البئر سوى أربعة : عاملان من عمال القطع ، وكرافتسوف وعلى أوفساد .

ستون مترا ...

وانتفض الطوف كأن أحدا دفعه بكتفه من أسفل .

وصاح كرافتسوف .

ــ اطفئوا الحارقات ! الى السيارة !

وقاد السيارة فى الممر متجها نحو حافة الطوف ثم اوقفها بجوار المظلة ، وهنا اهتز الطوف بشدة من جديد .

وقفز كرافتسوف ورفاقه من السيارة ، وكانت وجوههم جميعا مربدة . وطقطق شيء ما فى وسط الطوف ، وتردد منه صرير . لقد ارتفعت الاجزاء الأخيرة من

الأنابيب حتى قمة البرج تقريبا ثم انهارت ، وبدا خلال الضوضاء العامة أنها تسقط دون ضجيج .

وصاح براموليا بشيء ما وقبض على ذراع هويل ، أما شتام فكان يقف بالقرب منهما مرتديا سترته ، دون حراك كأنه تمثال .

خفت الضجة قليلا ... ومرت لحظات من الانتظار المتوتر ، ثم شاهد الجميع كيف صعد العضو الدوّار وقد انتزع من اطار القاعدة ثم مال الى جانبه . ودوت فرقعة ! وانكسر الاطار السميك المصنوع من الصلب ، وانثنت اطراف الدعامات الممزقة الى أعلى ، وتكور السطح تحت البرج . ثم تصاعد بخار ، وانتشرت حرارة .

وظهر فى فوهة البئر الممزقة شيء ما أسود مستدير ، يشبه القبة ، وأخذ يكبر ويكبر ويمزق أرضية الطوف ، وارتفع حتى أصبح على شكل نصف كرة ... ومرت بضع دقائق .. ثم اصبح واضحا أن عمودا اسطوانيا سميكا يصعد فى قلب البرج .

وتطلع اليه كرافتسوف ولم يحول عنه بصره . ومر الوقت دون ان يلاحظ أحد ذلك . ثم اصطدمت نهاية

العمود الاسود بقمة البرج فتكسرت قوائمة الطويلة عند القاعدة بدوى هائل .

وفجأة تحرك على اوفساد متجها نحو البرج ، فجرى كرافتسوف خلفه وأمسكه من كتفيه وجذبه الى الخلف . لكن على أوفساد صرخ :

— لقد تحطم البرج !

وأدرك فجأة عبث محاولته ، فأشاح بيده فى مرارة .

وظل العمود الاسود يصعد ويصعد حاملا معه البرج الذى يبلغ طوله مائة وخمسين مترا .

— ١٢ —

أصبح الطوف الآن مثقوبا فى وسطه بعمود جبار . وقد أزاح هذا العمود الأنابيب التى كانت فى البئر ، وصعد نحو السماء كشمعة سوداء ، وواصل ارتفاعه باندفاع لا رادّ له .

وعاد العاملون على الطوف الى صوابهم بعد هول الصدمة ، وأسرع براموليا السمين نحو كابينة اللاسلكى ، واقترب كرافتسوف من هويل وسأله بأنفاس لاهثة :

— هل سنحاول قطعه ؟

كان هويل مرتكزا على حاجز الطوف ينظر الى العمود بالمنظار المكبر ، فقال :

— فلتصبنى اللعنة اذا كان من الممكن قطعه. وناول المنظار لكرافتسوف .

كان قطر العمود حوالى خمسة عشر مترا ، ولمع سطحه الاسود ببريق خاب على ضوء الكشافات . ترى من أية أعماق انتفض هذا العمود المغطى بقشرة زجاجية من المعادن المنصهرة ؟ ومن أية مادة يتركب ؟...

وقال كرافتسوف :

— ينبغى عمل شىء .. اذا استمر على الارتفاع بهذه السرعة فسيترنح تحت وطأة ثقله وينكسر ، وساعتها فان طوفنا ...

فقال هويل متذمرا :

— تقول طوفنا ! لا تدّع الغباء يا فتى . لقد اتصل براموليا برئاسة ا س . ج . د ، ومديرو الحسابات العالمية يقومون الآن بتسجيله فى دفاتر المواد التالفة ... الى الشيطان !

وغضب كرافتسوف وقال :

— ولماذا أدعى الغباء ؟

— لا اعرف لماذا .. ماذا جرى لك ... الاتفهم ؟ الطوف هراء ... انما الخطر اكبر من ذلك ...

— ماذا تعنى ؟

لم يرد هويل واستدار متجها نحو كابينة اللاسلكى . فصاح كرافتسوف فى اثره وقد تملكه الحنق :

— بوسعى ألا أتحدث معك على الاطلاق !

وهبت لفحة حارة ففك كرافتسوف أزرار قميصه المبلل ، ونظر باندهاش الى العمود الاسود الخابى المندفع الى أعلى وقال فى نفسه : « حسنا ، ليفعلوا ما بدالهم ... ليس هذا من شأنى فى نهاية الامر . ان اختصاصى هو حفر الآبار . ياللشيطان ، انه يكاد يلامس السماء ، لن يتحمل ثقله وسينهار ... فليكن ... ما دخلى أنا بذلك .. لست عالما بل مهندس ، وعملى هو الحفر ، لا ال ... »

وأخذ على اوفساد الواقف بجواره المنظار من يده ونظر الى العمود ، ثم قال :

— يبدو أنه من الحديد . يجب قطعه ، انه صلب

طيب ، فلماذا نتركه يضيع هدرا . يجب قطعه . اذهب واسأل الأرمنى .

— أى أرمنى ؟

— الرئيس .. براموليان .

خرج من كابينة اللاسلكى شتام وبراموليا . كان الجيولوجى النمسوى يمسح وجهه ورقبته بمنديل ، وسمح لنفسه بفك زرار واحد فى السترة . وكان هويل يقول له شيئا ما ، ولكن النمسوى كان يهز رأسه بعناد مبديا عدم موافقته .

واقترب كرافتسوف منهما وقطع حديثهما قائلا بلهجة حاول بكل ما يستطيع أن يجعلها رسمية :

— اننى اعتقد يا سيد براموليا أنه من الضرورى البدء فورا بقطع العمود .

وحوّل الشيلى وجهه السمين المبلل بالعرق نحوه ، وكانت عيناه تشبهان ثمرتى برقوق سوداوين . وصاح :

— بماذا ؟ اننى اسألك بماذا تقطعه ؟ اذا كان القاطع البلازمى لا يستطيع حتى قطع الأنابيب ...

فرد كرافتسوف :

— جهاز س . ف . ك سيقطعه بسهولة . اننى مستعد للبدء فورا فى ...

— انه مستعد للبدء ! هل تسمع يا شتام ؟ انه مستعد لالقاء نفسه فى هذا الجحيم الشيطانى ! اننى امنعك من الاقتراب من العمود !

وقال شتام بصوت منتظم :

— يا سيد كرافتسوف ، مالم نتوصل الى معرفة طبيعة هذه الظاهرة فاننا لانملك الحق بالمجازفة ...

— ولكن لمعرفة طبيعة هذه الظاهرة ينبغى على الاقل الحصول على عيّنة من هذه المادة ، أليس كذلك ؟

أصبح الحر لايطاق ، وكان الطوف يهتز تحت الأقدام ، واهتز لغد براموليا المترهل ، والتصق عمال الفرق الاربع بحاجز الطوف ، ولم تعد تسمع نكاتهم وضحكهم المألوف ، وكان الكثيرون منهم يصغون الى حديث الجيولوجيين والمهندسين .

وكان براموليا يتحدث دون انقطاع ، فقد وجد فى ذلك متنفسا ما :

— رأسى يكاد ينفجر ! لا أستطيع أن ابقى الرجال على الطوف ! لا أدرى ما الذى سيحدث ! ايتها العذراء ... اين « فوكوكا — مارو » ؟ لماذا يتأخر هؤلاء

اليابانيون دائما ؟ لماذا كان ينبغى أن ينهار كل شىء على رأس ميشيل براموليا ؟

وقال كرافتسوف بحدة .

— انه سينهار ، سينهار حتما فوق رأسك يا سنيور براموليا ، اذا ظللت تشكى وتلعن بدلا من أن تتحرك .

فصرخ براموليا :

— ماذا تريد منى ؟

— لدينا البزات المقاومة للحرارة ، فلتسمح لى ...

— لا أسمح !

وظلا يحدقان فى عينى بعضهما البعض عدة ثوان فى صمت .

وفى هذه اللحظة اقترب منهما جيم باركنسون الطويل وهو عار الى وسطه ، ورفع يده الى رأسه بالتحية ، وقال لكرافتسوف :

— يا سيدى ... اريدك أن تعلم .. انا تحت أمرك .

وبرز الرومانى الطويل من خلف كتف جيم وسعل بشدة وقال بلغة روسية ركيكة أنه هو الآخر مستعد مع فتيانه .

فصرخ براموليا :

— لقد جئنا جميعا ، ماذا تقول لهم يا شتام ؟

— أقول لهم ان ابسط مبادئ الأمن تتطلب منا التمسك بالحذر الشديد — وفك زرارا آخر .

— ومارأيك يا ماكفرسون؟ بحق جميع القديسين لماذا تصمت ؟

فقال هويل وهو ينظر جانبا :

— بوسعنا ان نحاول . ربما استطعنا أخذ قطعة لتحليلها .

— ومن يتحمل المسؤولية اذا ...

— على حد علمي أنت لم ترسل أحدا يابراموليا . هم الذين تطوعوا من تلقاء أنفسهم .

واستسلم براموليا . وقال وهو يقطب حاجبيه بمعاناة :

— حاول يا سنيور كرافتسوف ... حاول ... لكن ، أتوسل اليك ، كن حذرا .

— سأكون في منتهى الحذر .

وانتعش كرافتسوف فخطا نحو المخزن .

وتبعه على أوفساد :

— الى أين تذهب يا بني ؟

— سأقطع العمود .

— وأنا معك .

ونظر الاوسطى الى كرافتسوف وهو يبعثر البدل الخاصة والادوات على أرض المخزن فقال بصوت منغم :

— لا تزال فتيا يا بني .. ماما وبابا ليسا هنا بجوارك ، ولا اللجنة النقابية هنا بجوارك .. وليس هنا من يرعاك غير على أوفساد ...

— ١٣ —

سار خمسة رجال نحو وسط الطوف وهم يرتدون البزات المقاومة للحرارة ، التي أخذ نسيجها المصنوع من ألياف زجاجية خشنة يقرقع ويتلوى كالصفيح . كانوا يسيرون ويدفعون أمامهم عربة تحمل جهاز السكين الفوتوكوانتم . وسارت العربة منزلقة فوق القضيبان بأمان . وأخذ كرافتسوف ينظر من خلال زجاج خوذة الرأس المحكمة الاغلاق الى العمود الآخذ في الاقتراب .

وقال في نفسه : « فلتكن درجة حرارته ثلاثمائة ، لتكن حتى خمسمائة .. لا أظن أنها اكثر من ذلك ، فكتلة الماء الهائلة تبرده جيدا اثناء صعوده وسطها ...

طبعا ، لابد وأن تقطعه السكين الفوتوكوانتم .. ستقطعه حتما .. آه لو كان من الممكن قطعه تماما ! .. ولكن لا .. لا يجب .. فليس معروفا كيف سيسقط .. لكننا سنأخذ منه قطعة » .

بالقرب من العمود كانت الواح الصلب الممزقة التى تغطى السطح تتلوى وتميد تحت الأقدام .

وأمر كرافتسوف رجاله باشارة من يده أن يتوقفوا . فوقفوا وهم يحملقون مأخوذين فى سطح العمود الأسود الخابى المنطلق الى اعلى بسرعة . كان العمود يضيق تارة ، وعندئذ يترك حوله فراغا يكفى لابتلاع رجل اذا سقط فيه ، وتارة أخرى ينتفخ فجأة فيدفع أطراف أرضية الطوف ويثنيها الى أعلى وهى تصر .

وقال كرافتسوف :

— ركبوا الجهاز .

وحمل الميكرفون المثبت داخل الخوذة أمره هذا الى الميكروفونات المثبتة داخل خوذات زملائه .

وتقدم تشولكوف وجيم باركنسون والعامل الرومانى الطويل الذى يدعى غيورغى من العربة ، وانزلوا منها لفة من الاسلاك ، وفكوا خراطيم التبريد المائى ثم

أوصلوها بالمضخة على السطح . وتقدموا نحو العمود بحذر الى مسافة عشرة أمتار وثبتوا القضيب الموجه على الحامل وأوصلوا الاسلاك .

ووقف كرافتسوف أمام لوحة جهاز التركيز الياقوتى وصاح :

— انتباه ! أفتح الجهاز !

وأظهر العداد أن جهاز الاشعاع قد أطلق خيطا رفيعا من الضوء لا يرى بقوة تركيز رهيبة .

لكن العمود ظل يندفع الى أعلى ، وكان سطحه المسبوك حصينا ، وكل ما هنالك أن سحائب البخار حوله ازدادت .

وهرع كرافتسوف نحو عمال التركيب وأمسك بنفسه مقبض جهاز الاشعاع ، ووجه الشعاع نحو العمود بزاوية مائلة ، لكن تلك المادة السوداء لم تتأثر ، وبدا كما لو ان الشعاع يخوض فيها أو ... أو ينحرف عن مساره .

وقال جيم :

— فلنجرب من مسافة أقرب يا سيدى .

وأغلق كرافتسوف الجهاز . وصاح :

— اقتربوا ! مترا واحدا !

وقال على أوفساد :

— لاداعى للاقتراب جدا .

ودفع العمال العربة نحو العمود ، وماد السطح تحت أقدامهم ، واذا بتشولكوف الواقف فى المقدمة ، يصرخ ويمد ذراعيه ويندفع نحو حافة البئر الممزقة . وسار بخطوات مترنحة نحو العمود مباشرة ، فاندفع جيم نحوه وطوقه بذراعيه . وظلا بضع لحظات يتأرجحان بصورة غريبة وكأنهما يحاولان حفظ توازنهما فوق حبل مشدود . وهنا أدركهما غيورغى فتشبث بجيم ، وتشبث كرافتسوف بغيورغى ، وعلى أوفساد بكرافتسوف ، كما لو كانوا أطفالا يلهون . وشدوا تشولكوف وهم يتقهقرون .. ثم انهار تشولكوف على السطح ، وجلس طاويا ساقيه تحته فلم تكونا تقويان على حمله .

ونظر الجميع اليه فى صمت ، ثم تردد صوت على أوفساد :

— هل هذا تصرف ؟ لقد نسيت قواعد الأمن .. اهكذا علمتك ؟ لماذا سرت نحو العمود ؟

فقال تشولكوف بصوت مبحوح :

— أنا لم أسر نحوه ، بل هو الذى جذبنى .

— فقال الاوسطى العجوز :

— اذهب لتستريح .

ثم استدار نحو كرافتسوف :

— هذا العمود خبيث ... ينبغى أن نحذر .

وأخذ يحاول اقناع كرافتسوف بانهاء العمل والعودة الى حافة الطوف ، ولكن كرافتسوف لم يوافق وشد العمال العربة الى الوراء قليلا ، ومن جديد عاد الخيط غير المرئى يضرب العمود ويغوص فيه .

أوه ... كم كان كرافتسوف يكره التسليم بالفشل ! ولكنه كان أمام امر واقع . واضطر الى وضع الجهاز على العربة والعودة . أما ساقا تشولكوف فكانتا لاتزالان ترتعشان فأمره كرافتسوف أن يجلس على العربة .

وسأل هويل كرافتسوف بعد أن تخلص هذا من البزة :

— العمود يتأثر ؟

وهز كرافتسوف رأسه بالنفى .

— ١٤ —

كانت قمة العمود الاسود قد غابت بين السحاب ولم تعد مرئية ، بينما لف البخار قاعدته ، وامتد فوق الطوف ستار خانق من الابخرة الرطبة ، وخارت قوى العاملين على الطوف من شدة الحرارة والجو الخانق .

وكان الاوسطى على اوفساد اكثرهم تحملا لهذا الطقس الجهنمى ، ومع ذلك فقد اعترف بأنه لم ير مثل هذا الحر حتى فى الخليج الفارسى .

وقال موجها سؤاله الى هويل الذى عمل معه منذ مدة بعيدة فى حفر آبار فى تلك المنطقة :

— أليس كذلك يا انجليزى ؟

فرد هويل مؤكدا :

— انت على حق .

— ألاتريد شايا ؟ فى الحر يحسن شرب الشاى .

— كلا ، لا أريد .

وطقطق على أوفساد بلسانه . وهو ينظر الى العمود الاسود المندفع الى أعلى :

— انه يصعد بسرعة كبيرة ، ضغط طبقات الارض

شديد جدا ... انها تطرد الحديد كما لو كان معجون اسنان من انبوبة .

وقال هويل :

— معجون أسنان ؟ آه .. تشبيه دقيق جدا .

وخرج براموليا من كابينة اللاسلكى وهو شبه عار ويتنفس بصعوبة . كان رأسه معصوبا بمنشفة مبللة وكرشه السمين يهتز . وخرج شتام وراءه ... كان دون سترة وبدا واضحا أنه يخجل من هيئته هذه غير المألوفة .

وسأل هويل :

— حسنا ... أين « فوكوكا » ؟

— فى الطريق . ستكون هنا مساء ! ولكننا سنتبخر جميعا قبل حلول المساء ! انتبه يا شتام ، سوف تتبخر قبلى ، فكتلتك أقل من كتلتى ... وما أن أبدأ أنا فى التبخر حتى تكون انت قد أصبحت سحابة .

فدمدم كرافتسوف الذى كان مضطجعا على الشيزلونغ عند باب كابينة اللاسلكى :

— سحابة فى سروال . سذاجة مطلقة .

وقال براموليا :

— سيصل الينا على ظهر « فوكوكا » رئيس

ا س . ج . د الاكاديمى توكوناجا، ومعه الأكاديمى ماروزوف ، ومن المقرر أن يصل بالطائرة الاكاديمى برنشتاين من الولايات المتحدة . ولكن الى أن يصلوا سنكون نحن قد تبخرنا ! هذه ظاهرة لم أشهدها خلال عملى من قبل ! لقد راقبت يا شتام عددا من الانفجارات البركانية لم تخطر ببالك حتى فى المنام ، ومع ذلك أقول لك : هذه أول مرة أجد نفسى فى مثل هذه المعمعة الشيطانية !

فرد شتام مصححا :

— كلنا فى مثل هذه الحال لاول مرة .

وقال على اوفساد :

— يا براموليان ... هيا نشرب شايا... الشاى مفيد فى الحر .

— ماذا ؟ ماذا يقول ؟

وترجم هويل له دعوة الاوسطى .

فصرخ براموليا :

— يا سنيور ... اننى لم اشرب الشاى فى حياتى . كيف يمكن أن يضع المرء فى فمه شايا ساخنا .. هذا فظيع ! ولكن ، أهو مفيد فعلا فى الحر ؟

— هيا بنا وسترى بنفسك .

وقاد على اوفساد الى قمرته هذا الشيلى ونظر شتام فى اثرهما نظرة غير راضية .

واستلقى هويل متهالكا على الشيزلونغ بجوار كرافتسوف ، ووجه المنظار — للمرة الألف — نحو العمود الاسود ، ثم قال :

— اعتقد أنه يميل . انه ينحرف نحو الغرب . الق نظرة يافتى .

وأخذ كرافتسوف المنظار وتطلع طويلا الى العمود . وقال فى نفسه « يالها من مادة صلبة الى حد مذهل ... ترى ماذا تكون ... آه لو حصلت على قطعة منها ... »

— قديفة موجهة ... ما رأيك يا هويل ، هل تعتقد ان القذيفة الموجهة تستطيع التأثير فيه ؟

فهز هويل رأسه بالنفى وقال :

— اعتقد أن القنبلة الذرية هى وحدها ...

— لا ... هذا كثير ...

لم يكونا قادرين حتى على الحديث ، فظلا مستلقيين على الشيزلونغ تتردد أنفاسهما بسرعة وصخب ويسيل منهما العرق جداول ... وكان المساء لا يزال بعيدا .

وفى شرفة صالون الراحة جلس عمال التركيب شبه عراة ، وكان لغطهم المتعدد اللغات تارة يرتفع وتارة أخرى يهدأ . وأخذ تشولكوف يحكى لهم للمرة العاشرة كيف شده العمود اليه وماذا كان ينتظره لولا نجدة جيم . أما جيم فكان جالسا على درج الشرفة يداعب أوتار البانجو بكآبة ويغنى بصوت مبحوح :

Oh Susanna, oh don't cry for me,
For I came from Alabama,
With my banjo on my knee.

وترددت لهجة تشولكوف السريعة :

— ولكن ما هذا يا ترى ؟ أنا فيما يبدو لست ممغنطا ، بينما هذا الوغد يشدنى اليه ... يشدنى ولا مهرب منه ... وقلت فى نفسى : سأقع الآن فوقه وقل علىّ السلام ... مغنيتو

وقال العمال الامريكيون والرومانيون بتفهم :

— خلاص ... مغنيتو .

وفتح تشولكوف ذراعيه ليصور كيف كان يندفع نحو العمود :

— نعم ... اتدرى ... هذا الكلب يشدنى ... لولا

أن أمسك بى جيم ... والا لكنت (وصفر بفمه) فيت ... فيت !

وأمّن العمال :

— فيت — فيت !

وأنّ البانجو :

— Oh Susanna!

وقال غيورغى الرومانى موضحا بروسية ركيكة :

— جيم أمسك تشولكوف . أنا أمسك جيم .. أوه ! (وبين كيف كان ممسكا بجيم) ، مهندس كرافتسوف امسك أنا ...

— باختصار كما فى الحدوته : الجد يشد الفجلة والجدة تشد الجد ...

— وبعدين امسك على اوفساد ...

فردد العمال باحترام :

— على « أوفسايد » .

وقال تشولكوف :

— عما قريب سيصل فى صعوده الى القمر .. يا إلهى ! ماذا ينتظر المهندسون ؟ سيصل الى القمر وعندها لن يكون للمتاعب نهاية .

وقص عليهم التكساسى القصير الربعة الذى يعصب رأسه بمنديل زاهى اللون كيف أنه منذ ثمانية اعوام ، وعندما كان لا يزال صبيا ، رأى وهو على ظهر سفينة صيد الحيتان ثعبانا بحريا يبلغ طوله نصف ميل .

وتوالت الحكايات المرعبة ... ويا لهم من قوم مدهشين ... عمال التركيب هؤلاء ! لقد كان بعضهم يفهم البعض الآخر الى درجة عجيبة .

وتجمع ظلام المساء فوق المحيط ، غير أنه لم يأت معه بالبرودة ، بل ربما ازدادت درجة الحرارة . وبدا العمود الملفع بالبخار على ضوء الكشافات اعصارا خرافيا منبثقا من قلب المياه وصاعدا بلا نهاية الى اعلى ... الى أعلى ...

لم يكن أحد قادرا على وقف ركضه هذا . والتصق الجميع بأطراف الجزيرة العائمة وهم يتنشقون هواء ساخنا مضغوطا . وهناك فى الاسفل داعبت الامواج الطوف ، ولكنها كانت هى ايضا ساخنة لا تنعش .

اضطجع براموليا فى الشزلونغ وهو يتأمل سطح المحيط الأزرق المائل الى السواد ، وكانت شفتاه تتحركان حركة خفيفة : « أيتها العذراء ... أيتها العذراء .. » .

وبالقرب منه وقف شتام ساكنا كتمثال ... لم يكن يرتدى سوى سروال قصير ، ويتنفس بصفير ، ويشعر بالخجل من منظر ساقيه البيضاوين النحيلتين .

— ١٥ —

وصلت السفينة « فوكوكا — مارو » ذات المحرك الديزل الكهربائى — وهى سفينة المناوبة لـ «س . ج . د » — حوالى منتصف الليل واستقرت فى عرض المحيط على بعد ميل واحد شمال غربى الطوف ... وكانت أضواؤها تبشر بالخلاص العاجل من هذا الجحيم الممض .

وحملت مصاعد النقل والركاب العاملين فوق الطوف من السطح الأعلى الى ساحة الميناء فى الاسفل . وكان منظر الركاب غريبا فى الضوء الساطع ، فقد كانوا مجموعة من الرجال شبه العراة ، بحقائبهم واكياس متاعهم وشنط اليد . وكان الغطاء المعدنى على الأرضية يهتز تحت الاقدام ، ولمعت فى الضوء الظهور والاكتاف المبللة والوجوه غير الحليقة المحتقنة . وهبط أحدهم على السلم ، ثم لمس المياه بقدمه العارية ، وسرعان ما سحبها وهو يطلق السباب .

وأخيرا وصل زورق أبيض قادما من « فوكوكا — مارو » ، وأنزل بحارته النشطون سلم الركوب فأسرعت تعبره الى ميناء الطوف امرأة شقراء نحيفة ترتدى سروالا أبيض و « سويتر » أزرق، فاندفع الواقفون على حافة الميناء جانبا مصعوقين ... كانوا يتوقعون أى شىء الا هذا ...

فقالت المرأة بالانجليزية وهى تنزل من فوق كتفها كاميرا سينمائية :

— أوه .. لا تخجلوا ! ايتها السماوات ، ما هذا الحر ! من فيكم الدكتور براموليا ؟

وسعل براموليا ... وكان يرتدى سروالا قصيرا التف حول كرشه الهائل :

— ارجو المعذرة يا سنيورا ...

فوجهت المرأة نحوه الكاميرا وأدارتها قائلة :

— أوه ، لاتلق بالا .

ولكن الشيلى لوح بيديه وهو يتراجع . أما شتام فقد غاص فى الحشد وأخذ يفتح حقيبته بعصبية ليخرج منها سرواله وقميصه .

وسأ ل كرافتسوف هويل باندهاش :

— من هذه ؟ أهى مراسلة ؟

فلم يجب هويل . وحدق فى الشقراء ، وكان يبدو فى نظرة عينيه الزرقاوين المزروتين شىء من الكراهية ... وبالفعل ، فأى شيطان قذف بها الى هذا المكان ؟ وادار كرافتسوف ظهره لعدسة الكاميرا .

ومدت المرأة يدها الى براموليا قائلة :

— نورما همبتون ، من « الديلى تليغراف » .. ما افظع هذا الحر ! ألا تستطيع يا دكتور براموليا أن تحدثنى عن ...

— كلا يا سنيورا ، كلا ! أرجوك ، تعالى فى أى وقت أخر الا الآن ، عفواً يا سنيورا !

واستدار براموليا الى يابانى شاب فى حلة بيضاء ، كان قد هبط الى الميناء خلف نورما همبتون ووقف ينتظر دوره فى صبر . فسأله براموليا :

— هل أنت قبطان « فوكوكا — مارو » ؟

فرفع اليابانى يده الى القبعة ومس مقدمتها بأطراف أصابعه قائلا :

— اننى مساعد القبطان يا سيدى .

— كم شخصا يستطيع هذا الزورق حملهم ؟

— انه يستطيع حمل عشرين شخصا يا سيدى .

— نحن هنا ثلاثة وخمسون ، هل تستطيعون نقلهم جميعا على دفعتين ؟

— نعم يا سيدى ، دون متاع طبعا ... وسنأتى لحمل المتاع فى رحلة ثالثة ...

وغادر كرافتسوف الطوف مع الدفعة الثانية . ووقف فى مقدمة الزورق ينظر الى كتلة الطوف وهى تبتعد شيئا فشيئا . كانت الاضواء فى السطح العلوى مطفأة بينما ظل الميناء الخاوى مضاء .

هكذا انتهت نوبته فى المحيط ! ولم يعد لديه هنا فى الواقع ما يفعله ، وبوسعه أن يعود الى الوطن فى أقرب فرصة . أوه ... يا للشيطان ! أى سعادة حين يرى مارينا وفوفكا وماما ! فوفكا يركض الآن .. هذا العفريت ، انه لم يكد يبلغ العام ! اى سعادة أن يجول فى شوارع موسكو ويذوب فى صخب العاصمة ... فى موسكو الآن خريف ، والامطار تسقط ، أوه ، ما أجمل المطر البارد الآن !

فليحاول العلماء أن يجدوا مخرجا ، أما هو ، كرافتسوف ، فيكفيه هذا !

ورأى البخار الابيض يتصاعد بجوار العمود ، ثم

غاب الطوف فى الظلام ، ولم يعد يرى شيئ غير بقعة الميناء المضاءة .

وسمع صوت المراسلة الشقراء الحاد يقول :

— الصحافة العالمية تنتظرك يادكتور براموليا على ظهر السفينة ، فلتستعد لهجومها . لقد أراد زملائى أن يذهبوا مع الزورق ، ولكن القبطان لم يسمح لهم واستثنانى أنا فقط . ان اليابانيين ليسوا أقل من الفرنسيين ذوقا . ولكن لماذا لاينكسر هذا العمود ؟

— لقد قلت لك يا سنيورا أننا لا نعرف شيئا عن طبيعة مادة الستار .. الواقع أن الضغط الهائل ودرجة الحرارة العالية تغير من طبيعة ...

— نعم ، لقد قلت لى ، اننى أذكر ، ولكن قراءنا يهمهم معرفة ما اذا كان العمود يستطيع الصعود الى ما لانهاية .

فقال براموليا بصبر :

— صدقينى يا سنيورا ، انا نفسى أتوق جدا لمعرفة ...

كان هيكل السفينة الابيض يتلألأ تحت الأضواء . وتوجه الزورق نحو سلم الركوب المدلى من السفينة ، فصعد عليه « سكان الجزيرة » الواحد خلف الآخر .

وما أن وضعوا أقدامهم على سطح « فوكوكا » حتى غشيت أبصارهم من وهج مصابيح التصوير . لقد بدأ هجوم الصحافة العالمية !

ودوى صوت عال :

— ايها السادة الصحفيون . انني ادعوكم الى التذرع بالصبر . هؤلاء الناس فى حاجة الى الراحة . وغدا فى الساعة السادسة سنعقد مؤتمرا صحفيا . طابت ليلتكم ايها السادة !

ونظر كرافتسوف وهو محاط بمجموعة من المراسلين نظرة امتنان الى المتحدث ، وكان رجلا يابانيا متقدما فى السن ، مجعد الوجه ، يرتدى بدلة رمادية . وقاد وصيف مؤدب كرافتسوف الى الحجرة المخصصة له ، وشرح له بلغة انجليزية ضعيفة بان غرفة الحمام واقعة فى نهاية الطرقة .

قال كرافتسوف وهو يرتمى على سرير ضيق ويتمطى بارتياح :

— أوكى .

ثم صاح مناديا الوصيف :

— اسمع ... ألا تعرف أين نزل المهندس ماكفرسون ؟

— اعرف يا سيدى .

واخرج الوصيف من جيبه ورقة ثم نظر فيها :

— القمرة رقم سبعة وعشرين . على نفس هذا السطح يا سيدى ، بعد قمرتين من قمرتك .

واستلقى كرافتسوف قليلا ، وبدأ النوم يراود عينيه ... واستيقظ على صوت طرق حذر على الباب . ودخل ذلك الوصيف بهدوء ووضع حقيبة كرافتسوف فى الركن واطفأ الضوء العلوى ، واغلق خلفه الباب دون جلبة .

كلا ، لا ينبغى أن يستسلم للراحة والا انهار تماما . وتحامل على نفسه حتى نهض . ولما وقف ترنح ، فاعتمد بيديه على المكتب . ما هذا ، هل بدأت الامواج تتلاعب بالسفينة ، أم تراه يترنح من الضعف . وقال فى نفسه : « الى الشيطان ... كفى ! غدا أقدم ال ... ياللعنة ... لقد بدأت الكلمات تضيع منى ... هذا ال ... ما اسمه ... نعم ... التقرير » .

وجمع ملابسه الداخلية وخرج الى طرقة طويلة مفروشة ببساط رمادى . وقابله رجل طويل القامة فى بدلة خضراء فاتحة . كان على رأسه تاج عال من الشعر الأبيض وأطلت من وجهه عينان مرحتان ثاقبتان .

وبرفقته سار براموليا وشتام . تنحى كرافتسوف مفسحا لهم الطريق ودمدم بالتحية فأومأ الرجل الطويل برأسه ، وقال له براموليا :

— هذا هو المهندس كرافتسوف .

فصاح الرجل :

— آ ... — ومد يده الى كرافتسوف — انني سعيد بالتعرف اليك ... ماروزوف .

وشد كرافتسوف على يد الاكاديمي وهو يضع ملابسه تحت ابطه .

وقال ماروزوف :

— لقد قدرنا في موسكو عملك في الطوف تقديرا عاليا أيها الرفيق كرافتسوف . لقد كنت على مستوى الموقف .

— شكرا ...

وسقطت منه لفافة الملابس على البساط ، فانحنى ليلتقطها وأحس أنه يترنح ثانية فسقط معتمدا بيديه ورجليه على الأرض .

وسمع صوت ماروزوف يقول :

— اذهب الآن ونم ، وسيكون لدينا الوقت لنتحدث .

ونهض كرافتسوف ونظر فى اثر الاكاديمى ، وقال مخاطبا نفسه من بين اسنانه المزمومة :

— أيها الوغد ! ألاتستطيع الوقوف على قدميك ، أيها الأبله ! ..

وفى الحمام نظر باشمئزاز الى صورته فى المرآة . يا لها من هيئة ! شعر منفوش ، وسحنة غير حليقة ملطخة ببقع غريبة ، وعينان غائرتان .

واغتسل كرافتسوف فى البانيو ، ثم وقف طويلا تحت الدش البارد ، فأنعشه وأعاد اليه الرغبة فى الحياة .

كانت الطرقة خالية هادئة ، وضوء المصابيح ينساب ناعما ، وتوقف أمام القمرة رقم ٢٧ . ترى هل هويل نائم أم لا ؟ كان الباب مواربا فاقترب كرافتسوف وقوّس اصابعه ليطرقه ، فسمع فجأة صوتا نسائيا حادا :

— ... ليس لذلك قيمة . أياك أن تظن أننى جئت الى هنا من أجلك .

فرد صوت هويل :

— رائع . والآن فان أفضل ماتفعلينه هو أن ترحلى .

فضحكت المرأة :

— لا ، مستحيل . لن أرحل بهذه السرعة ياعزيزى...

واسرع كرافتسوف بالابتعاد عن الباب ، وفكر فى ذهول ؟ « نورما همبتون .. وهويل ! ... ترى ماذا يجمعهما ؟ .. على العموم ، ليس هذا من شأنى ... »

ودخل قمرته . كانت قمرة لابأس بها .. صغيرة ، ولكنها مريحة . وحك ذقنه الخفيفة ... هل يحلقها اليوم أم غدا صباحا ؟

وأدار زر الضوء.. فرأى على الطاولة كومة من الرسائل .

-١٦-

استيقظ على شعور بالسعادة .... ترى ما السبب ؟ آه ، طبعا .. انها رسائل مارينا ! لقد ظل يقرؤها ويعيد قراءتها حتى الثالثة صباحا ... كم الساعة الآن ؟ أوه .. العاشرة الا الثلث !

وقفز من فراشه وازاح الستارة وفتح النافذة المستديرة فاقتحم القمرة ضوء الصباح الأزرق . ورأى سطح المحيط المنبسط ، والسماء وقطع السحاب ، وعند خط الأفق رأى مربع الطوف تعلوه غلالة من البخار الابيض . كانت الشمس تعمى البصر ، فلم يلاحظ على الفور

ذلك الخيط الدقيق الاسود الذى يخترق غلالة البخار ويتسامى الى السحاب . لقد كان العمود الغامض يبدو من هنا لا كخيط ، بل مجرد شعرة واهية فوق صدر الأرض العريض ... هكذا ، مجرد شئ تافه لايستحق حتى واحدا فى المائة من تلك الاثارة والضجة التى أحدثها فى العالم .

ووقع بصر كرافتسوف على الورقة الموضوعة فوق كومة الرسائل ، وابتسم وهو يرفعها نحو عينيه وقرأ من جديد الكلمات المكتوبة بخط مائل وبحروف كبيرة كحروف المطبعة : « بابا ، عد بسرعة ، انا مشتاق اليك » . أمسكت مارينا بيد فوفكا وخطت بها هذه الكلمات . واسفلها رسم منزل ، مائل أيضا ، ومن مدخنته ارتفع خط متعرج من الدخان . برافو يافوفكا ، ها هو يمسك بالقلم فى راحته !

حسنا ، ينبغى الذهاب لتناول الافطار ، ثم البحث عن ماروزوف بعد ذلك ، فاذا لم يكونوا بحاجة اليه هنا ، فسيرحل فى أقرب فرصة ...

ورن جرس التليفون فانتفض من المفاجأة .

وسمع صوت هويل الخفيض :

— الكسندر ... هل افطرت ؟

— كلا .

— اذن لن تلحق .

— وماذا حدث يا هويل ؟

— فى العاشرة سيرحل الزورق . لن تلحق . اذهب لتناول افطارك .

فقال كرافتسوف :

— سألحق !

ولكن هويل كان قد وضع السماعة .

وارتدى كرافتسوف ملابسه بسرعة وخرج الى الطرقة ركضا . وفى قاعة فسيحة أمسك به أحد الصحفيين ولكن كرافتسوف دمدم قائلا « Sorry » وواصل ركضه . ودلف الى طرقة ضيقة كانت بها مروحة تئز ففهم أنه ضل طريقه . الى الوراء ! وسأل عن الطريق حتى وصل أخيرا الى سطح الصارى فرأى بعيدا فى الاسفل الزورق وهو يتراقص فوق الامواج بجوار السفينة ، وقفز على السلم صاعدا الى السطح العلوى ، ووقف بجوار مجموعة من الناس وهو يلتقط أنفاسه . وهنا صاح فيه على أوفساد :

— لماذا جئت ؟ لقد نبهتهم الا يوقظوك . قلت دعوه ينم . هل أخبرك الانجليزى ؟

— نعم ، أين هو ؟

فأشار على أوفساد باصبعه الى الزورق :

— هناك . لا تذهب ... استرح .

فتملص كرافتسوف قائلا فى أسى :

— استريح ! !

وانحشر فى حلقة الصحفيين الضيقة شاقا طريقه نحو براموليا وشتام اللذين كانا يتحدثان مع ذلك اليابانى العجوز الواقف بجوار السلم المؤدى الى الزورق .

كان كرافتسوف يشعر بالخجل لتأخره فى النوم فحياهم بخجل ، ولكن براموليا سحبه من يده وقدمه الى اليابانى قائلا :

— هذا هو المهندس كرافتسوف .

وتهللت اسارير وجه اليابانى المتغضنة فوشيت بابتسامة ، وملأ صدره بالهواء وقال بصوت عال :

— ماساى توكوناغا ...

ثم أضاف بلغة روسية سليمة الى حد كبير :

— هل نلت قسطا كافيا من الراحة ؟
— نعم ... كاف تماما ...
اذن فهذا هو الأكاديمى الشهير ! منذ حوالى خمسة وعشرين عاما درس هذا الاكاديمى مع أول مجموعة من العلماء اليابانيين الرماد المتبقى فى مدينة هيروشيما ، واذاع بيانا غاضبا ضد الاسلحة الذرية . وقالت الاشاعات انه مصاب بداء الاشعة .. وبالفعل كان منظره يدل على المرض ...
وسأ ل كرافتسوف :
— اسمح لى يا سيد توكوناغا بالذهاب مع الزورق .
— وهل تعرف لماذا نرسل الزورق ؟
— كلا .
وضحك توكوناغا ضحكة خافتة .
فقال كرافتسوف وهو يحس بالدماء تضرج وجهه :
— ولكنى اعرف الطوف جيدا . و ... بوسعى أن أقدم بعض الفائدة ...
ووصل الاكاديمى ماروزوف وقال بمرح :
— اليك آخر الاخبار يا توكوناغا — سان : الرادار يشير الى أن ارتفاع العمود بلغ حوالى ثلاثين كيلومترا .

وهو يصعد بسرعة ثمانمائة متر فى الساعة . ولكن ينبغى التأكد من ذلك .
وصاح أحد الصحفيين :
— ثلاثون كيلومترا !
وخطا ماروزوف على سلم النزول قائلا :
— حسنا ، هل كل شيء جاهز ؟ هل أنت آت معنا يا كرافتسوف ؟
— نعم !
— هيا بنا اذن .
وهبطا الى الزورق فسارع أحد البحارة بسحب السلم . وسار الزورق بمحاذاة جانب « فوكوكا » الابيض . ولوّح ماروزوف بيده ، فأومأ توكوناغا فى أسى ردا على تحيته .
وحيا كرافتسوف هويل وجيم باركنسون وتشولكوف وقال لتشولكوف :
— انت ايضا هنا ؟
فضحك تشولكوف :
— طبعا ، أينما ذهبت تجدنى معك .
وقال هويل :

— جئت دون أن تفطر ؟

فرد كرافتسوف :

— بسيطة !

فحدق فيه هويل متمعنا ، وهو ينفث دخان غليونه .

كان معهم فى الزورق شاب أشقر لا يعرفه كرافتسوف ، يرتدى قميصا زاهى الألوان نقش عليه منظر جبل فودزياما . كان يفحص الأجهزة ويتحدث بصوت خافت مع ماروزوف . وكان هناك حوالى خمسة أو ستة أجهزة ، واكبرها يشبه انبوبة غاز ، أما أصغرها فكان موضوعا فى علبة خشبية يمسك بها الشاب .

وخفتت الاحاديث على الزورق شيئا فشيئا وهم يقتربون من الطوف ، وتركزت كل الانظار على العمود الأسود الذى يخترق سحابة من البخار . لم يعد الآن يبدو شعرة تافهة كما رآه كرافتسوف من فوق ظهر السفينة ، بل كان فيه ثمة شيء مقبض رهيب .

وقال ماروزوف بعد صمت طويل :

— نعم ... لقد صنعت أمنا الأرض لنفسها ذيلا لابأس به .

كانت المياه بالقرب من الطوف مضطربة . واقترب

الزورق من ميناء الطوف فأمر ماروزوف أن ينزلوا أولا الى الماء صندوقا به مقياس حرارة مسجّل ، لقياس درجات الحرارة لفترات طويلة . ثم نقلوا بعد ذلك الاجهزة الى مصعد النقل ، أما هم فصعدوا الى السطح العلوى للطوف .

أوه .. كانوا كأنهم يسيرون فوق مقلاة ساخنة الى درجة الاحمرار ! ونظر كرافتسوف الى ماروزوف بقلق ، انه رجل متقدم فى السن ، فكيف سيتحمل هذا الحر الجهنمى ؟ ولكن ماروزوف أخذ ، وقد بلله العرق ، يحشر نفسه فى البزة المصنوعة من الالياف الزجاجية ، فسارع الجميع الى الاحتذاء به .

ودوى صوت ماروزوف فى ميكرفون خوذة البزة التى يرتديها كرافتسوف :

— هل تسمعوننى كلكم ؟ حسنا . سنبدأ الآن القياسات الاولية . سنسجل القياسات كل خمسة وعشرين مترا . هل أنت مستعد يا يورا ؟

فأجاب الشاب الاشقر ، الذى اتضح أنه اخصائى قياسات :

— نعم يا فكتور قسطنطينوفتش .

— اذن لنبدأ !

سار جيم باركنسون بحذاء القضبان متوجها نحو وسط الطوف وهو يفك الاسلاك من بكرة فى يده . وبعد أن قاس خمسة وعشرين مترا من جانب الطوف غمس الفرشاة فى دلو به طلاء ، ورسم علامة حمراء على السطح . وضغط ماروزوف على زر وانكب على منظار فى ماسورة كانت تمتد من الصندوق الذى يشبه انبوبة الغاز . وظل يتطلع مدة طويلة بينما برقت عينه فى وهج الضوء الذى كان ينطلق من الماسورة . ثم أخرج مفكرة صغيرة ونزع القفاز من يده اليمنى وأخذ يدون فيها بعض الملاحظات .

وفى ذلك الوقت كان يورا يسجل قياسات جهازين آخرين ، بينما انكب هويل على جهاز المغنيطوغراف . وكلّف ماروزوف كرافتسوف بتسجيل النشاط الاشعاعى .

وتردد صوت ماروزوف :

— يا رفيق كرافتسوف ... على أى بعد جذب العمود تشولكوف نحوه بالامس ؟

— على بعد حوالى عشرة امتار .

فقال تشولكوف :

— أقل من عشرة ... حوالى ثمانية .

فعارضه كرافتسوف :

— كلا ، كلا .

ثم نادى جيم واعاد عليه السؤال بالانجليزية فرد هذا :

— اثنتا عشرة ياردة بالضبط . لا بوصة اكثر .

فضحك ماروزوف ضحكة قصيرة وقال :

— اسمعوا يا بحاثة . ضعوا الاجهزة على العربة . وارجع أنت ياباركنسون . سنتقدم كلنا معا .

وفجأة مادت ارض الطوف تحت أقدامهم وسقط جيم على دلو الطلاء ، ووقع يورا على ظهره وقد شد الى صدره مقياس الجاذبية الكوارتزى . ورمت الهزة بهويل على ماروزوف . وتصاعد البخار بعنف عند قاعدة الطوف وغطى الطوف بغلالة بيضاء .

وهدأت الهزات شيئا فشيئا حتى تلاشت تماما ، وفرق الهواء سحابة البخار وهو يدفعها الى أعلى . ووقف الخمسة المرتدون بزات رمادية زرقاء من الالياف الزجاجية ملتصقين بعضهم ببعض عاجزين أمام جبروت الطبيعة الهائل .

ورفع هويل رأسه وحدق خلال زجاج الخوذة الشفاف قائلا :
— يبدو أن سرعة العمود ازدادت .
فرد ماروزوف :
— ستبين القياسات الرادارية ذلك . حسنا ، هيا نتقدم .
وتقدم هؤلاء الرجال العنيدون خطوة فخطوة نحو العمود وهم يدفعون أمامهم العربة وعليها الاجهزة ، ويفكون الأسلاك من البكرة .
وعند العلامة ٢٠٠ استغرقوا فى عملية القياس ساعة ونصف ، فقد كان عليهم أن ينتظروا حتى يعود مقياس الجاذبية البندولى الى وضعه الطبيعى بعد أن أثارته الهزات .
ولما بلغوا العلامة ١٥٠ أمرهم ماروزوف أن يربطوا انفسهم فى حبل واحد .
وعند العلامة ١٠٠ اكتشف جيم ان الطلاء يغلى فى الدلو ويتبخر ، فناوله يورا قطعة من الطباشير .
وعند العلامة ٧٥ جلس هويل على العربة وتقلص بدنه وأن أنة قصيرة .
وتردد صوت ماروزوف فى الميكرفون قلقا :

— ماذا بك يا ماكفرسون ؟
ولكن هويل لم يرد .
فقال كرافتسوف :
— سأحمله الى الزورق . انها أزمة قلبية .
فجاء صوت هويل ضعيفا :
— لا ... ستمر حالا .
فأمر ماروزوف :
— الى الزورق فورا !
وأمسك كرافتسوف بهويل من تحت ابطيه وأنهضه وسار به نحو حافة الطوف . وسمع وقع أنفاس هويل الثقيلة فأخذ يردد :
— لا بأس ياصديقى ، لا بأس ...
وخيل اليه وهما فى المصعد أن هويل فقد وعيه ، فأصابه الهلع وأخذ يهزه وخلع الخوذة من رأسه ومعها خوذته هو أيضا . وتوقف المصعد فدفع الباب وصاح :
— يا من فى الزورق !
وركض اثنان من البحارة اليابانيين بنشاط نحو الميناء ، وساعدا كرافتسوف فى خلع البدلة عن هويل ، فأشار هذا بحركة ضعيفة من يده الى جيب تحت حزام

سرواله القصير . وفهم كرافتسوف اشارته فأخرج من الجيب الانبوب الزجاجي ووضع حبة بيضاء فى فم هويل ، فقال هذا بصوت مبحوح :

— أخرى .

وحملوه الى الزورق وأرقدوه على مقعد ضيق فى المقدمة ووضع أحد البحارة تحت رأسه طوق نجاة من الفلين .

وقال كرافتسوف بالانجليزية للرقيب اليابانى :

— انقلوه فورا الى السفينة . هل تفهمنى ؟

— نعم ، يا سيدى .

— سلمه للطبيب وعد ثانية .

— نعم ، يا سيدى .

وانطلق الزورق مبتعدا عن الميناء ووقف كرافتسوف قليلا يشيعه بنظراته . وفكر فى قلق « هويل ياصديقى ... لقد اعتدت عليك جدا . اياك أن ... انك رجل قوى... »

لم يلاحظ الا الآن أن الشمس قد مالت نحو المغيب ، فكم ساعة اذن قضوا على الطوف ؟ .. وزحفت على صفحة السماء سحب ثقيلة كثيفة وغطت الشمس فاشتعلت بلون برتقالى .

وأحكم الجو الخانق قبضته على الاعناق . وأنزل

كرافتسوف الخوذة على رأسه ودخل المصعد . ثم سار ببطء وبدلته تقرقع على السطح العلوى الملبد بالبخار وقد راوده احساس غريب ، وكأن كل ما يحدث لا يحدث على الأرض ، بل على كوكب آخر غريب . ثم لعن نفسه على هذه الأفكار الخرقاء .

واقترب من الاشباح الرمادية الزرقاء — وكانوا لا يزالون يسجلون القياسات عند العلامة ٧٥ — فسمع سؤال ماروزوف موجها اليه ، فأجاب بأنه أرسل ماكمرسون الى السفينة .

كان القلق باديا على ماروزوف . وكان يتأكد بنفسه من قياسات الاجهزة كلها .

ودمدم قائلا :

— طفرة شديدة . هيا نتقدم . كلنا معا .

وتقدموا كتفا الى كتف ، هم يدفعون أمامهم العربة التى كان عليها صندق مقياس الجاذبية البندولى ، بينما حملوا بقية الاجهزة على أيديهم . وكان جيم يفك سلك البكرة .

لم يكونوا قد قطعوا اكثر من خمسة عشر مترا عندما تدحرجت العربة فجأة فوق القضبان مندفعة نحو العمود .

ودوى صوت ماروزوف فى الآذان :

ــ الى الوراء !

وتقهقر الرجال ، بينما اندفعت العربة بالصندوق أسرع فأسرع تشدها قوة غامضة حتى ابتلعتها سحب البخار ، ثم عادت فظهرت فى فتحة بين السحب . وعند نهاية القضبان طارت كأنما دفعها شخص ما فوق جسر الانزلاق ، وومضت كنقطه رمادية ثم اختفت فى سحب البخار .

وصاح تشولكوف وهو يشير بقفازه :

ــ ها هى !

على ارتفاع عشرين مترا كان يلوح العمود بين كتل البخار الممزقة وهو يركض الى أعلى حاملا الصندوق وتحته بقليل العربة ...

ثم اختفيا فى السحب ...

كان الرجال ينظرون بلهفة وقد رفعوا رؤوسهم .

ثم قال تشولكوف مصفرا بفمه :

ــ فيو ــ فيو ... ابحثوا عنها الآن فى القمر ...

ودمدم جيم ببعض اللعنات .

وشعر كرافتسوف بارهاق فظيع وثقلت ساقاه كأنما قدتا من

حجر ، واحسن بالبدلة وكأنها تزن عشرة أطنان ، وانهالت على رأسه مطارق بطيئة الضربات .

وسمع صوت ماروزوف :

ــ اليوم يكفى . هيا الى الزورق .

ــ ١٧ ــ

قالت المرأة :

ــ هل تريد شايا ؟

فأجاب هويل .

ــ كلا .

كان راقدا فى قمرته وذراعاه الجافتان المنتفختا العروق ممتدتان فوق البطانية الزرقاء ، وقد تقلصت قبضتاهما . وكان وجهه الاسمر الشاحب جامدا كوجه أبى الهول ، وفكه الاسفل المغطى بلحية كثة بارزا بصورة غريبة .

وكانت نوما همبتون جالسة بجوار السرير تحدق فى وجهه الجامد .

ــ أريد أن اصنع أى شىء من أجلك .

ــ احشى الغليون تبغا .

ـ كلا يا هويل ، الا هذا . التدخين ممنوع .
فلزم الصمت .
ـ لم يعد الألم شديدا ؟
ـ لم يعد .
ـ منذ ثلاثة أعوام لم تكن تشكو من القلب . انك ترهق نفسك بالعمل . وتسافر الى أشد الاماكن هلاكا . انك لم تقض فى انجلترا حتى ثلاثة أشهر خلال هذه الاعوام الثلاثة .
وظل هويل صامتا .
ـ لماذا لا تسألنى كيف تصادف وجودى فى اليابان ؟
ـ كيف تصادف وجودك فى اليابان ؟ ـ سأل دون مبالاة .
ـ أوه ، هويل ! ... وتنهدت بحدة ومالت بجسمها الى الأمام ـ أرجوك الاتظن بأننى عشت عيشة طيبة خلال هذه الاعوام الثلاثة . لقد اتضح أنه ... على العموم ، فى يونيو ، عندما شغر مكان أحد المراسلين فى طوكيو طلبت نقلى الى هناك . لقد انفصلت عنه هجرته .
فقال هويل بصوت هادئ :

ـ أنت دائما تهجرين ...
فضحكت بكآبة :
ـ نعم ... تلك هى عادتى ... ولكن اسمع ما سأقوله لك ... هويل .. اننى اريد أن أعود .
صمت طويلا ، ثم نظر اليها بطرف عينيه وسأل :
ـ ألا تؤلمك اذناك ؟
ـ أذناى ؟
ـ نعم ... قرطاك ثقيلان جدا .
وتحسست نورما قرطيها بحركة لا ارادية . كانا عبارة عن مثلثين أخضرين كبيرين تحليهما نقوش .
ـ لقد علمت من الصحف أنك هنا ، على الطوف ، وادركت أن هذه هى فرصتى الأخيرة . فأرسلت برقية الى الادارة ، وسافرت على ظهر « فوكوكا » .
وقال هويل :
ـ اذهبى ... اريد أن أنام .
ـ انك لا تريد أن تنام . لم نعد شبابا يا هويل ـ ورن صوتها المشروخ ـ بوسعى أن أحشو لك الغليون وأزرع الورد ونبات البتونيا فى أحواض الأزهار أمام المنزل . كفانا تشردا فى ارجاء الارض يا هويل .

سنقضى الوقت كله معا .. كل الامسيات معا يا هويل ..
كل ما تبقى لنا من أمسيات ...

— اسمعى يا نورما ...

— نعم ، يا حبيبى ...

— هل يكتب لك هوارد ؟

— نادرا . عندما يكون بحاجة الى نقود . انه لم يعد محتاجا الينا كثيرا .

— الىّ أنا ... على اى حال .

— انه مع ذلك ابننا يا هويل ، وكان بوسعك أن ...

— كلا ... كفى ! كفى ! ياللشيطان !

فمرت بيدها على البطانية ومسحت على ساقه :

— حسنا .. لا تقلق نفسك . ربما تكون بحاجة الى شاى ؟

ودق الباب . فقال هويل :

— ادخل .

دخل كرافتسوف ، أشعث الشعر ، فى قميص أبيض مفتوح الصدر وسروال مجعد . وقال وهو لا يزال على العتبة :

— كيف أحوالك الآن ؟

وأمسك اذ رأى المرأة :

— آسف ، ألم أزعجكما ؟

— كلا ، نورما . هذا هو المهندس كرافتسوف من روسيا . وهذه نورما همبتون ، مراسلة صحفية .

وهزت نورما تاج شعرها الأشقر ، ومدت الى كرافتسوف يدها وهى تبتسم :

— اننى سعيدة جدا . لقد كتبت عنك صحف العالم كله يا مستر كرافتسوف . وسيسر قراء « ديلى تليغراف » أن يقرأوا بضع كلمات توجهها لهم ...

فقال هويل :

— انتظرى يا نورما .. فيما بعد . هل عدت من الطوف من مدة طويلة يافتى ؟

— الآن توا . كيف حالك ؟

— يبدو أن الطبيب الزمنى الفراش لمدة طويلة . حسنا هات ما عندك .

وقص عليه كرافتسوف بعجلة واضطراب كيف جذب العمود الاسود نحوه العربة والصندوق .

— هكذا اذن ! ما هذا .. أهى ظاهرة مغناطيسية ، أم تراها ظاهرة جذبية ؟

— لا أعرف ياهويل ، انها شيء شاذ للغاية .

— وماذا يقول ماروزوف ؟

— ماروزوف صامت ، لم يقل سوى أن قوة الجاذبية الأفقية تزداد كلما اقتربت من العمود لا بمتوالية عددية بل هندسية .

— وماذا بعد ذلك ؟

— بعد ذلك ؟ قياسات جديدة . فقياسات اليوم كانت أولية ، تقريبية . أما الآن فستقام على الطوف أجهزة قياس بعيدة المدى تعمل باستمرار . وستنقل معلوماتها الى « فوكوكا — مارو » . حسنا يا هويل . اننى سعيد بأنك تحسنت . سأنصرف .

فقالت نورما همبتون :

— يا مستر كرافتسوف . عليك أن تحدثنى بالتفصيل عن العمود .

فنظر اليها كرافتسوف . وفكر فى نفسه : « ترى كم عمرها ؟ وجهها صبى ، وقوامها ... ولكن يديها تشيان بالكبر . ترى كم .. ثلاثون ؟ خمسون ؟ »

وسأله هويل :

— هل أكلت شيئا اليوم ؟

— كلا .

— أنت مجنون . اذهب فورا . دعى مستر كرافتسوف وشأنه يا نورما .

وقال كرافتسوف :

— سيعقد مؤتمر صحفى فى الثامنة مساء يا مسز همبتون .

— لماذا فى الثامنة ؟ لقد أخبرونا أنه فى السادسة .

— تأجل الى الثامنة .

وحياهما برأسه واتجه نحو الباب . وعندما فتحه اصطدم بعلى أوفساد .

وقال الاوسطى العجوز :

— حاسب يا هذا !

كان يحمل ابريق شاى منقوشة عليه زهور وردية :

— كنت أتوقع أنك هنا . وقال بصوت حازم — اذهب لتناول الطعام. تسير جائعا، ونسيت الاكل تماما .

— حالا ، حالا .

وسار كرافتسوف فى الطرقة مبتسما . وجاشت نفسه قليلا من شدة الجوع .

دخل علي أوفساد قمرة هويل ، ونظر الى نوروما بطرف عينه ووضع الابريق على المائدة . وقال :

— اشرب الشاي يا انجليزي . لقد صنعته بنفسي .. شاي طيب ، أذربيجاني . لن تجد مثله في أي مكان آخر .

— ١٨ —

غطت طبقة كثيفة من السحب سطح المحيط ، وهب هواء بارد وزحف ظلام المساء الازرق فأضيئت الانوار الساطعة على ظهر « فوكوكا — مارو » . وتأرجحت السفينة فوق الامواج .

وعند باب الصالون الذي كان مقررا أن يعقد فيه المؤتمر الصحفي ، أمسك شاب أحمر الخدين بكرافتسوف من مرفقه ، وقال له وهو يحدق فيه بعينين رماديتين تبتسمان ببشاشة :

— يا رفيق كرافتسوف .. أيها الرفيق كرافتسوف الهمام ... اسمح لي ان اقدم لك نفسي : أولوفيانيكوف... مراسل « الازفستيا » الخاص .

فصافحه كرافتسوف قائلا :

— اني سعيد للغاية .

— بالامس لم أرد ازعاجك . واليوم صباحا حاولت الامساك بذيل سترتك ، ولكنك كنت تركض بسرعة رهيبة . ولما كنت أنت انسانا مهذبا فقد رميت لي بكلمة اعتذار بالانجليزية ...

فضحك كرافتسوف :

— أهو أنت اذن ؟ عفوا يا رفيق أولوفيانيكوف ... بالروسية هذه المرة .

— بكل سرور يا الكساندر فيتاليفتش . اعتقد أنه قد يهمك أن تعرف أنني اتصلت بزوجتك تليفونيا قبل سفري من موسكو ...

— اتصلت بمارينا ؟

— اتصلت بمارينا. واستنتجت من حديثها أن مشاعرها نحوك طيبة جدا .

فهتف كرافتسوف وقد بدأ احساسه بالود الشديد تجاه هذا المراسل البشوش يقوى :

— وماذا قالت أيضا ؟

— قالت أنها تنتظرك على احرّ من الجمر ، وأن كل شيء لديهم على مايرام ، وأن ابنك فوفكا عفريت ..

عفريت .. وقد أخذت ملامح طبعك تظهر فيه ...
ضحك كرافتسوف وأمسك بيد أولوفيانيكوف يهزها بحرارة وسأله :

— ما اسمك بالكامل ؟

— ليف غريغوريفتش . بوسعك اذا اردت أن تناديني دون ذكر اسم الأب* . والدتك ايضا بخير وقد طلبت مني أن أبلغك تحياتها وأنها هي أيضا تنتظرك . ولم أتمكن من الحديث مع فوفكا ، فقد كان يغط في نوم بريء . وطلبت مني مارينا أن احمل لك مجلات الاسبرانتو ، ولكني كنت مستعجلا للاسف ... للذهاب الى المطار .

— شكرا جزيلا يا ليف غريغوريفتش .

— لاشكر على الواجب .

دخلا الصالون وجلسا معا على أريكة بجوار الحائط . وانهمك ممثلو الصحافة العالمية في حديث صاخب واشعلوا لفائفهم ، وتبادلوا الضحكات ، وهم ينتظرون بدء المؤتمر . وحاصرت نورما همبتون شتام في أحد

* تقتضي تقاليد المخاطبة في الروسية أن ينادى الشخص باسمه واسم ابيه للاحترام – المترجم .

الاركان وأخذت تعتصر من هذا النمسوى بعض المعلومات ، وهي تطوح بخصلات شعرها التي تشبه لبدة الاسد ، وتهزّ مفكرتها الصحفية . أما على أوفساد فقد ارتدى حلته الزرقاء وعلق على صدره وساما ، وجاء فجلس بالقرب من كرافتسوف مما جعل جيرانه يتلاصقون ليفسحوا له مكانا . وعرّفه كرافتسوف على أولوفيانيكوف ، فشرع على اوفساد على الفور يحكي للمراسل قصة علاقاته القديمة والمعقدة بالصحافة .

وانسابت كلماته وقورة متئدة :

— لقد كتبوا عني كثيرا جدا . كانوا يكتبون : « الاوسطى على أوفساد يقف فوق برج الحفر » . فكنت أقرأ وافكر في نفسي : « وهل على اوفساد يقف دائما فوق برج الحفر ؟ على اوفساد لديه أسرة . لديه أخ ، مهندس زراعي يفهم في العنب جيدا ، ولديّ أيضا أولاد » ، فلماذا اذن يكتبون دائما ان الاوسطى على اوفساد فوق برج الحفر ؟

فقال أولوفيانيكوف وهو يضحك :

— أنت على حق يا على أوفساد . تلك فعلا طريقة

اخواننا الصحفيين، ما أمهرهم فى تحويل الانسان الى تمثال ...

— برافو ، صحيح ما تقول ! — ورفع على اوفساد اصبعه المجعد — الانسان تمثال . لماذا يكتبون هذه الكلمات ، الا توجد كلمات أخرى ؟

— يوجد يا على أوفساد ، ولكن اصعب شىء هو العثور على كلمات أخرى ، كلمات حقيقية ... وعندما تكون متعجلا لا يحالفك التوفيق دائما .

— ولماذا تتعجل. لو ان كل واحد أخذ يستعجل عمله ، فسوف يبكى العمل ...

دلف الى الصالون توكوناغا وماروزوف وبراموليا وشخصان آخران لا يعرفهما كرافتسوف . وتوجهوا نحو طاولة الرياسة فجلسوا . وصمتت الاصوات فى الصالون .

نهض توكوناغا فبرقت أضواء « الفلاش » ، وتردد فى الصالون الصامت صوت اليابانى عاليا :

— ايها السادة الصحفيون . باسم هيئة رئاسة ال«س . ج . د»اتشرف بافتتاح هذا المؤتمر الصحفى . وأريد قبل كل شىء ان انبهكم الى أننا لن نستطيع اخباركم الا ببعض المعلومات الأولية وببعض الفرضيات

وأؤكد على ذلك ايها السادة — التى لا يمكن ان تدعى لنفسها الصحة المطلقة بأى حال ، بل تحتاج الى تمحيص دقيق .

وترجم مترجمان الى الروسية والانجليزية هذه العبارة الناعمة الرسمية بعض الشىء . ثم واصل توكوناغا حديثه :

— وهكذا ، فمنذ ست سنوات ، وعلى عمق اثنين واربعين كيلومترا تحت سطح المحيط توقف الحفر فى البئر الكبيرة العمق ، فقد عجز الحفار عن تفتيت التربة ، واستحال رفع الأنابيب لسبب مجهول . ربما تذكرون أيها السادة ذلك الجدل وتلك الفرضيات التى طرحت آنذاك . وقررنا أن ننظم نوبات مراقبة عالمية على ظهر الطوف ، ولم يكن ذلك عبثا . فبعد ست سنوات ، أى الآن ، وقع حادث جديد خطير . ولكن دعونى أولا أذكركم بأن البئر حفرت فى قاع هوة عميقة فى المحيط ، وفى المكان الذى تقول بياناتنا عنه أن القشرة الارضية فيه أرق بكثير منها فى الاماكن الأخرى . فهل صادفت البئر شقا عميقا ، أم أن الحفار البلازمى فتت الطبقات الارضية السفلى .. نحن لا نعلم .

وبوسعنا أن نفترض ان العمود الاسود هو مادة صاعدة

من الاغوار السحيقة وموجودة فى صورة لدنة بتأثير
الضغط الهائل . وقد وجدت هذه المادة نقطة ضعيفة
فاندفعت خلالها الى أعلى حتى وصلت حدود القشرة
الارضية . وعندما صادفت البئر بدأت تصعد ، أولا
ببطء ، ثم بعد ذلك أسرع فأسرع . وقد أطلق عليها
أحدهم تشبيها موفقا للغاية عندما قارنها بمعجون الاسنان
الذى يخرج من الانبوبة عند الضغط عليها . وكما
تعلمون ، فقد أزاحت هذه المادة عمود الأنابيب من
البئر ووسعت البئر نفسها الى حد كبير ، وواصلت
صعودها على شكل عمود يميل قليلا نحو الغرب .
وحتى الآن لا يزال التركيب الكيميائى والخصائص
الفيزيائية لهذه المادة مجهولة . والحقيقة ايها السادة ،
أن كثيرا من العلماء يعتبرون أن جدول مندلييف صحيح
فقط بالنسبة للضغوط والحرارة العادية . أما فى الاعماق
السحيقة ، حيث تؤثر ضغوط خرافية ودرجات حرارة
مهولة ، فان تركيب الاغلفة الاليكترونية للذرات يتغير ،
كما لو كانت مدارات الاليكترونات تنضغط فيها . وفى
الاعماق الأبعد تختلط الاغلفة الاليكترونية للذرات .
هناك تكتسب جميع العناصر خصائص جديدة تماما ،

ولا يوجد هناك حديد أو فوسفور أو يورانيوم أو يود ،
لا توجد اية عناصر ، بل مادة ما شاملة ذات طابع
فلزى. هذا ما نفترضه نحن. وربما تعرفون ان محاولة
الحصول على عينة من ماده العمود لم تكلل للاسف
بالنجاح . والامر اليقين ان هذه المادة ذات صفات
جديدة خاصة .

— ١٩ —

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل عندما خرج
كرافتسوف من الصالون المعبأ بالدخان . كان رأسه
يؤلمه وظهره يكاد ينقصم . وتمنى لو أنه يذهب الآن
الى الطبيب ليأخذ حبوبا ما .. ولكن هل يستطيع المرء
أن يجد المركز الطبى فى هذه المدينة الكبيرة العائمة ؟ ...
فقد على أوفساد وأولوفيانيكوف فى زحمة المراسلين
الذين اندفعوا بعد نهاية المؤتمر نحو غرفة الارسال .
ولم يكن واضحا فى ذهنه تماما موقع الطرقة التى توجد
فيها قمرته ، فهبط على أول سلم قابله . ها هو مرة
أخرى فى طرقة خاوية مفروشة ببساط من الجوت ، ثم
أبواب وأبواب وأبواب ... وأرقام ! القمرات زوجية .

عليه أن يذهب الى السطح الآخر ... وعموما فعليه أن يعرف المواقع على ظهر « فوكوكا – مارو » ، اذ يبدو ان بقاءهم هنا سيطول .

وسار فى الطرقة يجر ساقيه جرا من شدة التعب . ومضى يضرب على غير هدى وفى رأسه يتردد لحن أغنية لم يستطع طردها منه .. « قد فرشنا الابسطة والسجاد ، حيث مرت أقدام الحبيب ... »

وسمع فى مكان ما أمامه فقرة من حديث بالانجليزية تلتها نوبة ضحك ، بعد ذلك تتاهت اليه انغام البانجو الحزينة ، وانفتح باب احدى القمرات على مصراعيه وخرج الى الطرقة ذلك الشاب التكساسى الربعة (كان رأسه معصوبا بمنديل زاهى الالوان) ومعه شخصان آخران من عمال التركيب فى فرقة باركنسون . كانوا فى غاية النشوة .

وصاح الشاب الربعة ذو المنديل :

– آه ، المهندس . هلا أخبرتنا عما اخترعتموه أنت والسادة العلماء ؟

فأجاب كرافتسوف بصوت متعب :

– لم نخترع شيئا حتى الآن .

– اذن عبثا يدفعون لكم رواتبكم !

ونظر كرافتسوف الى وجه التكساسى الأحمر المنفعل وواصل سيره فى صمت ، لكن أحد العمال استوقفه وسأله :

– دقيقة واحدة يا سيدى . هاهو فليتشر – وأشار برأسه نحو التكساسى – يهتم بما اذا كان هذا العمود الملعون سيسقط فوق امريكا ، فلديه هناك أقارب كثيرون ياسيدى ، لذلك فهو قلق ...

فأجاب كرافتسوف :

– دعه يكتب لهم بأن يضعوا فوق البيت دعامة .

وضج عمال التركيب بالضحك . وأطل من القمرة المجاورة جيم باركنسون ومعه البانجو ، وحيا كرافتسوف بايماءة وقال لفليتشر :

– اذهب ونم يا فليتشر .

فقال التكساسى هازئا :

– كان بودى أن أذهب ، ولكنى أخشى أن أصبح أصفر أثناء النوم ...

وعلا الضحك من جديد .

وواصل كرافتسوف طريقه ببطء مقطبا وجهه من شدة الصداع .

وانعطف فى الطرقة المقابلة فكاد يصطدم بعلى أوفساد .

— يا لله ، الى أين انت ذاهب ؟ لقد كنت هناك ، ولكنى لم أجد شارعنا ... يا لها من سفينة ضخمة .. يجب أن يضعوا عساكر مرور فى تقاطع الممرات .

— معك حق ... والى اين يفضى هذا السلم ؟

وصعدا على السلم فوجدا أنفسهما على السطح العلوى ، حيث الممرات معروفة اكثر من سابقتها . وذهبا الى سطح الصارى حيث جلسا ، أو بالاحرى اضطجعا على الشيزلونغ .

كانت السفينة تتأرجح وهى تصر . وعلى ضوء مصابيح السفينة كانت تبدو السحب السوداء وهى تسير على ارتفاع منخفض .

وقال على أوفساد :

— سيسقط المطر .

وملأ كرافتسوف رئتيه من نسيم الليل الرطب وحدق فى السحب التى تركض فوق السفينة دون توقف .

وقال لنفسه : «ما هذا الهراء الذى قاله المدعو

فليتشر ؟ ماذا كان يقصد بقوله : أخشى ان اصبح أصفر أثناء النوم ؟ »

وقال على اوفساد :

— أتذكر يا ساشا سؤال ذلك الصحفى السمين ؟ لقد غضب الله على الحفارين فأرسل عليهم العمود الأسود !

وابتسم كرافتسوف اذ تذكر سؤال مراسل « كريستشين سنتشورى » : أليس العمود الأسود عقابا من الله ؟

وتذكر أيضا اجابة توكوناغا الذى طلب — نظرا لعدم قيام أدلة على وجود الآلهة ولضيق الوقت — توجيه أسئلة فى صلب الموضوع .

ومصمص على اوفساد شفتيه أسفا وقال :

— يبدو أنيقا كوزير ، ومع ذلك يقول هذا الكلام... لقد كنت أظنه متنورا .

— الناس تختلف يا على أوفساد... خذ مثلا صاحبك براموليا ... انه دائما يضرع الى الله .

— لا ، انها مجرد عادة لديه . اسمع يا ساشا ... اننى لم أفهم جيدا لماذا تذكر اليابانى هيروشيما ؟

— هيروشيما؟ آه... لقد سأله ذلك الصحفى ... ذو القميص الزاهى ... من « النيويورك بوست» على ما

أظن ... سأله من أين تنبع الطاقة بشكل عام ، أو شيئا من هذا القبيل . فأجاب توكوناغا بأن الطاقة حسب قوانين اينشتاين تساوى حاصل ضرب الكتلة فى مربع سرعة الضوء فى الفراغ ، وبالتالى فان كل جرام من أية مادة يحتوى على طاقة كامنة ، تساوى على ما أظن اكثر من عشرين تريليون سعر حرارى . ومن الممكن أن تنطلق فى أية صورة . وهنا قال ان اليابانيين قد خبروا احدى هذه الصور فى هيروشيما ...

وصمت كرافتسوف ، وعاد فتذكر عبارة فليتشر الغريبة «أخشى أن اصبح أصفر» ... وفجأة أدرك معناها ... فاسود وجهه .

وسمعا صوت باب يفتح ، وعلى يسارهم ظهرت بقعة بيضاوية من الضوء ، وخرج الى السطح بضعة أشخاص وهم يتحدثون بصوت عال ويضحكون ويقدحون الولاعات . واقترب أحدهم من كرافتسوف وعلى أوفساد . كان ذلك هو أولوفيانيكوف .

— أنتما اذن هنا ... اختيار لا بأس به — وألقى بنفسه على شيزلونغ مجاور وتمطى — الشيطان يعلم ... ماذا أبعث الى الجريدة ... كل شىء مبهم ... غامض .

لقد استوقفت ماروزوف بعد جهد ورجوته أن يكتب بضع كلمات لقراء «الازفستيا» ، لكنه رفض ... لم يحن الوقت بعد ... يا الكسندر فيتاليفتش ... هل تعلم شيئا عن نظرية المجال الواحد ؟

— لا أعلم سوى أنها لم توجد بعد . ولماذا تسأل ؟

— لقد أشار اليها ماروزوف عرضا .. يبدو أن له بعض الأراء . اننى أتصور ما هى المغناطيسية ، وبشىء من الجهد الذهنى استطيع أن اتصور المجال الجذبى ، ولكن ما هو المجال الذى نشأ حول العمود الاسود ؟ وما هو الجذب العمودى الفعال ؟

فقال كرافتسوف :

— كل هذا مرتبط بعضه ببعض ، وتنقصنا نظرية تربط جميع نظريات المجالات . انظر مثلا كيف كان فى الماضى .. كان لدينا نظرية الأثير ولا شىء اكثر .. وكم كانت تبدو قوية ثابتة... اننى مؤمن بأنه عما قريب ستظهر نظرية المجال الواحد .

فقال أولوفيانيكوف :

— وأنا أيضا .. والا فهذه فوضى رهيبة .. أتعرف ما الذى يقلق ماروزوف جدا ؟

— ماذا ؟

— الايونوسفير ... يقول ان العمود سيصل قريبا الى الايونوسفير ، وأراد ان يقول شيئا آخر لكنه تبادل النظرات مع توكوناغا وصمت ... ترى ماذا كان يريد ان يقول فى رأيك ؟

ولكن كرافتسوف هز كتفيه ، ثم قال :

— ياله من أمر مدهش ، اننا نعرف بعض المسائل الكونية أفضل من باطن الكوكب الذى نعيش فيه . ان بئرنا أقل من واحد فى المائة من الطريق الى مركز الأرض ، وها نحن قد اصطدمنا بظاهرة مثل هذه... نحن لا نعرف شيئا .. كلا ، لا نعرف شيئا مما يجرى تحت أقدامنا ... — وصمت قليلا ثم أضاف وهو يهم بالقيام — ولكننا سنعرف .. رغم كل شيء سنعرف . وما بئرنا الا بداية الطريق .

— ٢٠ —

استيقظ كرافتسوف على طلقة مدفع مدوية ، فوثب الى النافذة ونظر منها . كانت السماء القاتمة ملبدة بسحب عاصفة . وومض البرق ، وتردد مرة ثانية الدوى المرعد

المتقطع فتجاوب معه الكوب الزجاجى فوق حوض الغسيل وحلقات الستارة المعدنية بأزيز رفيع .

وارتدى كرافتسوف ملابسه على عجل وانطلق راكضا الى سطح الصارى . رأى بجوار جانب السفينة من جهة الطوف حشدا من الناس ، كانوا يتبادلون الحديث بقلق ، ومن حين الى آخر يطغى على كلماتهم دوى الرعد .

فى مثل هذا الوقت عادة كان ضوء الصباح الأزرق يتلألأ فوق المحيط ، ولكنه بدا الآن كما لو كان يلفه ليل حالك . وكان يخيل للناظر أن سحب العالم كلها قد توجهت نحو العمود . وكانت حزم البرق تنقض من بين السحب وتضرب العمود ، والعمود فقط ، والسماء تكاد تنفجر من هذا الدوى المتصاعد .

ياله من منظر خرافى ! كان وميض البرق يضيء سطح المحيط المضطرب فيبدو أسطع من صفرة السماء المدلهمة المنخفضة ، وعند الافق كانت سيوف البرق تخوض مبارزة شيطانية قرب العمود الملتف بالبخار .

وانهمرت سيول المطر .

ولمح كرافتسوف براموليا فشق طريقه نحوه . كان السمين متشبثا بحاجز السفينة ، وشفتاه ترتعشان :

— أوه يا سانت ياغو دى باراميدا .. ايتها العذراء السوداء ...

أما شتام الواقف بجواره صامتا ساكنا فقد استدار نحو كرافتسوف بوجهه الشاحب ، وأومأ برأسه .

وصاح كرافتسوف :

— يا لها من عاصفة رعدية ! لم أر فى حياتى مثلها .

فقال شتام :

— لم ير مثلها أحد أبدا .

لكن دوى الرعد غطى على كلماته .

كانت « فوكوكا » تتأرجح بشدة يمينا ويسارا . وتشبث كرافتسوف بالحاجز وهبط على السلم الى الطرقة ، ودق باب قمرة هويل ، فرد عليه صوت غريب . وفتح كرافتسوف الباب قليلا ، وفى تلك اللحظة مالت السفينة فاندفع داخل القمرة وكاد يطرح اليابانى ذى الرداء الأبيض أرضا .

فدمدم :

— عفوا .

ونظر الى هويل .

كان راقدا على ظهره ، عيناه مغمضتان وذقنه بارزة .

ولمس الطبيب ذراع كرافتسوف وقال بضع كلمات غير مفهومة ، ولكن كرافتسوف كان قد أدرك بنفسه أنه يجب عليه أن ينصرف كيلا يسبب ازعاجا ، فأومأ برأسه وخرج واغلق الباب خلفه . ورن شىء ما معدنى خلف الباب .

وكانت نورما همبتون قادمة على عجل فى الطرقة ، كان شعرها مصففا أيضا على عجل ، ولم يكن على شفتيها أثر لطلاء .

وقال لها كرافتسوف :

— لا تدخلى ، الطبيب هناك .

لكنها لم ترد ولم تتوقف ، بل دخلت القمرة دون أن تدق الباب .

و وقف كرافتسوف يتنصت قليلا . كانت العاصفة الرعدية تدوى دويا مكتوما ، ولم يصدر من القمرة صوت . ودارت فى رأس كرافتسوف فكرة مقلقة « يجب عمل شىء ما ... يجب عمل شىء ما ... »

وانطلق راكضا . دلف الى صالون ساطع حيث كانت مجموعة من طاقم السفينة اليابانى تتناول الافطار ، ولم يكن ماروزوف هناك ، ولا توكوناغا كذلك .

— اين الأكاديمي ماروزوف ؟

فأخبره أحد البحارة أنه ربما كان فى غرفة الرادار .

وصعد كرافتسوف على سلم شديد الانحدار الى الجسر . كان المطر يجلده على ظهر سترته ورأسه العارى.

وتوقف كرافتسوف للحظة ، فقد بدا له منظر العاصفة من هنا اكثر خرافية . كان المحيط يصخب فى جنون هناك فى الاسفل ، وخيوط البرق المتكسرة ترسم خطوطا على صفحة السماء الليلكية الداكنة ، والبصر يعشى من رقص الضوء والظلام ، وانتشرت رائحة غاز الازون ، وماد الجسر تحت الأقدام .

كانت خيوط المطر تنساب على زجاج غرفة اجهزة الرادار ، ودفع كرافتسوف الباب بعنف ودخل .

كان هناك اثنان من اليابانيين فى زى البحارة واخصائى جهاز الجاذبية المعروف يورا ، وماروزوف، يعملون وهم محشورون بين لوحات الاجهزة الرمادية . وكانت شاشة الرادار تومض ببريق مضيء متذبذب وتزحف فوقها نقطة مضيئة . ونظر ماروزوف الى كرافتسوف نظرة ثاقبة وقال :

— آه ، الرفيق كرافتسوف ! ماذا هناك ؟

فقال كرافتسوف وهو يمسح بيده قطرات المطر من فوق جبينه :

— ماكفرسون بحالة سيئة يا فيكتور قسطنطينوفتش. فهذه العاصفة وهذا التأرجح ...

— ولكن هناك طبيبا يسهر عليه على حد علمى .

— نعم .. ولكن .. ألا يمكن الابتعاد بالسفينة قليلا ؟ ... خارج منطقة العاصفة ...

والقى ماروزوف بالقلم على الطاولة ونهض .

وظل حوالى دقيقة يتطلع الى المسح الذى يقوم به الرادار فقال كرافتسوف :

— الهواء مشبع بالكهرباء تماما .

فسأله ماروزوف بحدة :

— ماذا ، هل أنت طبيب ؟

— لا طبعا ، ولكن احكم بنفسك ...

وحك ماروزوف خده ، ثم رفع سماعة التليفون وأدار القرص .

— هذه ... مسز همبتون ؟ أنا ماروزوف . الطبيب لديكم ؟ اطلبى منه ... حسنا اسأليه عن حالة ماكفرسون وظل ماروزوف يسمع بعض الوقت مقطبا جبينه وخده يرتعش — اشكرك .

واعاد السماعة الى مكانها .

وقال ماروزوف وهو يتناول القلم :

— حسنا ياكرافتسوف ، يبدو أنك على حق. ستتخذ الاجراءات اللازمة ، فلا تقلق .

— ٢١ —

ابتعدت « فوكوكا — مارو » عن مكانها السابق والقت مراسيها . وواصلت العاصفة عويلها فوق المحيط ، واحاطت أسهم البرق بالعمود كالحلقة وهى تضربه من جميع الاتجاهات . وقد رأى أحدهم برقا كرويا ، فقد شاهد كتلة مستديرة من الطاقة تقذف الشرر محلقة فوق الامواج وهى تعيد رسم خطوطها .

وفى حوالى الساعة العاشرة انطلق زورق من « فوكوكا » متوجها نحو الطوف وقد استقلته مجموعة من المتطوعين كان من بينهم تشولكوف ، أما قائد المجموعة فكان يورا ، وقد تلقى من ماروزوف تعليمات مفصلة عن مكان وكيفية وضع الأجهزة .

وقال على اوفساد :

— هذا خطر ، ألا يمكن الانتظار حتى تنتهى العاصفة الرعدية ؟

ولكن أولوفيانيكوف العليم بكل شىء أوضح له أنه لاجدوى من الانتظار ، فالعاصفة لن تنتهى سريعا ، وربما امتدت لفترة طويلة .

وصعد المتطوعون الى الطوف وهم يرتدون البزات الواقية فوضعوا الاجهزة الثابتة المزودة بأجهزة ارسال أوتوماتيكية . الآن أصبحت أسنان الاجهزة الكاتبة فى غرفة الرادار على سطح « فوكوكا — مارو » تسجل على اشرطة الرسم خطوطا مرتعشة مختلفة الألوان ، وعكفت الآلات الحاسبة على معالجة المعلومات الواردة ، وعقد العلماء اجتماعات مستمرة .

ولم يسمح للصحفيين بدخول غرفة الاجهزة ، وكان هؤلاء يحسون بأن ثمة شيئا كبيرا يحدث ، ويترقبون خبرا مثيرا لم يسبق له مثيل . وقد حاول بعضهم أن يبعث الى صحيفته بوصف للعاصفة الرعدية مضيفا اليه شيئا من عندياته ، ولكن غرفة اللاسلكى لم تكن ترسل البرقيات الا بعد توقيعها من شتام ، الذى كان عنيدا لا يرحم ، فكان يشطب دون تردد كل ماله صلة بالفرضيات العلمية ،

وبالتالى فلم يكن يبقى من الاخبار المرسلة الا سطور هزيلة .

وقام توكوناغا وماروزوف عدة مرات باجراء مباحثات باللاسلكى مع المركز الجيوفيزيائى الدولى . وذات مرة تعقب الصحفى النشيط لاغرانج ، مراسل « البارى سوار » الاكاديميين أثناء عودتهما من غرفة اللاسلكى ، وسار خلفهما فى الطرقة خفية وقد أدار جهاز تسجيله الصغير وتمكن من تسجيل جزء من حديثهما .

ولم يكن ثمة مجال حتى لمجرد التفكير فى ارسال هذا الشريط الثمين الى الصحيفة ، فان شتام كان سيصادره بكل بساطة . وظل لاغرانج متماسكا فترة طويلة وهو لا يريد التفريط فى صيده الثمين ، ولكنه أخيرا لم يطق صبرا . فجمع زملاء الصحفيين فى قاعة المؤتمرات وطلب منهم أن يلزموا الهدوء ، ثم أدار الجهاز .

وتردد صوت الامواج المعهود ، ثم حديث خافت باللغة الانجليزية :

— ... السرعة تزداد .

— نعم ، انه يسبقنا ولا يترك لنا متسعا من الوقت .

هل سمعت تقرير ملاح السفينة ؟ يقول ان البوصلة فسدت وخرجت من دائرة خط الزوال .

— الموقف معقد للغاية . ومع ذلك فافتراضك بشأن المغناطيس ...

— صدقنى كم وددت لو اكون مخطئا . ولكن مع هذا التغير فى التركيب ... اعذرنى يا ماساى — سان . ماذا تريد يا حضرة المراسل ؟

وتردد صوت لاغرانج بلهجته السريعة :

— أنا ؟ أوه يا « شير متر » * ، لا شىء مطلقا .. اننى فقط ...

— الباقى غير طريف ...

قال لاغرانج وهو يغلق الجهاز وسط ضحك الجميع .

وقال امريكى قوى الجسم يرتدى قميصا من قمصان هاواى :

— يعنى هذا النص بالاغرانج .

— وما حاجتك اليه يا جيكبس ؟ أو تظن أن جاذبيتك ستجعل قلب هذا الوحش النمسوى يرق ؟

* يا استاذى العزيز (بالفرنسية) .

— جريدتى لن تبخل بأية تكاليف .

— بخصوص هذا فأنت مخطئ يا جيكبس — صاح لاغرانج وهو يضرب على فخذه — ان شتام ليس أقل من روبسبيير نزاهة ومبدأية ! انا لا أفقه شيئا فى العلم ، ولكنى افهم فى الرجال ، كن على ثقة ! يمكنك أن تقطع شتام هذا بمنشار ثلم ، ولكنه مع ذلك ...

وجذب أحدهم لاغرانج من كمه .

كان شتام واقفا فى باب القاعة منتصب القامة ووجهه لاينم عن أى تعبير .

وقال بصوت مرتعش :

— اننى فخور أيها السادة بأنكم لا تشككون فى نزاهتى وأمانتى للوظيفة .

وتقدم فى عظمة نحو الطاولة ووضع أمامه حافظة ، وتفحص الصحفيين بنظرة صارمة .

وقال وهو يصلح وضع نظارته بعد ان سكت الجميع :

— ايها السادة .. اننى مكلف بأن أذيع عليكم هذا النبأ العاجل . نظرا لوضعنا الخطير فقد تقرر أن تبلغوا صحفكم على الفور . سيوزع عليكم نص الخبر الذى اعدته هيئة رئاسة ال س. ج . د . ونرجو منكم تبليغه

دون تشويه أو اضافات . وقد أرسلنا صورة منه باللاسلكى الى هيئة الأمم المتحدة وبعض المنظمات الدولية الأخرى .

ودوت أصوات :

— ماذا حدث ؟

— اقرأ الخبر !

فقال شتام :

— لقد جئت الى هنا من أجل ذلك .

وبدأ يعلق على الخبر وهو يزن كل كلمة :

— تدل القياسات الرادارية على أن سرعة العمود تزداد بشدة . وقد وصلت قمته الى ارتفاع ما يزيد على ثمانين كيلومترا فوق سطح المحيط ، وتميل نحو الغرب نتيجة لدوران الأرض . ولاشك أنكم تعرفون أن الهواء على سطح الارض غير موصل للتيار الكهربائى تقريبا . ولكن على ارتفاع ثمانين كيلومترا تزداد درجة توصيل الهواء للتيار بشدة وتعادل درجة توصيل مياه البحر له . ولهذا ، فان العمود الاسود ، بعد وصوله الى الارتفاع المذكور ، خاصة وانه فيما يبدو ذو درجة توصيل عالية للغاية تكاد تقترب من درجة التوصيل العليا ... لهذا فقد أثار العمود عاصفة رعدية غير عادية ولم

يسبق لها مثيل ، أى أنه أثار شحنات جبارة من كهرباء المحيط الجوى .

وتوقف شتام قليلا ليسترد أنفاسه بعد هذه الجملة الطويلة . وكان صوت العاصفة المكتوم مسموعا فى هذه اللحظة . ثم أضاف :

— والآن سأحدثكم عن المهم . فى المساء سيصل العمود الى طبقات المحيط الجوى المؤينة . والايونو سفير — كما لا شك تعلمون — مشحون بالكهرباء . وتبلغ قوته بالنسبة لسطح الارض حوالى مائتى ألف فولت فى المتوسط . وتدل المراقبة على أنه قد ظهرت فى العمود تيارات كهربائية موصلة ، وأنه قد نشأ مجال للعمود خاص به ومتميز للغاية . وسوف يزداد هذا المجال بشكل حاد عندما يدخل العمود الايونوسفير وينشأ بينهما تفاعل متميز . وهكذا ستنشأ دائرة قصر بين الارض والايونوسفير .

كان الصحفيون يتوقعون فى توتر شيئا مثيرا ، فتنهدوا بخيبة أمل ، فها هم يسمعون مرة أخرى هذه الآراء الغامضة بشأن المجالات .

وواصل شتام حديثه :

وفى الوقت نفسه لن تفقد الارض شحنتها ، وذلك لان التدفق المستمر للجزيئات المشحونة القادمة من الفضاء لن يتوقف بالطبع . فكثير من العلماء يعتقدون أن المجال المغناطيسى للأرض هو مصيدة ضخمة لهذه الجزيئات . ولكن خصائص هذه المصيدة المغناطيسية ستتغير كثيرا من جراء دائرة القصر المباشرة . وتراودنا مخاوف خطيرة أيها السادة بشأن مركب هذه الظواهر — وبالدرجة الاولى طبيعة مجال العمود التى لم تتضح بعد — ونخشى أن يؤدى هذا المركب الى تغييرات حاسمة فى تركيب المجال المغناطيسى للارض ... وتدل بعض الشواهد على أن هذا يمكن أن ... اننا نخشى أن يؤدى ذلك الى فقدان جميع المغناطيسات قدرتها المغناطيسية .

وصمت شتام .

فتردد صوت جيكبس الهادئ :

— ولماذا تفقد قدرتها المغناطيسية ؟

وصاح أولوفيانيكوف :

— المغناطيس يفقد قدرته فى حالة التسخين أو الطرق ، ولكن لن يحدث هذا أو ذاك فى حالتنا هذه ...

قال شتام وقد بدا كما لو كان مضطربا قليلا :

— نعم ، يا سادة ، فى حالة الطرق أو التسخين الى ما فوق نقطة كورى . ولكن تغيير تركيب المجال المغناطيسى للارض — حسب بعض المعلومات — سيسبب تأثيرا على المغناطيس مثل الذى ينتج عن الطرق الشديد أو التسخين. واذا أردنا الدقة فانه من بين مركب هذه الظواهر الذى يؤثر على الحالة المغناطيسية للأجسام ... وعلى العمود.. لقد ابتعدت قليلا عن الهدف من حديثى اليكم — وسعل شتام قليلا واصلح من وضع نظارته — وهكذا ، اذا صحت مخاوفنا فستفقد المغناطيسات قدرتها ... جميع أنواع المغناطيس الموجودة على كوكبنا . اعتقد انكم تفهمون معنى ذلك يا سادة .. هذا معناه أنه لن يكون هناك تيار كهربائى ، فلن ينتجه أى مولد .

خيم صمت ثقيل على القاعة بعض الوقت ، ثم انفجر الجمهور المشدوه فى صيحات :

— كيف نعيش بدون كهرباء ؟

— متى تنتهون ايها العلماء من تجاربكم الجهنمية ؟

— الا تستطيعون وقف هذا العمود الشيطانى ؟

وصمد شتام بثبات حتى هدأت العاصفة ، وقال عندما خفتت قليلا حدة المشاعر الملتهبة :

— ايها السادة ... ان علماء العالم كله يبحثون عن وسيلة لايقاف العمود ، ولكنه سبقنا . ومن اللازم دراسة الظاهرة دراسة دقيقة ، وهو مانفعله . وسيجد العلماء دون شك مخرجا من المأزق ، ولكنى لا استطيع أن اعرف متى يجدونه ، وربما تحتم علينا أن نعيش دون الآلات الكهرومغناطيسية شهرا أو ربما اكثر . وبالطبع سيكون علينا أن نستخدم المحركات البخارية على نطاق واسع . ولكنى اكرر لكم : هذا شيء مؤقت . ودعونى أؤكد لكم أن العلماء سيقضون على دائرة القصر ويعيدون الأمور الى نصابها . ونحن من جانبنا نرجوكم المحافظة على الهدوء والسكينة وأن تدعوا قراءكم الى الشيء نفسه .

وانقض الصحفيون على الطاولة ، وحصل كل منهم على نسخة من البيان الرسمى .

— ٢٢ —

اشتدت العاصفة فى المساء ، وكان المطر يسقط مدرارا ، ومرق فوق « فوكوكا — مارو » عدة مرات برق كروى ، وكأنه يتفحص السفينة ، ثم يواصل مسيره نحو العمود الأسود .

واضطربت نفس كرافتسوف من وميض البرق المستمر ، والقلق ، وقرب وقوع أحداث جسام غير مفهومة . فأخذه على أوفساد الى قمرته وقدّم له الشاى ، وأخذ يسأ له عن الايونوسفير . وكان اولوفيانيكوف جالسا معهما يرقبهما بنظراته .

وقال على اوفساد وهو يرفع طبق الفنجان على أطراف اصابعه :

— اسمع ... سيعمل محرك البنزين ؟ أ ليس كذلك ؟ انه ليس بحاجة الى التيار الكهربائى .

فقال كرافتسوف :

— والاشتعال ؟ كيف يعمل دون الشرارة الكهربائية ؟

فرشف على اوفساد الشاى بتفكير وقضم قطعة سكر ، ثم قال فجأة :

— ينبغى أن أرحل الى باكو ... اذا انقطع التيار فلابد من اخراج الكيروسين بكميات كبيرة — ونهض فأدار الزر فاشتعل المصباح بسهولة فقال : — انه يشتعل ... لا بد أن اليابانى هو الذى ادعى أن الكهرباء ستختفى ، فلماذا يصغى ماروزوف اليه ؟

— ماروزوف لن يخوفنا عبثا .

— يا بنى ، كل شخص معرض للخطأ .

وأخذ على أوفساد يرشف الشاى من الطبق الصغير ويحكى على مهل عن الجيولوجى نوفروزوف الذى لم يخطئ مرة واحدة . ولكن حدث ذات مرة أن البئر التى اختار مكانها نوفروزوف نفسه ، ووصل الحفر فيها الى عمق ألفى متر ، ابتلعتها الأرض فجأة .

وسأ ل اولوفيانيكوف وهو يخرج المفكرة من جيبه :

— ومتى كان ذلك ؟

— منذ زمن بعيد ، فى عام ٤٩ . لا تكتب شيئا ، فقد كتبت جريدتنا « البرج » تقول : « الاوسطى على اوفساد يقف على البرج وينقذ العضو الدوار والرافعة والمضخة » . لقد انقذت حقا العضو الدوار والرافعة ، لكنى لم اتمكن من انقاذ المضخة . كانت مضخة جيدة ، من مصنع « كراسنى مولوت » . وبعد ذلك جرينا جميعا مبتعدين ، فقد غاص البرج فى الأرض ... وأصبح مكانه الآن بحيرة .

— وماذا قال الجيولوجيون ؟

— كل قال رأيا .. الطبقات .. التركيب. نحن على الأرض ... أما ما تحت الأرض فلانعرفه .

كان كرافتسوف يصغى شارد الذهن ، فقد كان يعرف جيدا هذه الحادثة التى وقعت فى « شيروان نفط » وأثارت ضجة كبيرة . وكف عن تناول الشاى اذ لم يقو على بلعه .

ونهض متوجها الى قمرته ، وقال :

— سأذهب لاكتب بعض الرسائل .

وعندما مر أمام قمرة هويل توقف مترددا ، ثم دق الباب برفق ، فانفتح على الفور وظهرت نورما همبتون على العتبة وقد وضعت اصبعها على شفتيها ، محذرة ، وهزت رأسها .

وجاء صوت هويل ضعيفا :

— من هناك ؟

فقالت نورما :

— ألست نائما ؟ حسنا ، تفضل يا مستر كرافتسوف .

— كيف حالك يا هويل الآن ؟

وجلس كرافتسوف وهو يتفحص وجه الاسكتلندى بقلق . كانت القمرة شبه مظلمة ، وليس هنالك الا ضوء مصباح المكتب المغطى بصحيفة .

— لا بأس ، أحسن .. اشعل الضوء .

واشتعل المصباح ، وعلى ضوئه الاصفر خيل لكرافتسوف

أن وجه هويل الجاف غريب عليه . ربما لأن خديه غطتهما لحية بيضاء كثة . وظهر فى عينيه أيضا شىء ما جديد ، واختفت منهما النظرة الساخرة . وأحس كرافتسوف فجأة بدفقة من الرقة نحو هويل ، فمد يده ووضع راحته على ذراعه .

وقال هويل :

— هات ما عندك من أخبار يافتى .

— أخبار ؟ آه ... نعم ، هناك أخبار ... ولكنها ليست سعيدة تماما ...

وطفق يروى له .

فدهشت نورما همبتون وقالت :

— لن يكون هناك تيار كهربائى ؟ هل فهمت شتام جيدا ؟

فضحك كرافتسوف :

— اننى انقل اليكم ماسمعته بالحرف الواحد .. بالمناسبة يا مسزهمبتون ... انك لم تحصلى على نص الخبر ... أوه ، لم أفطن الى ذلك والا لاحضرت لك نسخة .. اعتقد انه لا تزال هناك نسخ فى المركز الصحفى ...

فقالت نورما :
— لاتهتم بذلك .
وفكر كرافتسوف وهو ينظر الى وجهها المتعب :
« انها ليست شابة أبدا ، أبدا » .
وقال هويل :
— اذهبى .. انه عملك .
واضاف كرافتسوف :
— واستريحى كذلك .. سأجلس أنا مع هويل .
فنهضت نورما فى تردد :
— لا بأس ... اذا كنت ستبقى معه ... هاهى الزجاجة يا مستر كرافتسوف ، خذ منها عشرين قطرة واسقها له فى تمام التاسعة .
وخرجت .
وقال هويل بعد برهة :
— دائرة قصر ... هكذا اذن .
— نعم ، قفل ضخم يشد الايونوسفير والأرض .. شىء لا يمكن تصوره .
فقال هويل :
— كنت واثقا أنها مجرد حالة شذوذ مغناطيسى ، ولذا فقد

طلبت ارسالى الى الطوف للتأكد من افتراضى ، وعلى كل فليس افتراضى أنا ، فقد قاله آنذاك ، منذ ست سنوات غيلار ونواريه ...
— وكومارنيتسكى .. — أضاف كرافتسوف .
ودق الباب ، ثم دخل الوصيف اليابانى فى رفق ، ووضع على الطاولة شمعة فى طبق أسود .
فسأل كرافتسوف :
— ولم هذا ؟
— أوامر القبطان يا سيدى .
وأغلق الوصيف الباب خلفه دون صوت .
وهز كرافتسوف رأسه :
— شموع .. مصابيح كيروسين .. الى اين وصلنا ...
— اذهب وقل لهم يا فتى : القنبلة الذرية .. لن يؤثر فى العمود شىء سوى القنبلة الذرية .
— دعك من المزاح يا هويل .
— اننى لا أمزح .. لاحلّ سوى هذا .
وصمتا .. ونظر كرافتسوف الى الساعة ثم صب عشرين قطرة من الزجاجة فى كوب ماء وقدمه للاسكتلندى .
وفجأة سأله هويل :

ـ هل لديك والدان ؟

ـ عندى أمى .. ولا اذكر أبى فقد مات عام ٤٨ عندما كنت فى الثالثة . كان طيار اختبار .

ـ هل سقط بالطائرة ؟

ـ نعم ، كانت طائرة مقاتلة نفاثة .

وصمت هويل قليلا . ثم سأل سؤالا آخر ، غير متوقع أيضا :

ـ لماذا تدرس لغة الاسبرانتو ؟

ـ هكذا ، شيء طريف ـ وابتسم كرافتسوف ـ اعتقد أنه من الجميل أن يتعلم الناس جميعا لغة عالمية واحدة . اذن لكان من السهل التخاطب .

ـ وهل أنت تريد التخاطب كضرورة ؟

ـ لست أدرى ماذا أقول لك يا هويل .. أن يتخاطب الناس .. ما الضرر فى ذلك ؟

ـ أنا لا أقول أنه مضر .. انه فقط بلا فائدة .

ـ لا أريد الآن مجادلتك .. عد الى صحتك ، عندئذ نتجادل .

ـ فيك شيء ما يثير أعصابى .

ونظر كرافتسوف فى عينى هويل باهتمام ، ثم قرر أن يحول الأمر الى مزحة :

ربما لاننى أسرفت فى تناول العصيدة اثناء الافطار ...

وأخذ ضوء المصباح يشحب قليلا قليلا حتى انطفأ .

وقال كرافتسوف وهو يبحث عن الكبريت فى جيبه :

ـ بدأنا ... وداعا ياكهرباء !

وأشعل الكبريت ثم اوقد الشمعة .

ـ ٢٣ ـ

لم تنقطع الكهرباء دفعة واحدة فى جميع أنحاء العالم . ففى البداية بطل مفعول المغناطيس فى منطقة العمود الاسود ، ثم امتد ذلك ببطء ودون تناسق الى بقاع الكرة الارضية الأخرى .

واستمرت الكهرومغناطيسية أطول مدة فى بقعة صغيرة وسط المحيط الأطلسى وهى جزيرة عيد « الصعود » التى تعتبر من حيث موقعها الجغرافى القطب المقابل لمنطقة العمود من الجهة الأخرى فى الكرة الأرضية . فلم

ينقطع التيار الكهربائى هناك الا بعد أحد عشر يوما من انقطاعه فى الجهات الأخرى .

وبدا أن الحياة على الكوكب قد قفزت قفزة جبارة الى الوراء بمقدار قرن من الزمان .

وعبثا كانت مياه الفولغا والنيل وكولورادو ريفر تدير عجلات المحطات الكهربائية وهى تسقط من أعالى السدود ، فقد كانت دوارات المولدات الكهربائية تدور دون نتيجة ، فلم تكن ملفاتها تقطع خطوط الجذب المغناطيسية وبالتالى لا تنتج القوة الكهربائية المحركة .

وعبثا كانت غلايات المحطات الذرية تسخن الماء ... فقد كان البخار أيضا يدير دون طائل الاعضاء الدوارة للمولدات .

وعبثا كانت أسلاك نقل الكهرباء تلف العالم بشبكة كثيفة ، وعبثا امتدت الاسلاك الى ورش المصانع والى المنازل والشقق ، فلم يكن يسرى عبرها تيار الاليكترونات الباعث للحياة حاملا الى الناس النور والدفء والطاقة .

وبالطبع لم يختف التيار الكهربائى تماما ، بل كانت تنتجه العناصر الكيميائية كبطاريات المصابيح

اليدوية . وكانت تنتجه بطاريات المركم حتى فرغت شحناتها ولم يعد من الممكن شحنها بالتيار من جديد . وكانت تنتجه ساكنات الاحتكاك الكهروستاتيكى والبطاريات الشمسية والحرارية الكهربية . وقد حاولوا توصيلها بملفات تنشيط المولدات ، ولكن التيار سرى فى « البوبينات » عبثا ، دون ان يثير مجالا مغناطيسيا صناعيا .

وتوقفت الصناعة الجبارة فى الكوكب ، التى كانت تعتمد على خاصية الكهرومغناطيسية فى تحريكها ، ولف الظلام شوارع المدن مساء ، وتوقفت عربات الترولى وآلات الخراطة والمصاعد فى الدور المتعددة الطوابق ، وماكينات الغسيل وآلات التسجيل والروافع ، وأصبحت محركات الاحتراق الداخلى دون اشتعال ، وصمتت الاذاعة ومحطات التليفون .

وأصبح الناس منعزلين عن بعضهم البعض كما كانوا منذ قرن مضى .

وتعقدت الملاحة ، فقد كانت مؤشرات البوصلات تدور تحت اغطيتها الزجاجة دون معنى ولا تبين للملاحين الاتجاه الصحيح .

ولكن هذه الكارثة لم تؤثر على الناس فقط ، بل ان الاسماك ضلت دروبها السحرية فى التيارات الكهربائية داخل تيارات المحيطات ، فكانت تسير كيفما اتفق .

لم تستطع الطيور المهاجرة أن تهتدى الى الطرق المألوفة .

وتحرك الشفق القطبى نحو خط الاستواء وثبت فوقه مطوقا الكرة الارضية بحلقة من الضياء المرتعش المتقلب الألوان .

وترددت شائعات رهيبة حول ازدياد تدفق الاشعة الكونية الأولية الى الطبقات الدنيا من المحيط الجوى التى أخذت خواصها الوقائية تتغير بشكل ملحوظ ، فهجر سكان المناطق الجبلية ديارهم وهبطوا الى الوديان ، وسرى بين الناس نبأ فظيع حول مصرع العاملين فى أحد المراصد العالية فى جبال بامير .

وتكونت لجنة العمود الأسود فى هيئة الأمم المتحدة ، واشترك فيها اكبر علماء العالم . وعندما كانت هذه اللجنة تبحث بكل قواها عن وسيلة لتدمير العمود الأسود ، كان على العالم أن يتكيف للحياة فى هذه الظروف الجديدة .

ولكن هذا العالم لم يكن كلا واحدا .

ففى البلدان الاشتراكية أمكن بفضل النظام القائم على التخطيط تنفيذ عملية اجلاء سكان المناطق الجبلية وتجميد الصناعات الكهربائية مؤقتا وتحويل المؤسسات من الطاقة الكهربائية الى البخارية . وأخذ عمال الصناعات الكهربائية يتعلمون بسرعة أنواع الانتاج الأخرى التى كانت حاليا بحاجة الى أيد عاملة كثيرة مؤقتا .

أما العالم الرأسمالى فقد اجتاحته الحمى ، ونشب صراع ضار بين الاحتكارات حول طلبيات الحكومات ، وارتفعت قيمة أسهم شركات النفط والفحم ارتفاعا خياليا ، بينما فقدت اسهم شركات الكهرباء قيمتها ، وأقبل على شرائها من كان واثقا من التغلب على دائرة القصر . وساد الفزع البورصة المالية واجتاحت العالم الرأسمالى عمليات سمسرة هائلة ، وارتفعت الاسعار وازدادت الضرائب .

وامتلأت الصحف بعناوين ضخمة تنعى « أيام العالم الاخيرة » ، ولكن كثيرا ما كانت تختفى وراءها مطامع الاحتكارات الكبيرة . وعقدت شركة النقل عبر المحيط الأطلسى صفقة مع احتكار للصحف ، فانتشرت فى

أمريكا شائعات تقول بأن جزيرة « عيد الصعود » ستكون آخر منطقة تصلها الاشعة الكونية ، فسارع الأغنياء الى هذه الجزيرة الصغيرة الحارة التى تكاد تخلو من الماء والبارزة من أعماق المحيط الاطلسى . وتقاطر المهاجرون الأغنياء يوميا على ظهور سفنهم الخاصة الى مدينة جورج تاون ، المكان الوحيد الاهل فى الجزيرة ، والذى كان يعيش فيه حوالى مائتى شخص يعملون فى خدمة الميناء . وكان الوافدون يحملون معهم المؤن ومواد البناء والمياه ، ويدفعون مبالغ خيالية مقابل كل متر مربع من الأرض الصخرية تحت سفح الجبل . وما مر وقت قليل حتى لم يعد هناك قطعة أرض سكنية واحدة خالية ، وارتفعت الأسعار فوصلت أرقاما فلكية ، ونشبت فى الجزيرة صدامات دموية .

وبعثت الحكومة البريطانية التى كانت تملك هذه الجزيرة بمذكرة احتجاج شديد الى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . لكن واشنطن رفضت المذكرة وأشارت فى ردها الى أن الجزيرة قد استولى عليها أشخاص من غير المسؤولين لاتتحمل الحكومة الامريكية أية مسؤولية عن تصرفاتهم .

واتجهت سفن الأسطول الحربى البريطانى الى جزيرة « عيد الصعود » وجزيرة « القديسة هيلينا » المجاورة ، التى تقاطرت عليها أيضا جموع الوافدين .

وكانت جماهير من الناس المرسلى الذقون الذين لم يتعودوا على استخدام أدوات الحلاقة غير الكهربائية تطوف بساحات المدن هاتفة :

— هذه نهاية العالم !

وترد عليها جموع أخرى من المتدينين :

— انتظروا هبوط جنود الرب !

وصرخ أصحاب الحوانيت المستعدين للمذابح :

— انظروا ماذا فعل بنا العلماء ! الموت للعلماء !

وجاءت الى مدينة برينستون بولاية نيوجرسى سرية كاملة من الشبان المسلحين على خيول يغطيها تراب الطرق الجنوبية . وانتشروا فى الحدائق المنسقة وشنوا هجوما على مبنى الجامعة الرئيسى ، وضربوا من قابلهم من الطلبة والمدرسين بوحشية ، وقتلوا منهم اثنين كانا قد أبديا مقاومة ضارية . واقتحم هؤلاء المشاغبون مختبرات الجامعة وحطموا الأدوات تحطيما تاما وكسروا الاجهزة وقلبوا الطاولات .

وكانوا يصرخون :

ـــ أين كان يعمل المجرم اينشتاين ؟ اشنقوا الاساتذة !

وانطلقوا وهم يتصايحون نحو مساكن الاساتذة لتدميرها . وتمترست مجموعة من الطلبة والمدرسين فى أحد المساكن وردوا المهاجمين على اعقابهم بنيران المسدسات . وظلت الطلقات تدوى حتى ساعة متأخرة من الليل ، والمدافعون يصدون الهجوم تلو الهجوم حتى نفدت ذخيرتهم ، ومع ذلك لم يستسلم هؤلاء الشجعان ، والتحموا مع المجرمين فى معركة بالسلاح الأبيض . وسقطوا الواحد تلو الآخر وقد مزق الرصاص صدورهم . وعندما وصلت الشرطة كان المبنى يشتعل كمشعل ملتهب ، ويقذف بالشرر فى سماء شهر نوفمبر القاتمة . وأطلق المجرمون النار على الشرطة ، وجاءت التعزيزات لكلا الجانبين ، ثم أرسلت الحكومة الفدرالية قواتها الى برنستون . ودارت حرب حقيقية فى برنستون لمدة ستة أيام ... ستة أيام دامية .

وانهالت اللعنات على رؤوس العلماء ، وفى الوقت نفسه كان الأمل كله معقودا فيهم ، فهم وحدهم القادرون على التصدى للكارثة .

ثم زال ذهول الأيام الأولى ، وبدأ العالم يتكيف بكل قواه مع الظروف الجديدة . وعادت المواصلات الى استخدام مراجل البخار . وجرّت القاطرات البخارية العربات المضاءة بمصابيح غاز الاسيتيلين ، وتحركت السفن البخارية من الموانئ ، وظهرت أنابيب التخاطب والبريد الهوائى . وكان لابد من مضاعفة مكاتب البريد عشرات المرات ، وحلّت بطاقات البريد محل التليفونات .

وطرقت حوافر الخيول ، وقد شدت الى عربات النقل أو سيارات الركوب شوارع المدن . وظهرت تركيبات عجيبة ، مثل محركات الديزل ذات التشغيل البخارى .

وبعد أسبوعين ذاع فى العالم كله اسما طالبين بالسنة النهائية بمعهد باومن التكنيكى بموسكو وهما ليونيد موسلاكوف ويورى كرامر ، اللذان اخترعا جهازا خاصا يحل محل جهاز الاشعال الكهربائى فى محركات الاحتراق الداخلى . وكان الاختراع بسيطا لدرجة العبقرية ، فقد ركب الطالبان فى هيكل شمعة الاحتراق حلقة قداحة مسننة ومحورا من مادة نارية (كحجر الولاعة) بجهاز تغذية صغير . وكانت ساق الدفع لعمود التوزيع تشد نابضا فتحتك الحلقة المسننة بالمحور النارى وتنتج

شرارة . وباختصار كان هذا الجهاز ولاعة عادية ، اطلق عليه اسم : ولاعة موسلاكوف وكرامر . وبفضلها عادت الى الحياة جحافل السيارات واكتسبت شوارع المدن طابعها السابق .

وازداد استخراج الفحم والنفط على وجه السرعة ، وبدأ انتاج جبار لمصابيح الكيروسين والشموع .

أما فيما يخص الصحف ، فقد ظلت تصدر دون توقف ، كل ما هنالك أنها كانت تطبع على ضوء مصابيح الكيروسين أو الاسيتيلين وتدير مطابعها آلات بخارية . وكان من النادر أن تخلو الصفحة الأولى من أية جريدة من صورة للعمود الأسود الغامض البارز وسط المحيط ، متلفعا بالضباب ...

— ٢٤ —

« الآكاديمي ماروزوف يقول : سنقضي على دائرة القصر » (« الازفستيا ») .

« لم يحدث أن ارتفعت قيمة اسهم الفحم بهذه الصورة » (« وول ستريت جورنال ») .

« تجرى فوق جزيرة « القديسة هيلينا » أعمال بناء جبارة ، ويقال ان قبر نابليون قد أزيل وتبنى محله فيللا لأسرة روكفلر الأصغر . وتعد لندن مذكرة احتجاج جديدة لتقديمها الى واشنطون ، وقد أرسل الاسطول البريطاني الثالث لحماية جزر تريستان داكونيا » (« ديلى تليغراف ») .

« عمال تكرير النفط يقولون : سنتعدى أرقام الخطة لانتاج أنواع كيروسين الاضاءة » (« باكينسكى رابوتشى ») .

« يجب أن تعاد شركات الفحم المؤممة الى اصحابها الشرعيين ... هذا هو الطريق الوحيد لانقاذ بريطانيا » (« تايمز ») .

« لن تمر الفاشية ! برنستون لن تتكرر » (« ووكر ») .

« أعظم اكتشاف مثير حدث فى العالم منذ انتاج الجوارب النسائية ذات الكعب الأسود عام ١٩٤٩ بواسطة شركة « سانسون وهوجرى ميليز » من تصميم فنانى فيلادلفيا بلى وسبارجن . سارعوا الى شراء الجوارب النسائية الجديدة ماركة « العمود الأسود » ! (« فيلادلفيا نيوز ») .

« فى هذا الشتاء سيستدفئ أهل باريس بنار تفاؤلهم الذى لاينضب » (« فيغارو ») .

« تجرى على ظهر « فوكوكا ــ مارو » اجتماعات مستمرة بينما وصل العمود الاسود الى الفضاء الكونى » (« بوربا ») .

« ربات البيوت تهتفن : اعطونا الكهرباء ! » (« فور يو ومن ») .

« لا ينبغى أن يقلل ارتفاع اسعار الشموع من الحماس الدينى للمؤمنين » (« أوبسرفاتورى رومانو ») .

« لم تتوجه فى هذا العام اية بعثة الى جبال هملايا للبحث عن انسان الثلوج . وجمعية حمالين شيربا قلقة ، ويقوم جلالة ملك نيبال ببحث هذا الموضوع بنفسه » (« كاتماندو ويكلى ») .

« نظرا لغلاء الوقود فمن المتوقع أن تصبح الموضة فى هذا الموسم ــ للأسف ــ الفساتين الطويلة المقفولة . ويأمل معلقنا أن يتم تصميم موديلات ذات بطانة دافئة من الألياف الزجاجية والقطنية تستطيع اظهار مميزات القوام النسائى . أما بخصوص الملابس النسائية الداخلية فمن المتوقع ... » (« لافى باريزيان ») .

— برق كروى ! — صاح المراقب فى المكبر الصوتى . — اهبطوا جميعا ! برق كروى !

وخلا السطح العلوى للسفينة « فوكوكا ــ مارو » ، ولم يبق هناك الا فريق الطوارئ .

كانت تلك أوامر مشددة من هيئة أركان العلماء ... فعند ظهور البرق الكروى على الجميع أن يختبئوا فى الأماكن الداخلية ويغلقوا جميع النوافذ والفتحات . وقد صدر هذا الأمر بعد أن اندفعت كرة النار ذات مرة خلال نافذة ورشة السفينة المفتوحة وشب حريق لم يتمكن البحارة اليابانيون من اخماده الا بعد جهد .

وامتثل كرافتسوف للأوامر فهبط الى اسفل ، وأطل على الصالة الواقعة امام الصالون آملا أن يجد أولوفيانيكوف هناك. لكنه رأى مجموعة من الناس الذين لايعرفهم جالسين على مقاعد البار العالية .

كان يصل الى السفينة كل يوم أناس جدد على متن طائرات مائية نفاثة ... علماء ، وموظفون من الأمم المتحدة ، ومهندسون ، وصحفيون . كان البعض يأتى

والبعض الآخر يرحل . وكانوا يجتمعون ويتجادلون ويعبثون « فوكوكا » بالدخان ، ويأتون على ما فى مخزن السفينة الضخم من خمور .

بينما كان العمود الاسود فى ذلك الوقت يواصل صعوده خارج نطاق المحيط الجوى الأرضى ، وبعد أن وصل الى اكثر من ثلث المسافة الى القمر انثنى حول الأرض كأنما يحاول تطويق الكوكب بحزام ضيق . وظل كما كان محاطا بسحب سوداء بلا نهاية وحزم البرق تضربه ، وبدا كأن العاصفة الرعدية لن تنتهى أبدا .

وكانت اجهزة القياس على الطوف قد توقفت عن العمل منذ مدة طويلة ، بينما كانت « فوكوكا » تسبح حول الطوف ، تقترب منه تارة ، وتارة أخرى تبتعد . وفى مكان ما تعطلت سفينة الوقود ، بينما كان الوقود فى « فوكوكا » على وشك النفاد .

وسارت الحياة على ظهر السفينة يشوبها القلق . ولكن اكثر ما كان يرهق كرافتسوف هو البقاء دون عمل . كان يعلم أن العلماء فى موقف صعب ــ فلتحاول أن تعرف كنه المجال الغامض حول العمود الاسود ! ومع

ذلك فقد طالت اجتماعاتهم وفاقت كل حد . وكثيرا ما كانت تساوره رغبة بالذهاب الى ماروزوف ليسأله بصراحة : « متى تعزمون فى نهاية الأمر على مقاومة العمود الأسود ، والى متى بحق الشيطان سننتظر ؟» ... لكنه كان يمسك نفسه ، فقد كان يعرف مدى الجهد الهائل الذى يبذله ماروزوف .

أما براموليا الذى كان كرافتسوف يلتقى به أحيانا فى قمرة على أوفساد أثناء تناول الشاى ، فلم يكن يجيب على الأسئلة ، بل يرد بمزاح ويحكى نكاتا شبلية لاذعة .

وقف كرافتسوف فى الصالة شبه المظلمة شاردا مع خواطره القاتمة ، ينظر الى باب الصالون الذى كان العلماء مجتمعين وراءه .

وسمع شخصا يقول : ــ هالو !

فالتفت :

ــ آه ، أنت يا جيم ، مساء الخير ! لماذا لا تلعب البلياردو ؟

فضحك جيم باركنسون ضحكة مريرة وقال :

ــ سئمت . العب كل يوم أربعين شوطا ... حتى

لأكاد أعوى ككلب . يقال ان سفينة الوقود ستأتى غدا ، الم تسمع ؟

ــ نعم ، يقولون .

ــ الا تريد أن تتناول كأسا يا سيدى ؟

فلوح كرافتسوف بيده مستسلما :

ــ ليكن .

وجلسا على مقعدين عاليين بجوار خشبة البار ، وأعد لهما عامل البار اليابانى كوكتيلا بسرعة ، ووضع أمامهما الكأسين . فأخذا يرتشفان ببطء المشروب البارد القوى الرائحة .

وسأل جيم :

ــ هل سيعطوننا عملا أم لا ؟

ــ آمل أن يفعلوا .

ــ الأجر هنا لابأس به . وبعض الأولاد يروقهم أن يحصلوا على أجر مقابل النوم ولعب البلياردو . لكننى سئمت كل هذا يا سيدى . ها نحن نعيش الشهر الثانى دون سينما ، دون فتيات . حتى الاذاعة لا يمكن سماعها .

ــ اننى أقدر شعورك يا جيم .

ــ الى متى يحبسوننا فى هذه العلبة اليابانية ؟ اذا لم

يكن العلماء قادرين على عمل شىء فليقولوا لنا بصراحة وليطلقوا سراحنا لنرجع ، اننى مستعد أن اعيش دون كهرباء ، عليها اللعنة .

سرى الدفء فى جسد كرافتسوف من رائحة المشروب النفاذة .

ــ لا يمكن ان نحيا دون كهرباء يا جيم .

ــ بل يمكن ! ــ ودق باركنسون الطاولة بقدحه وهو يضعه ــ اننى أبصق على المجال المغناطيسى وكل هذا الهراء .

ــ بوسعك أن تبصق ، ولكن غيرك ...

ــ وما شأنى أنا بالآخرين ؟ اننى أقول لك : استطيع العيش دون كهرباء . وحفر الآبار دائما مطلوب فى أى مكان . فلتكن الآلة التى تدير ازميل الحفر بخارية لا كهربائية ، ماذا يهم ؟

وقال كرافتسوف لنفسه : «حتى هذا الشاب الهادىء قد جن بسبب البطالة» .

ــ اسمع يا جيم ...

ــ لم تكفنا العاصفة الرعدية فظهر البرق الكروى... يطير قطعانا . ولا يمكنك الصعود الى ظهر السفينة ،

فاليابانيون يقفون بمسدساتهم على جميع السلالم ... الى الشيطان كل هذا يا سيدى ! اذا كان العلماء يعجبهم البقاء هنا فليبقوا ولينقبوا ، أما نحن فكلنا لا نريد !

وقال كرافتسوف مكفهرا :

— كف عن الصراخ ! من هؤلاء «كلنا» ، هيا أجبنى !

وأظلم وجه باركنسون الضيق . ودون أن ينظر الى كرافتسوف رمى على الطاولة ورقة مالية مجعدة وخرج .

وشرب كرافتسوف بقية المشروب ونزل من على الكرسى العالى ... ترى هل يذهب الى القمرة ويلقى بنفسه فى السرير لينام ...

كان تشولكوف يقف بجوار باب قمرته مستندا بظهره الى جدار الطرقة .

— اننى انتظرك يا الكسندر فيتاليفتش ... ودفع عمرته الى قفاه ، ونمت أسارير وجهه الطفولى عن القلق .

— ادخل يا ايغور — وافسح له الطريق ليدخل القمرة — ماذا حدث ؟

وقال تشولكوف بسرعة وبصوت منخفض :

— يا الكسندر فيتاليفتش ... هناك شىء يحدث ...

الفتيان من فرقة باركنسون يتحاشوننا منذ مدة طويلة ، ويجتمعون فى صالون استراحتهم ويتهامسون ... ومنذ نصف ساعة سمعت بالصدفة حديثا ... كان ذلك فى المرحاض ، لا مؤاخذة ، ولم يرونى . فليتشر وشاب آخر ، ذلك الذى يضحك دائما كأن أحدا يزغزغه ... يسمونه لافينغ بيل *.

فقال كرافتسوف :

— نعم ، اذكره .

— انه هو ... وانا بالطبع لا أفهم الانجليزية جيدا ، ولكنى تعلمت هنا بعض الكلمات ، وعلى العموم فقد فهمت أنهم ينوون الهرب . فعندما تأتى غدا سفينة التموين وتنتهى من افراغ شحنتها سيضربون مجموعة الحراسة ويقتحمون سفينة الشحن ويفرون الى امريكا ...

— هل فهمت كلامهم جيدا يا ايغور ؟

— وما هو غير المفهوم فى عبارة «أتاك ذى ترانسبورت» ** ؟

* بيل الضاحك .

** مهاجمة سفينة النقل — ويلاحظ أن هاتين الكلمتين الانجليزيتين هما نفسهما فى اللغة الروسية مع تغيير طفيف فى النطق .

— حسنا ، هيا بنا .

وقفز كرافتسوف من القمرة وركض عبر الطرقة .

فقال تشولكوف على عجل وهو يلاحقه :

— لا يجب التصرف هكذا يا الكسندر فيتاليفتش ... انهم هناك كثيرون ...

ولكن كرافتسوف لم يستمع اليه . وقفز درجات السلم صاعدا الى السطح « د » ، وفتح بعنف باب صالون الاستراحة الذى كان يتردد خلفه ضحك وأصوات .

وعلى الفور حل السكون ، وتطلعت عشرات العيون الى كرافتسوف خلال سحابة زرقاء من دخان اللفائف .

كان فليتشر جالسا على مسند كرسى واضعا قدميه على المقعد نفسه وفى حذاء أسود طويل ، وقلص شفته السفلى واطلق سحابة من الدخان محدثا صوتا .

وقال وهو يضيق عينيه .

— آه ، المهندس ... كيف حالك يا سيدى المهندس ؟

فقال كرافتسوف وهو يطوف على العمال بنظراته :

— اريد أن أتحدث معكم يافتيان . انني اعرف أنكم تريدون الهرب من « فوكوكا — مارو » .

فقفز فليتشر من الكرسى :

— من اين عرفت يا سيدى ؟ — سأل بابتسامة شريرة .

فقال كرافتسوف بضبط نفس :

— انكم تنوون غدا الهجوم على سفينة النقل . ولكنكم لن تتمكنوا من ذلك يافتيان .

— لن نتمكن ؟

— نعم ، لن تتمكنوا ، وانى أحذركم بكل شرف .

— وأنا أحذرك يا سيدى . فنحن لسنا على استعداد للبقاء هنا لنموت معكم .

وحاول كرافتسوف أن يكون هادئا :

— ومن قال لك ذلك يافليتشر ؟

— فلماذا اذن يدفعون لنا ثلاثة اضعا ف الاجر مقابل البطالة ؟ ألست على حق يافتيان ؟

وصاح العمال فى صخب :

— على حق ... مثل هذه النقود لاتدفع هباء ... انهم يعرفون أننا سنموت !

— الاشعة الذرية تتدفق من العمود !

— والبرق الكروى يصول فى القمرات !

— وماكفرسون على وشك الموت من الأشعة الكونية ، وعما قريب ستتحلل أجسادنا نحن أيضا !

وذهل كرافتسوف . لقد زحف نحوه الحشد الصارخ ، بينما كان وحيدا ، فقد اختفى تشولكوف . ورأى جيم باركنسون جالسا فى الركن دون مبالاة يقلب مجلة ملونة على غلافها اللامع صورة شقراء فى لباس البحر .

وصرخ كرافتسوف :

— هذا غير صحيح ! لقد وقعتم ضحية تضليل ! ماكفرسون مصاب بانسداد فى شرايين القلب ، ولا دخل للأشعة الكونية هنا . العلماء يفكرون فى طريقة لمقاومة العمود الأسود ، وعلينا نحن ان نكون مستعدين .

فصرخ فليتشر :

— ليذهب العلماء الى الشيطان !

— هم سبب البلاء !

— لو سمح لهم فسيبعثون بالجميع الى الهلاك !

— غدا تأتى السفينة ولن يستطيع أحد الوقوف بوجهنا سنحطم اليابانيين !

وضرب العمال حلقة حول كرافتسوف ، ورأى وجوها محتقنة وحلوقا صارخة وعيونا حاقدة ...

وحاول أن يرفع صوته أعلى منهم :

— لن نسمح لكم بالهروب !

وتقدم فليتشر نحوه وقد انقلبت سحنته من الجنون . وشد كرافتسوف أعصابه كلها .

وقذف باركنسون بالمجلة ونهض .

فى هذه اللحظة انفتح الباب بعنف ، واقتحم الصالون عمال فرقة على أوفساد وغيورغى ، واندس تشولكوف وهو يلهث بين كرافتسوف وفليتشر .

وقال للتكساسى :

— اياك أن تفعل شيئا .. ارجع الى الوراء !

فقال فليتشر وهو يمط الكلمات :

— هكـ .. ذا .. تدافع عن صاحبك .. يافتيان اضربوا الحمر ! صرخ فجأة ، وتراجع الى الوراء ودس يده فى جيبه الخلفى .

ولكن جيم باركنسون قبض على يده قائلا :

— قف !

فشد فليتشر يده محاولا تخليصها ؛ لكن جيم كان يقبض عليها بقوة ، واحتقن وجه فليتشر بالدم ، ثم قال بصوت متحشرج :

ـ حسنا ، دعنى .
ـ هكذا أفضل ـ قالها باركنسون بصوته المتهالك المألوف ـ تفرقوا يا أولاد . رجالى سيبقون يا مستر كرافتسوف . سننتظر حتى يعطونا عملا .
ودخل على أوفساد الصالون بخطوات سريعة ، وقال لكرافتسوف وهو يلهث :
ـ لماذا لم تستدعنى ؟ من هنا يريد ان يتعارك ؟
فقال جيم بلغة روسية ركيكة :
ـ حسن يا على اوفسايد ... حسن ... كله تمام .
وأشار على أوفساد باصبعه نحو فليتشر الذى كان لا يزال يتحسس يده :
ـ هذا ؟ وأخذ يسبه : ايشاك بالاسى كيول باشينا * ... أنت انسان ، أم ماذا تكون أنت ؟

ـ ٢٦ ـ

جلسوا ثلاثتهم يتناولون العشاء ... كرافتسوف وأولوفيانيكوف وعلى أوفساد . وأخذ الأوسطى العجوز يمضغ « الروزبيف » ويحكى حكاية طويلة عن أخيه

* يا ابن الحمار ، فليتعفر رأسك بالرماد ! (بالاذربيجانية)

الخبير الزراعى ، وكيف انتصر على البيروقراطيين فى مؤسسة « أذرفينتريست » ، وحسن بشكل كبير جودة نوعين من العنب . وكان كرافتسوف لا يصغى بكامل انتباهه ويرتشف البيرة ويتطلع حوله .
وقال اولوفيانيكوف عندما صمت على اوفساد :
ـ منذ أيام قليلة أصبحت رغما عنى شاهدا للقصة التالية . كان توكوناغا يقف بجوار حاجز السفينة ، اذ يبدو أنه خرج يستنشق الهواء . وأردت أن التقط له صورة دون أن يدرى فبدأت أغير العدسة . وفجأة رأيت اليابانى يخلع من معصمه اسورة ما وينظر اليها ثم يلقى بها فى الماء . وفى هذه اللحظة اقترب منه ماروزوف فسأله : « ماذا ألقيت فى البحر يا ماساو ـ سان ؟ أليس خاتم بوليقراط ؟ * » ، فابتسم توكوناغا ابتسامته الحزينة وقال « ليس لدى خاتم للأسف . لقد رميت الاسورة المغناطيسية ... » انها تلك الاساور

* خاتم بوليقراط ـ نسبة الى حاكم جزيرة ساموس فى بحرايجة. وقد أصبحت الجزيرة أيامه محط انظار اليونان كلها من حيث التطور الحضارى والثقافى . ونالت شهرة واسعة فى أيامه حكاية خاتمه الذى يجلب السعادة (انظر قصيدة شيلر ... « خاتم بوليقراط ») .

اليابانية التي يحملها كثير من الكهول ، وخاصة المصابون بضغط الدم ...

فقال كرافتسوف :

— سمعت عنها .

فمضى اولوفيانيكوف يقول :

— نعم ... ثم ارتسمت ملامح الجد على وجه ماروزوف وقال : « انني لا أفهمك يا ماساو — سان ... أتظن أننا لن نستطيع أن ... » فقال توكوناغا : « كلا ، كلا ... سنعيد بالطبع للمغناطيسات خواصها ، ولكني لا أعرف ان كنت سأعيش حتى ذلك اليوم أم لا ... » فوضع ماروزوف يده على كتفه : « لماذا تقول ذلك ... » . فرد الياباني : « لا تلق بالا يا ماروزوف — سان ... نحن اليابانيين قدريون بعض الشيء »

وسأل كرافتسوف :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— انصرفا . يبدو أن توكوناغا ميئوس من شفائه حقا ...

فقال كرافتسوف :

— نعم ... قصة ليس فيها مايسر .

ولزموا الصمت بعض الوقت .

ثم سأل كرافتسوف مشيرا الى شخص صغير كان يتناول عشاءه على مائدة ماروزوف :

— من هذا القزم ذو الشاربين البيضاوين ؟

فأجاب أولوفيانيكوف :

— هذا القزم هو البروفيسور بيرنستاين .

— يا سلام ! — وشعر كرافتسوف بالحرج من قوله « قزم » — لم اكن أظن أبدا أنه ...

— بهذا الصغر ؟ هل قرأت فى الصحف الامريكية كيف كان سلوكه فى برنستون ؟ لقد تحصن فى معمله وصنع حوله مجالا كهربائيا جبارا ، وقد حصل على الكهرباء من مولد كهروستاتيكى كان يديره محرك هوائى . وأخذ المجرمون الذين هاجموه يرتعدون كأنهم فى رقصة القديس فيتّا ، فلاذوا بالفرار . وظل مرابطا فى المعمل مع اثنين من العاملين ستة أيام كاملة لايذوق الا الماء ... انظر ما أعظمه ؟

فقال كرافتسوف :

— انت محيط بكل شيء .

— أصول المهنة .

— بالمناسبة ، لقد قال لى تشولكوف أنك انتزعت منه معلومات مختلفة عنى ، فلماذا ؟

— انه ثرثار تشولكوف هذا ... كنت فقط مهتما باخمادك للتمرد .

فضحك كرافتسوف :

— دعك من تهويل الأمر .. أى « تمرد » !

وتدخل على اوفساد فى الحديث :

— انه يريد أن يكتب عنك . يريد أن يكتب هكذا : « كان كرافتسوف واقفا بجوار العمود الأسود ... » .

وضحك اولوفيانيكوف ومد يده للأوسطى الذى لمس بأطراف اصابعه الراحة الممدودة .

وقال كرافتسوف :

— شهر كامل ونحن ندور حول العمود ... نراقب ، ونقيس ... ونحاذر.. لقد مللت — وشرب البيرة ومسح فمه بمنديل ورقى وقال — فعلا ، ينبغى ضرب هذا العمود بقنبلة ذرية ...

ونظر ماروزوف ناحية كرافتسوف وحدق فيه . يبدو أنه قد سمع . وبدا شعره الأبيض مائلا الى اللون النحاسى فى ضوء مصابيح الكيروسين الشاحب .

وأقبل الخادم اليابانى بهدوء وعرض بأدب « أيس كريم » بالفواكه .

فقال كرافتسوف وهو ينهض :

— اشكرك ، ليست بى رغبة . سأذهب لأزور ماكفرسون .

ونظر على اوفساد الى ساعته وقال :

— بعد ساعة سيأتى الىّ الارمنى لتناول الشاى . لديك ساعة من الوقت .

فسأل اولوفيانيكوف :

— أىّ أرمنى ؟

فضحك كرافتسوف قائلا:

— انه يصر على جعل براموليا أرمنيا . لكنك حبيته فى الشاى يا على أوفساد .

— سنعد أنا وبراموليان طبق الجيز — بيظ يوم الاحد . وقد وعدنى الطباخ بأمعاء ضأن .

وقال أولوفيانيكوف :

— هل أنت ذاهب الى ماكفرسون ؟ اسمح لى أن اذهب معك .

— ٢٧ —

كان الطبيب قد سمح لهويل منذ عدة أيام بتحريك يديه والتقلب من جنب الى جنب . ومن حين لآخر كان

يقطب وجهه الما ويبرز فكه الأسفل بطريقة خاصة ، فتركض نورما همبتون الى الطبيب وقد تملكها الهلع .

ومع ذلك فان الخطر فيما يبدو كان قد أبتعد ...

وكان هويل يشكل من الصلصال تماثيل صغيرة ، وعندما يمل ذلك يطلب من نورما أن تقرأ له الصحف أو كتابه المفضل « مذكرات بيرغرين بيكل » . فكان يصغى مغلق العينين ونفسه يتردد بانتظام ، وعندما كانت نورما تنظر اليه لم تكن تستطيع فى جميع الأحوال أن تعرف ما اذا كان مصغيا ، أم أنه يفكر فى شىء ما ، أم أنه ببساطة مستغرق فى النوم .

وذات مرة قالت له :

— ما أن تشفى حتى آخذك الى انجلترا .

ولكن هويل لزم الصمت .

وسألته مرة أخرى :

— ما رأيك فى المعيشة فى تشيستر وسط المروج الخضراء ؟

وكان لا بد من الاجابة فقال :

— اننى افضل كمبرلاند .

فوافقت على الفور :

— عظيم جدا — وفجأة اشرقت متهللة — كمبرلاند ، أوه ، طبعا ، لقد قضينا هناك شهر العسل ، يا الهى ، منذ حوالى خمسة وعشرين عاما تقريبا .. كم أنا سعيدة يا حبيبى أنك تذكرت ..

— عبثا تظنين أننى أتذكر شهر العسل . الأمر ببساطة أن هناك بحرا وصخورا .. من الأفضل أن تقرئى لى هذه القصة الحمقاء عن السلاحف .

وشرعت نورما تقرأ له رواية « أسياد الأعماق » المنشورة على حلقات فى « الديلى تليغراف » .. رواية عاصفة لا تنتهى ، تحكى عن جحافل سلاحف نارية زحفت من اعماق الأرض ، وانتشرت فوق الكرة الأرضية وهى تحرق وتدمر كل شىء حىّ ، حتى وقع زعيمها فى حب الحسناء مود زوجة بائع الكيروسين .

وكانت عواطف الزعيم النارى قد بلغت أوجها عندما دق الباب ودخل على — أوفساد وكرافتسوف وأولوفيانيكوف .

وقال كرافتسوف وهو يجلس بجوار سرير الاسكتلندى :

— يبدو أنك كنت على حق يا هويل . يجب قطع العمود بالقنبلة الذرية .

فرد هويل :

ـ نعم ، بقنبلة ذرية ذات فعل موجه . هكذا كنت أفكر من قبل .

ـ والآن ؟

ـ الآن افكر هكذا : حسنا ، سنقطع العمود بتفجير ذرى ، فيعود المجال المغناطيسى الى طبيعته ، ولكن العمود سيواصل بعد ذلك ارتفاعه حتى يصل من جديد الى الأيونوسفير . ومن جديد تغلق دائرة القصر .

فقال كرافتسوف :

ـ صحيح .. يا للشيطان ، فكيف نوقفه اذن ؟

فقال على أوفساد :

ـ ربما يتوقف من تلقاء نفسه ، فبعد أن يفرز الضغط فى الطبقات الأرضية كل هذه المادة ربما يتوقف .

ـ لا يجب أن نأمل فى ذلك يا على أوفساد .

وقال أولوفيانيكوف :

ـ اول أمس اصطاد الصحفيون شتام فى الصالون وحاصروه فى أحد الأركان وطالبوه بأخبار . وبالطبع لم يتمكنوا من انتزاع شىء منه ـ انه شخص من الخرسانة المسلحة ـ ولكنه بالمقابل أخذ يشرح لنا نظريته المفضلة . هل سمعت شيئا يا ساشا عن نظرية اتساع الأرض ؟

ـ سمعت بعض الشىء . كان يدور حولها جدل عندما كنت لا أزال طالبا فى المعهد .

ـ لقد قال شتام أشياء غريبة جدا ، فقد ذكر أن الأرض فى العصر الباليوزوى كانت على حد زعمه لا تكاد تبلغ ثلث الحجم الحالى لها . هل هذا صحيح ، أم أن العم شتام يمزح ؟

وضحك كرافتسوف :

ـ لا تخرف يا ليف ، ان شتام ليفضل أن.. أن يعضك ... على أن يمزح . ولكن هناك فرضية من هذا القبيل ، واحدة من فرضيات كثيرة وتقول ان النواة الداخلية للأرض هى بقايا مادة نجمية مضغوطة للغاية ، تكونت منها الأرض فى زمن ما . وان هذه النواة تتفكك وتنتقل جسيماتها بالتدريج الى الطبقات الأعلى ، ومن ثم ... وعلى العموم توسعها . وكل ذلك يجرى طبعا ببطء شديد جدا .

ـ لقد قال شتام فعلا ان جسيمات جديدة ثقيلة تنشأ داخل الأرض ، بروتونات ونيترونات على ما أظن ، فتزيد من كتلة الأرض . ولكن ، من أين تأتى الجسيمات الجديدة ؟

فقال كرافتسوف :

ـــ هذه هى المعضلة . لم أعد الآن اذكر تماما . ولكننا ، أيامها كنا نتجادل بجنون حول هذه الفرضية . وفى وقت ما كان يعلمنا تلميذ الاستاذ صاحب الفرضية كيريلوف ... من أين تأتى الجسيمات الجديدة ... اذكر الكلام الذى دار عن التحول المتبادل للمجال والمادة ، وهما شكلان من اشكال المادة مختلفان نوعيا .. وهذا التحول هو الذى يخلق انطباعا .. وكأن مادة جديدة ولدت ... وعلى العموم فهنا تأثير مشترك للمجال الجذبى ، والكهرومغناطيسى ، ومجالات أخرى لم تعرف بعد .. ما جدوى الكلام ؟ لا شىء يستطيع أن ينير لنا الطريق سوى وجود نظرية المجال الواحد .

وجاء صوت هويل ساخرا :

ـــ اتراك تريد القول يا مستر كرافتسوف بأن عمودنا العزيز يتكون من مادة بروتونية أو نيترونية ؟

ـــ كلا يا مستر ماكفرسون . اننى فقط اذكّر بالفرضية التى يبشر بها عزيزنا شتام .

ـــ وبم تبشر أنت ؟

ـــ بعصيدة الحنطة السوداء كما تعرف يا هويل .

وتناول كرافتسوف من على الطاولة هيكل طائرة صغيرة مصنوعا من الصلصال ـــ ها أنا أرى موضوعا جديدا بدأت تتناوله فى فنك .

ـــ اعطنى اياها .

وأخذ منه الطائرة وضغطها فى كرة الصلصال .

وقال كرافتسوف :

ـــ فعلت طيبا يا هويل اذ أصبحت مهندس حفر ولم تصبح مثّالا .

ـــ انت دائما تعرف ما هو الطيب وما هو السىء . شاب محيط بكل شىء .

ودهش كرافتسوف :

ـــ لم اكن أظن أنك ستغضب .

فقال الاسكتلندى :

ـــ هراء . لست غاضبا يا فتى ، لكن لا يعجبنى انك تثير الشجار مع الأمريكيين .

ـــ اننى لم أبدأ باثارته أبدا يا هويل . لست من المشاغبين كما تعرف .

صمتوا قليلا ، وتراقص اللهب فى مصباح الكيروسين فتحركت الظلال فى القمرة .

وفجأة قال على أوفساد :

— لقد أصبحت أحب النوم كثيرا الآن . كنت من قبل أنام قليلا ، والآن اريد ان أنام كثيرا ، ربما لأن المجال المغناطيسي غير سليم .

وابتسم كرافتسوف قائلا :

— يمكننا الآن أن نلقى تبعة كل شيء على المجال المغناطيسي ، أو الجاذبية ..

فقال على أوفساد :

— الجاذبية .. الجاذبية .. الجميع الآن لا يقولون الا : الجاذبية. لم اكن اعرف من قبل هذه الكلمة، والآن أنام فأرى فى الحلم «الجاذبية» . فما هى ؟

— ألم أشرح لك يا على أوفساد ...

— لم تشرح جيدا يا بنى . قل لى مباشرة أهى الثقل أم القوة ؟ لقد قضيت كثيرا أحفر الأرض واعرف أن فى باطنها قوة كبيرة .

— ومن ذا يعارضك فى ذلك ؟

وقال أولوفيانيكوف :

— ولذلك يطلقون عليها فى الحكايات الشعبية الروسية

تبجيلا اسم «أمنا الأرض الرطبة» . أتذكر يا ساشا قصة ميكولا سيليانينوفتش ؟

فهتف هويل :

— قصة ؟ قلها لى من فضلك .

وفكر كرافتسوف فى نفسه : «كم يحب الحكايات ! لا يشبع منها أبدا ..» .

— حسنا ... وبدأ اولوفيانيكوف يقص بتلذذ :

كان يا ماكان فلاح.. وكان اسمه ميكولا سيليانينوفتش. وذات يوم كان يحرث بجوار الطريق ، ووضع كيس طعامه على الأرض . وأخذ يحرث ويتطلع الى الشمس آملا أن ينتهى قبل ان تغيب . ومر عليه العملاق فولغا راكبا حصانه الجبار . وكان يشعر بالملل ، لأنه لا يجد ما يستغل فيه قوته الجبارة ، فكل شيء بالنسبة له خفيف وضعيف . وسمع ميكولا سيليانينوفتش تفاخر العملاق بقوته فقال له : «حاول أن ترفع كيس طعامى» ، فسخر البطل .. كيس طعام ! يا له من أمر خطير . وانحنى وهو فوق الحصان وحاول رفع الكيس بيد واحدة فلم يفلح ، فأسرع يجذبه بكلتا يديه ، فلم يستطع رفعه . وغضب العملاق فولغا وشد الكيس بقوة ، لكنه لم يفلح

فى رفعه ، بل غاص فى الأرض حتى الركبتين . فقال له ميكولا سيليانينوفتش موضحا : ان ما يشد الكيس الى اسفل هو الأرض الرطبة .

فقال الاسكتلندى مؤيدا :

— حكاية طيبة .

وقال كرافتسوف :

— حكاية ذات مغزى اجتماعى صارخ .. ان ميكولا رمز للعمل المسالم ، أما العملاق فولغا ...

— ربما كان الأمر كذلك ، وربما أحس اسلافكم الحكماء قوة الجاذبية الأرضية الهائلة .. ها هو المعين الذى تنبع منه الفرضيات الخيالية فى عصرنا الحالى ... ميكولا .. قلت ما أسمه ؟

فأجاب أولوفيانيكوف :

— ميكولا سيليانينوفتش .

— نعم .. الكيس ، وروح الكاتب ويلز .. اليس كذلك يا سادة ؟

وقال على — أوفساد وهو يلمس باصبعه نقطة شواربه السوداء فى تجويف شفته العليا :

— والآن اقص عليكم أنا .. فى سالف الزمان كان

يعيش رستم بهادور * . وعندما كان يمشى كانت قدماه تغوصان عميقا فى الأرض .

فسأله اولوفيانيكوف :

— أكان ثقيلا الى هذا الحد ؟

— لماذا ثقيل ؟ وهل قلت ثقيل ؟ انه ببساطه قوى جدا ، قوى لدرجة أنه عندما كان يريد أن يسير بخفه ، كانت قدمه تغوص نصف متر فى الأرض . عندئذ ذهب رستم الى أحد الشياطين وقال له : « خذ نصف قوتى وخبئها ، وعندما أصبح عجوزا آتى اليك وآخذها ... » .

ونهض كرافتسوف وأخذ يروح ويجئ فى القمرة ، فارتعشت الظلال على الجدران وتراقصت .

— ماذا يمكن أن نفعل — قال وقد توقف أمام سرير هويل — ماذا يمكن أن نفعل لكى نجعل قوة العمود تضغط عليه ليغوص فى الأرض ؟ .. ليس هناك شىء سوى قوته الخاصة بقادر على مواجهته .

وضحك على اوفساد قائلا :

— أتريد أن تقلب العمود الاسود ؟ يالك من بارع !

* بهادور تعنى العملاق الاسطورى (بالاذربيجانية) .

تعب كرافتسوف من الانتظار أمام باب الصالون الذى كان يدور خلفه الاجتماع الدورى للعلماء . وكان صخب الاصوات خلف الباب يعلو تارة ، وتارة أخرى يهدأ . وعلى زجاج الباب المعتّم كان ظل يتحرك حركة منتظمة ، لابد أن أحد العلماء كان يروح ويجىء فى الصالون .

وفكر كرافتسوف فى نفسه « أى شيطان يجعلنى اقف هنا ؟ انهم الآن فى شغل شاغل عنى . لقد اجتمع هنا خيرة علماء الجيوفيزياء فى العالم ، النوابغ ، الحاصلون على جميع انواع الجوائز . ثم اجىء أنا فأدس نفسى بينهم بفكرتى العرجاء ؟ أن نستخدم قوة العمود نفسه .. يالها من فكرة ... »

ولكن كرافتسوف كان فى أعماق نفسه يدرك أنه بحاجة فقط الى ذريعة ليستطيع أن يتحدث مع ماروزوف. لم يعد يطيق الانتظار والمجهول . نعم ، سيستجمع شجاعته ويسأل ماروزوف مباشرة : كم سننتظر ؟

ودلف الى الصالون وصيف يحمل صينية عليها زجاجات وصودا ، ولمح كرافتسوف من خلال الباب

الذى فتح لحظة صلعة عريضة ويدين تمسكان بورقة هواتمان ، وسمع طرفا من عبارة بلغة روسية ركيكة :

« ... لن يمكنكم اقامة مثل هذا الجهاز ... »

جهاز ! آها .. لقد بدأوا يتحدثون عن جهاز ما .

وكان كرافتسوف تارة يرتمى على الكرسى ، وتارة يروح ويجىء فى الصالة شبه المعتمة . وسار الوقت ببطء مرهق مقتربا من الثانية صباحا .

واخيرا فتح الباب ، وأخذ العلماء يخرجون من الصالون وهم يتبادلون الحديث . كان توكوناغا يصغى الى شتام بوجه متعب ، بينما أخذ الآخر يحاول ان يثبت له شيئا ما . ومر براموليا السمين وهو يبلل صلعته بالمنديل ، ومر العالم الصغير ذو الشاربين البيضاوين — البروفيسور برنستاين — تحيط به مجموعة من العلماء الذين لا يعرفهم كرافتسوف ، وكان أحدهم يرتدى الزى الهندى . وها هو ماروزوف بقامته المديدة يخرج من طيات دخان اللفائف حاملا تحت ابطه حافظة ضخمة .

واستطاع ماروزوف بعينيه الحادتين أن يلمح كرافتسوف المنزوى بعيدا فى الركن ، فأومأ له برأسه محييا وقال ضاحكا :

— اذن .. قنبلة ذرية تقول ؟
فخطا كرافتسوف نحوه :
— فيكتور قسطنطينوفتش .. ايمكن ان اتحدث معك ؟
— مشغول جدا يا عزيزى . أنا نفسى أريد من فترة طويلة التحدث معك ، لكن لا وقت لدى .. وعلى العموم ...
— وضم كرافتسوف من كتفيه وسار به فى الطرقة — اذا كان حديثنا قصيرا ، فهيا .. تحدث .
فقال كرافتسوف باضطراب :
— أتدرى .. لقد خطرت لنا فكرة ... الا يمكن استخدام قوة العمود الذاتية .. أو بالأحرى تغيير اتجاه مجاله ...
فضحك ماروزوف قائلا .
— أفهمك ، أفهمك .. من الأفضل أن تحكى لى كيف قاتلت اولئك التكساسيين .
— ليس هناك ، ما يقال ! تشاجرنا قليلا ، ثم تصالحنا ... اعذرنى يا فيكتور قسطنطينوفتش اذا كنت اضايقك بالحاحى ، ولكنى فقط أردت أن أعرف : الى متى سننتظر ؟

— آمل ألا يطول الانتظار يا عزيزى .. قريبا .. علينا أن نعجّل للغاية لأن ... باختصار ينبغى تحديد كل العواقب السيئة . والمشروع جاهز فى الأساس ، لم يبق الا الحسابات الأخيرة للتأكد .
وتهلل كرافتسوف :
— اذن قريبا ..
— قريبا — وتوقف ماروزوف أمام باب قمرته وسأله من جديد — تريد قطع العمود بقنبلة ذرية ؟
فقال كرافتسوف :
— انه اقتراح ماكفرسون .. ولكن العمود سيواصل صعوده من جديد ويصل الى الايونو ...
فقاطعه ماروزوف :
— ادخل ... وادخله قمرة فسيحة ، أو بالأحرى غرفة مكتب بها طاولات مكدسة عليها رسوم هندسية . وقال : اجلس .. — وجلس هو الى احدى الطاولات.. — قل لى يا رفيق كرافتسوف .. هل تعرف الطوف جيدا ، بمنشآته وممراته ؟
— نعم .
— انظر الى هذا الرسم .. هل تعرف ما فيه ؟

فقال كرافتسوف :

— انه السطح الاوسط فى الطوف .

— مضبوط . ما هى المدة اللازمة فى رأيك لحفر طرقة دائرية ؟ — ودار ماروزوف بالقلم حول دائرة الطوف .

فسأل كرافتسوف وقد عقد حاجبيه وحك باصبعه خلف اذنه .

— طرقة دائرية ؟

— اسمع . خذ الرسم وفكر جيدا . نريد طرقة دائرية مغلقة بعرض ستة أمتار وارتفاع لا يقل عن أربعة ونصف .

— سأفكر فى الامر يا فيكتور قسطنطينوفتش .

— رائع . تعال الى غدا فى وقت متأخر ومعك الجواب.

— ٢٩ —

«حبيبتى الغالية مارينا .

بالأمس حمل الىّ البريد الجوى رسالتين منك ، وحسنا فعلت ، فقد بدأ القلق يساورنى . تسألين لماذا لا آتى ما دام لا يوجد لدى ما أفعله هنا . صدقينى أنا نفسى

لا أدرى لماذا بقيت هنا شهرا كاملا دون عمل . كنت انتظر وانتظر ، وأقول لنفسى : ربما اليوم ، ربما غدا .. واخيرا تحقق ما كنت انتظره . لقد تم وضع المشروع وأقرته اللجنة الدولية ، وقد اطلق عليه اسم « عملية العمود الأسود » . وربما تكونين قد عرفت من الصحف ، وقبل أن تصلك رسالتى هذه ، جوهر العملية . وباختصار : تم وضع مشروع لجهاز يوقف صعود العمود الأسود . وبالطبع يهمك معرفة تفاصيل المشروع بوصفك مدرّسة فيزياء فى المدارس . وأقول لك بكل أمانة ان الأمر معقد الى درجة أننى أنا نفسى لا أفهم كل شىء . ولكن يبدو أن العلماء قد تمكنوا آخر الامر من معرفة مجال العمود الغامض ، وسوف يوجه اليه الجهاز مجموعة معينة من مجالات القوة الضخمة . ومن المتوقع ان يتمكن تفاعل هذه المجالات مع مجال العمود من وقف صعوده الى أعلى .

وبالطبع ينبغى فى البداية قطع العمود ليمكن القضاء على دائرة القصر ، واعادة التركيب الطبيعى للمجال المغناطيسى وايصال التيار لكى يعمل الجهاز .

أما الجهاز نفسه فسيوضع على الطوف ، لذلك نحفر فى المبانى الداخلية فيه طرقة دائرية . وأنا الآن مشغول بهذا الأمر بالذات . ينبغى أن أقول لك أن الجو حار هنا ، ولكن لا بأس . لقد اعتدنا العاصفة الرعدية منذ مدة طويلة، والبرق أيضا اعتدناه، فلا تقلقى .. فالعمود نفسه بمثابة مانعة صواعق .

أنا لا أدرى يا حبيبتى كم ستستغرق هذه العملية ، وأنت لا بد تدركين أننى أود الانتهاء من كل ذلك بأقصى سرعة لأعود اليك والى فوفكا. كم اشتقت اليكم يا أحبابى . اكتبى لى اكثر ، حسنا ؟ وليخط فوفكا أيضا شيئا ما . أما أنا فسأكتب اليكم عندما تلوح اية فرصة .

بالمناسبة ، أنت تسألين كيف سنقطع العمود . بهذه الطريقة ... »

لم يستطع كرافتسوف أن ينهى الرسالة فقد دق باب القمرة ، واطل تشولكوف برأسه قائلا :

— المجموعة الثالثة سترحل يا الكسندر فيتاليفتش .

فدس كرافتسوف الرسالة التى لم ينه كتابتها بعد فى درج الطاولة وانطلق الى الزورق .

وهكذا ، بدأت عملية « العمود الاسود » .

وتجمع حول الطوف اسطول كامل من السفن . كان من بينها حاملة الطائرات « فيوربيس » بمطاراها الضخم ، والقاعدة الميكانيكية العائمة « ايفان كوليبين » ، والصنادل الذاتية الحركة والروافع العائمة . وكانت القاطرات البخارية الضخمة تنفث دخان الفحم ، وهى تروح وتجئ بلا انقطاع فيما بين الطوف والسفن . وكان مركز قيادة العملية فوق ظهر « فوكوكا — مارو » كما فى السابق .

وأعدت مصانع الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية واليابان وكثير من الدول الاخرى على وجه السرعة مجموعات وقطع قلب دائرى هائل الحجم .

وتوجهت الى الطوف سفن ترفع علم الامم المتحدة الأزرق ، ومناطيد ذات تربينات بخارية تحمل فى جوفها التركيبات المعدنية ، ووحدات التردد العالى العالية ، ومجموعات العوازل الضخمة ، ومجموعة من الاسلاك. وجاءت سفن الوقود ، وسفن حمل الاخشاب . وسفن

محملة بالمواد الغذائية، سفن ركاب تحمل عمال التركيب والمهندسين واللجان الحكومية .

وعمل الرجال الذين يرتدون البزات الواقية ليل نهار دون توقف ، فقد كان من الضرورى الاسراع لأن تيار الاشعة الكونية القاتل — وكان العلماء يعرفون ذلك — كان يتغلغل أعمق فأعمق فى الطبقات الدنيا من الجو .

أما العمود الاسود فقد كان يخترق السحب صاعدا الى أعلى تحيط به هالة من البرق وتغلفه غلالة من البخار الابيض ، ثم ينحنى ويلتقى فى الفضاء المحيط بالارض ليصنع حلقة حول الكوكب .

— ٣١ —

فى الساعة التاسعة مساء صعدت فرقة المهندس كرافتسوف على السلم الحديدى الحلزونى الى السطح الأوسط فى الطوف، حيث كان يعمل عمال تركيب من فرق على أوفساد وباركنسون والرومانى غيورغى .

وتسلم كرافتسوف القطاع من رئيس الوردية التى انهت فترة عملها وهى خمس ساعات .

وقال كرافتسوف وهو ينظر الى الدعائم الخشبية والقناطر الضيقة المقطوعة والتى ظهر تحتها فراغ أسود :

— لكم مزقت القسم يا تشيزارى !

— كان المستوى هنا أعلى فاضطررنا الى قطع الواح الأرضية كلها — أجاب المهندس الايطالى وهو يمسح بالمنشفة وجهه الاسمر — انظر الى العلامة .

ومد لكرافتسوف الرسم التوضيحى ، فقال كرافتسوف :

— أعرف ، ولكن تحتنا هنا المحطة الذرية .

— التى لا تعمل .

— ولكنها سوف تعمل ، أما أنت فقد أهلت الواح الارضية على سقفها — وأضاء كرافتسوف المصباح ووجهه الى أسفل .

— ماذا تريد منى يا اليساندرو ؟

— يجب رفع الألواح ، فلا ينبغى أن يكون هناك شىء فوق المفاعل الذرى سوى سقفه .

كان المهندس الايطالى يعرف ، مثل كرافتسوف لغة الاسبرانتو ، فكان التفاهم بينهما يجرى سهلا . وأصغى عمال التركيب من كلا الورديتين محاولين فهم ما يقال ، وانسكب من مصابيح الاسيتيلين ضوء أزرق على اكتافهم وظهورهم العارية المبللة بالعرق .

وقال الايطالي :
— لقد قطعنا سبعة أمتار اكثر من المعدل .. أهم شيء هو الانتهاء من شق الطرقة بسرعة ، فاذا حدث وكان تحتها بعض القاذورات ...
فقاطعه كرافتسوف :
— الا في هذا المكان — ثم أضاف بالانجليزية — حسنا يا تشيزاري ، انصرف بعمالك ، وسنضع نحن الجمل ونرفع بأنفسنا هذه الفضلات .
وفجأة صاح صوت مبحوح :
— ما هذا ؟ هل يلقى الايطاليون باوساخهم ثم نقوم نحن بتنظيفها ؟
والتفت كرافتسوف بحدة :
— من قال هذا ؟
خيم الصمت على القسم بضع ثوان ، ولم يكن مسموعا سوى صوت الرعد المألوف يدوى فى الأعلى . وترجم أولوفيانيكوف الذى كان أيضا هنا لعلى اوفساد العبارة التى قيلت .
فهز على — أوفساد رأسه ومصمص شفتيه قائلا :
— لا ، لا ، لا .

وكرر كرافتسوف سؤاله :
— من الذى قال هذا ؟ انه واحد من رجالك يا جيم — وطأطأ جيم باركنسون رأسه فى صمت وهو يمسك بيده الطويلة دعامة السقف .
وهنا برز من بين المجموعة التكساسى الربعة الذى يعصب رأسه بمنديل زاهى الألوان .
ودمدم وهو ينظر مقطبا الى كرافتسوف :
— حسنا ، انا الذى قال ، ماذا هناك ؟ لست مستعدا للعمل بدل الآخرين .
— هكذا ظننت . اعتذر فورا للمجموعة الايطالية يا فليتشر .
فرفع هذا رأسه :
— أتظننى أفعل ؟ دعهم هم يعتذرون !
— فى هذه الحالة سأفصلك من العمل . انزل الآن واستقل أول زورق الى « فوكوكا » . وفى الصباح تأخذ حسابك .
فصرخ فليتشر :
— انني أبصق على عملكم هذا ! فليذهب فى ألف داهية ، أنا نفسى لا أريد أن اكدح فى هذا الحر الشيطانى !

وبصق ، وسار نحو الممشى المؤدى الى ساحة السلم يقفز من قنطرة الى قنطرة .

وأخذ العمال يتحدثون فى وقت واحد فامتلأ القسم برنين الأصوات .

فصاح كرافتسوف :

— صمتا ! اننا نعمل هنا جماعة يا فتيان ، لاننا لا نستطيع انجاز هذا العمل الضخم الا جماعة . وبوسعنا ان نجادل والا نتفق فى الرأى مع شخص ما ، لكننا ينبغى أن نحترم بعضنا . ألست محقا ؟

وترددت أصوات :

— مضبوط .

— فليذهب الى الشيطان ، هيا نبدأ .

— انك لا تملك الحق فى فصله !

— صحيح يا مهندس !

فرفع كرافتسوف يديه وصاح :

— صمتا . اننى أقول لكم بصراحة : ما دمت رئيسا لهذه المجموعة فلن يفلت من العقاب من يهين شخصا من قومية أخرى . هل فهم الجميع ما أقول ؟ انتهينا . البسوا البزّات !

واقترب تشيزارى من كرافتسوف وربت على كتفه وهو يبتسم ابتسامة عريضة . وسار الايطاليون الواحد تلو الآخر نحو فتحة الخروج متعبين مبللين بالعرق ، وكانوا يتحدثون أثناء سيرهم ملوحين بايديهم بحيوية .

وأمر كرافتسوف بوضع الجمل . ثم سأل :

— من الذى سيهبط ليرفع الواح الأرضية ؟

فرد تشولكوف على الفور :

— دعنى اهبط أنا .

وفجأة ظهر المهندس الايطالى من ظلام القسم المجاور يتبعه بعض رجاله .

وقال وهو يقفز فوق القناطر متجها نحو كرافتسوف :

— اليساندرو .. لقد قرر رجالى ان يعملوا قليلا .. سننظف المكان هناك ، فى الأسفل .

— ٣٢ —

خمس ساعات طويلة فى الجحيم الخانق الرطب داخل منشآت الطوف ... وسط لهب اجهزة القطع الطنانة وضربات الرافعة البخارية وصرير الالواح

المعدنية وفحيح آلات اللحام ... مترا بعد متر
الى الأمام ! لم يبق الا أمتار قليلة ، وعما قريب سيلتقى
طرفا الطرقة الدائرية فى حلقة تحيط بالطابق الأوسط
للجزيرة العائمة . وكان عمال تغطية الواجهة يتقدمون
خلف عمال التركيب ويغطون جدران الطرقة وسقفها بطبقة
من البلاستيك مقاومة للحرارة ، والكهربائيون يركبون
مجمعات القلب الدائرى الضخم ...

— قدما ، قدما ، يا عمال التركيب !

قرب الصباح عادت مجموعة كرافتسوف الى « فوكوكا — مارو » . لم يبق من القوة الا ما يكفى فقط للوصول الى الدش ورذاذه الدافىء ...

ثم النوم ، النوم ، النوم ! لكن يبدو أن الارهاق شديد للغاية ، وعندما يكون كرافتسوف مرهقا ، لا يستطيع طويلا أن ينام . فهو يتقلب على الفراش الضيق ، ويحاول العد حتى مائة ، لكن النوم يستعصى عليه . وتلوح أمام ناظريه — سواء أغمضهما أم لم يغمضهما — الدعائم المتشابكة ، ويملأ الطنين أذنيه ، ويغنى لهيب مواقد اللحام ... يا إلهى ما العمل ! ...

ويمد يده الى الكبريت فيشعل مصباح الكيروسين .

هل يقرأ الصحف ؟ آها .. سيكمل الرسالة .. نعم !

« ... بالامس لم ألحق ، سأفرغ اليوم اذن . يالها من حياة أصبحنا نحياها يا مارينا ! لا تجد وقتا حتى لتحك رأسك . لقد سئمنا البقاء دون كهرباء ، لذلك نعتصر كل ما فينا من قوة ، قريبا ننتهى ، قريبا !

أتفهمين ، ما أن نقطع العمود حتى ترجع المغناطيسات كما كانت ، فتعطى المولدات التربينية للمحطة الذرية التيار لبوبينات مستثير القلب الدائرى ؛ وعلى الفور يتفاعل تركيب المجالات المتعددة مع مجال العمود فيتوقف .

والعمود ذو صلابة خرافية ، ولكن الحسابات تقول أنه يمكن قطعه بواسطة تفجير موجه لقنبلة ذرية . اتذكرين عندما كتبت لك أن العمود قد جذب الصندوق بالمعدات ؟ وهكذا ف ... »

ودق الباب بحذر ، وأطلت رأس جيم باركنسون .

— عفوا يا سيدى ، لقد رأيت الضوء لديك مشتعلا ...

— ادخل يا جيم ، لماذا لا تنام ؟

— لا يراودني النوم بعد الدش ، ثم ان فليتشر لا يتركني أنام .

— فليتشر ؟ وماذا يريد ؟

— انه يرجوك ألا تفصله يا سيدى ، مهما كان فليس هناك أجر كهذا فى اى مكان آخر .

— اسمع يا جيم ، اننى استطيع أن أغفر أشياء كثيرة ، لكن هذا …

— اننى اعرف يا سيدى .. انت تقف الى جانب المساواة وما الى ذلك . انه مستعد لأن يعتذر للمهندس الايطالى .

فقال كرافتسوف بتعب، وقد أحس اخيرا بالرغبة فى النوم ، واظلمت عيناه :

— حسنا ، فليعتذر غدا أمام المجموعة الايطالية كلها ، وبحضور رجالنا .

فأجاب جيم بنبرة شك :

— سأبلغه .. حسنا ، طابت ليلتك .

ثم انصرف .

وسقط القلم من يد كرافتسوف ، وتحامل على نفسه حتى وصل الى الفراش وراح فى نوم عميق .

شدت الرافعة البخارية أخر كتلة فى القلب الدائرى من فوق ظهر « ايفان كولييين » العريض وحملتها فى الهواء ثم انزلتها ببطء الى الصندل الذى جره زورق بخارى نحو الطوف .

وكان عمال التركيب يستريحون وقد استلقى كل منهم على ظهر « ايفان كولييين » كيفما اتفق ، يدخنون ويتحدثون فى شؤونهم ، كما لو كان هذا يوما عاديا كأيام كثيرة غيره .

بيد انه لم يكن عاديا ، فاليوم ينتهى تركيب القلب الدائرى الذى سيحيط الطوف بحزام كهرومغناطيسى وستتجه مستثيراته نحو العمود مستعدة للهجوم .

وها هو ماروزوف قد خرج من المنشآت الداخلية وصعد الى سطح « كولييين » العلوى ، ومعه برنستاين الصغير وبراموليا فى معطف مطر ضخم ، وبعض مهندسى الكهرباء . وقفوا على الجانب الايمن ينتظرون الزورق ليقلهم الى الطوف .

وقذف كرافتسوف بعقب السيجارة فى الماء واقترب من ماروزوف :

— لقد سمعت يا فيكتور قسطنطينوفتش أن « اليراعة المضيئة » ستصل غدا ، اليس كذلك ؟

كان « اليراعة المضيئة » هو الاسم الذى اطلقوه على القنبلة الذرية الموجهة التى ستقطع العمود ، وقد ذاعت هذه التسمية .

فقال ماروزوف :

— انها فى الطريق ... يكاد يرافقها مجلس الأمن كله ، هذه الحبيبة .

— وددت لو ألقيت عليها نظرة .. لم أر ابدا قنبلة ذرية ...

— ولن تراها ... ليس هذا من شأنك .

— طبعا ... ليس لى الا حفر الآبار .

ضيق ماروزوف عينيه ونظر الى كرافتسوف .

— ماذا تريد منى يا الكسندر فيتاليفتش ؟

— لا شيء ... — واشاح بعينيه جانبا — وماذا استطيع أن أريد ؟ أن ننتهى من الأمر بسرعة ، ثم الى البيت ...

— لا ... دعك من المراوغة ... اننى أرى من أنفك الماكر أنك قد قررت شيئا ...

— ابدا يا فيكتور قسطنطينوفتش ..

— فلتصغ الى يا فتى ... أقول لك من الآن : لا تطلب منى شيئا ، ولا تحاول . لقد طلب الكثيرون . التشغيل سيكلف به الخبراء ، خبراء الذرة ، مفهوم ؟

— وماذا يفعل الخبراء ... الامر بسيط ... مجرد ان تفتح جهاز التوقيت ، ثم تعود أدراجك الى الزورق ...

— سيان .. عبثا تطلب .

— اننى لا اطلب شيئا ، ولكنى أظن أن الحق فى التشغيل يملكه ، فى المقام الاول ، اولئك الذين كانوا فى أخر نوبة حراسة على ظهر الطاوف ...

— حق السبق ؟

— لنفرض .

— وبما أن ماكفرسون مريض ، اذن لا يبقى سوى كرافتسوف ، ياله من تدبير بارع — وضحك ماروزوف ونظر الى ساعته — لماذا تأخر الزورق ؟

كان على أوفساد بالقرب منهما يتحدث مع براموليا ، وكان حديثهما هذه المرة فى أمور سامية . ولم يكن الشيلى يفهم كثيرا مما يقول الأوسطى العجوز ، ولكنه محافظة على المظهر كان يهز رأسه موافقا ومؤيدا وينفث من فمه ومنخاريه سحب دخان السيجار .

وسأل ماروزوف :
ـ ما الذى يقلقك يا على ـ أوفساد ؟
ـ اننى أسأل ايها الرفيق ماروزوف : من الذى سيجعل هذا القلب الدائرى يدور ؟
ـ لن يدوره احد .
ـ اتكون هناك عجلة ولا تدور ؟ ـ ومصمص بشفتيه مستغربا ـ اذن فلن تعمل .
ـ لماذا لا تعمل ؟
فقال الاوسطى بايمان :
ـ الآلة لابد أن تدور ، وهى تعمل عندما تدور الجميع يعرف هذا .
وضحك ماروزوف قائلا:
ـ ليس فى جميع الأحوال يا على أوفساد ـ خذ مثلا جهاز الراديو ، انه لا يدور .
وصمم على اوفساد على رأيه :
ـ كيف لا يدور؟ هناك صمامات وخلافه . ثم التيار الكهربائى ؟ البروتون .. الاليكترون .. كله يدور .
وأراد ماروزوف أن يوضح للعجوز طريقة عمل القلب الدائرى ، ولكن الزورق وصل فاستقله العلماء الى الطوف.

وقف ماروزوف فى مقدمة الزورق وقد ضيق عينيه اتقاء للهواء المعاكس . واخذ ينظر بتفكير الى الطوف وهو يقترب منهم . « الآله لابد أن تدور .. يبدو أنه على حق .. لو أن الطوف والقلب الدائرى كانا يدوران حول العمود ساعة قطعه لأمكننا الاستغناء عن المحولات الضخمة والتى ـ بالمناسبة ـ لن تكون جاهزة الا فى المرحلة الأخيرة . العمود بمثابة العضو الساكن ، والطوف مع القلب هو الدوار .. ينبغى التفكير فى الأمر وعمل الحسابات اللازمة .. لو فعلنا اذن لوفرنا وقتا كثيرا .. يمكن ربط السفينة بالطوف وجعلها تدور به ... » .
والتفت الى برنستاين :
ـ ما رأيك يا زميل فى فكرة لم تنضج بعد ولكنها طريفة ...

ـ ٣٤ ـ

« ... ما هذه الرسالة التى لانهاية لها ! كما لو كنت اتحدث اليك ، يا حبيبتى ، وأشعر لذلك بالسرور ، ولكنهم للأسف يقاطعوننى دائما .

الدنيا قامت وقعدت عندنا . فقد وصلت القنبلة الذرية — ونحن نسميها « اليراعة المضيئة » — وجاء معها من الدبلوماسيين والعسكريين ما يحجب عين الشمس . فأنت نفسك تعرفين أنه بعد تحريم التجارب النووية ، تعتبر هذه الحالة هى الحالة الأولى التى تستدعى تفجير واحدة من القنابل الذرية . ومن الطبيعى أن يهتم مجلس الأمن اعظم اهتمام ويرسل ممثليه الى هنا على عجل . والناس الآن على ظهر « فوكوكا » من الكثرة بحيث يذكر المنظر بيوم أحد صيفى على بلاج كونتسيفا . اتذكرين عندما كنا نذهب اليه بالقارب ؟ كان ذلك فى تلك الايام السعيدة التى كانت الارض فيها محتفظة بمعطفها المغناطيسى .

سنضع الجهاز مع « اليراعة المضيئة » على عربة وندفعها نحو العمود ، ومن ثم تلتصق به و ...

ها هم يقاطعوننى ثانية . لقد اتصل بى ماروزوف وطلب منى أن اذهب اليه ، بينما الساعة جاوزت منتصف الليل . ليلة سعيدة يا مارينا ! .. »

— ٣٥ —

كان هويل جالسا على المقعد ويشكل بأصابعه الطويلة أشكالا ما من قطعة الصلصال الصفراء . وجلست نورما همبتون تخيط بجوار المائدة ، ثم مدت يدها الى المصباح وخفضت ذبالته التى ترسل الدخان ، وسألت :

— كيف نتصرف مع هوارد يا حبيبى ؟

— كما تشائين .. انه يطلب منك أنت .

— لو أنه كان يطلب عشرين أو ثلاثين جنيها كما كان يطلب قبلا لما سألتك . كنت أرسلتها اليه وانتهينا . ولكن الصبى يطلب ...

فقاطعها هويل :

— الصبى فى الرابعة والعشرين .. فى مثل سنه لم اكن عالة على والدىّ ...

— انه يكتب يا هويل انه اذا لم يحصل على هذا المبلغ فسيفقد فرصة حاسمة فى مجرى حياته . لقد أراد ان يفتتح مع شابين من عائلتين محترمتين جدا « سكراتش كلوب » ، وهو شىء بدأ ينتشر الآن ، شىء يشبه مباريات

الفرسان بالدروع والرماح ، ولكن على الموتوسيكلات بدلا من الخيول ...

— كنت أظنه على الخيول . ولكن ما دام على الموتوسيكلات فلترسلى له شيكا على الفور .

— ارجوك لاتسخر منى . اذا أرسلت له هذا المبلغ فلن يبقى لدى شىء . كن اكثر جدية يا هويل . انه ابننا ...

— ابننا ! انه يخجل من أن اباه كان يوما ما حفارا عاديا فى الآبار ...

— أرجوك ياهويل ...

— انا عنيد وبخيل مثل جميع الهاى لاندرز * .. ولا بنس واحد ، اتسمعين ؟ لن يحصل منى على بنس واحد ، هذا العاطل !

— حسنا يا حبيبى ، فقط لا تقلق ، لا تقلق .

وقال هويل بعد صمت طويل :

— فلينتظر . لقد وضعت اسمه فى وصيتى .. فلينتظر ، ثم يفتح فيما بعد ناديه هذا ، عليه اللعنة !

وهزت نورما تاجها الذهبى وتنهدت ، ثم عادت الى

* هكذا يسمون سكان الجبال فى اسكتلندا .

الخياطة ثانية . وتحول الصلصال بين أصابع هويل الى وجه ضيق فكه الأسفل بارز بشدة ، ثم تناول هويل موسى صغيرة وحفر العينين وفتحتى الأنف والفم .

ودق باب القمرة ، ثم دخل كرافتسوف . كانت أساريره كأسارير شخص ربح توا مائة ألف .. مفتوح السترة ، شعره الكستنائى مشعث كشجيرات الغابة ..

وصاح وهو على العتبة :

— مساء الخير ! — وقال وهو يجاهد أن يحبس فى صوته رنة الفرح : — هنئنى يا هويل ! هنئينى يا مسز همبتون !

فسأل الاسكتلندى :

— ماذا حدث يا فتى ؟

فضحك كرافتسوف بسعادة :

— لقد كلفونى بالتشغيل.. اليس هذا رائعا؟ تمكنت من اقناع العجوز مع ذلك ! كلفونى أنا وجيم باركنسون ، أليس هذا رائعا يا هويل ؟

فدمدم هويل :

— اهنئك ، مع انى لا أفهم لماذا يفرحك هذا .

فقالت نورما وهى تمد يدها الى كرافتسوف مبتسمة :

— أما أنا فأفهم . اهنئك يا مستر كرافتسوف . طبعا ، هذا شرف كبير . سأرسل خبرا الى جريدتى . ومتى يبدأ التشغيل ؟

— بعد يومين .

وفكر كرافتسوف فى نفسه : « أكاد لا اعرفك يا مسز همبتون لكم كنت ملحاحة ، تعرفين الأخبار قبل الآخرين . والآن لا تبتغين شيئا سوى الجلوس هنا ... » .

ووضعت نورما اعمال الخياطة جانبا وشدت قامتها :

— أوه ، بعد يومين ! اعتقد أنه ينبغى على أن اكتب .. على العموم لابد أن « رويتر » أرسلت الى انجلترا خبرا رسميا ...

ونظرا لانقطاع الاتصال اللاسلكى فى العالم ، فقد أخذت وكالات الانباء الكبرى على عاتقها توصيل الاخبار على متن طائراتها النفاثة الخاصة .

واكد لها كرافتسوف أن طائرة وكالة انباء رويتر قد أقلعت صباحا كالمعتاد من ظهر « فيورييس » . فعادت نورما الى الخياطة من جديد .

وقال كرافتسوف بحيوية :

— سنجرى تجاربنا لمدة يومين ، وبعدها سيداتى سادتى ، بعدها نرفع « اليراعة المضيئة » الى الجو وندمر العمود ...

فقال هويل :

— أى شيطان جعلك تحشر نفسك فى هذا الأمر ؟ فليقم خبراء الذرة بذلك هم أنفسهم .

— انهم يقومون بذلك فعلا . سيجهزون كل شىء ، ثم نفتح أنا وجيم جهاز التوقيت . لقد أقنعت ماروزوف بعد لأى ، ولم يعارض توكوناغا ، وأقر ذلك مجلس الأمن ...

— حسنا ، حسنا ، هيا ! اجتهد من أجل الصحف ، وقبل التشغيل ادل بتصريح باهر !

وارتبك كرافتسوف قليلا وأنطفأ بريق فرحته فقال :

— هل حقا تفكر هكذا يا هويل ؟ أمن المعقول أن تظن بأننى أفعل ذلك من أجل ...

وصمت ، ولم يرد هويل ، وكانت أصابعه تهصر بعنف قطعة الصلصال .

فقال كرافتسوف :

— لا بأس .. طابت ليلكم !

-٣٦-

الصباح منعش ، والريح تلعب بالأعلام .

رفعت الأعلام الزاهية على اسطول السفن ، ورفرفت فى الهواء على ضوء البرق ... أعلام حمراء ، وأعلام بخطوط ونجوم ، واعلام بيضاء بدائرة حمراء ، وكثير وكثير غيرها ، وبينها بالطبع أعلام الأمم المتحدة الزرقاء .

وزمجر الرعد فوق المحيط ، وتراكمت السحب .

لم ير الناس هنا ضوء الشمس من زمن بعيد .. لكن النهاية اصبحت وشيكة ! ..

ووقف زورق انسيابى الشكل بجانب ظهر « فوكوكا — مارو » الابيض وهو يتراقص فوق الأمواج . عما قريب سيهبط اليه الكسندر كرافتسوف وجيم باركنسون . أما الآن فما زالا على ظهر سفينة القيادة يستمعان الى التعليمات الأخيرة .

وقال كبير المهندسين . هل وعيتما كل شىء جيدا ؟

وقال ممثل مجلس الأمن الوقور بلهجة رسمية :

— اتمنى لكم النجاح يا سادة !

وقال على أوفساد :

— يؤسفنى انهم لم يسمحوا لى بالذهاب معك .

وقال ماروزوف :

— لا تتأخروا يا أولاد ، ما أن تفتحوا الجهاز حتى تسرعوا فورا الى الزورق ، ثم الى هنا .

وقال توكوناغا بهدوء :

— حظا طيبا .

وهبط كرافتسوف وباركنسون الى الزورق تقرقع بزتاهما الواقيتان الرماديتان الزرقاوان . وها هو الزورق يجرى مبتعدا ، جارا خلفه شاربين طويلين ، والناس على ظهر « فوكوكا » تصيح وتلوح بايديها ، وعلى السطوح العلوية فى السفن الاخرى يحتشد أيضا أناس لا حصر لهم يلوحون ويهللون ، وعلى ظهر « فيوريس » تصدح أنغام الاوركسترا بآلاتها النحاسية ، ومن على ظهر « ايفان كوليبين » انطلقت صيحة « هورا ... » ممتدة مدوية .

ويحاول كرافتسوف أن يخفى قلقه الفرح بعبارة مازحة فيقول :

— هل سبق أن ترأست استعراضا يا جيم ؟

فقال جيم الذى يبدو دائما عميق الغور كما لو كان غير مبال :

— نعم يا سيدى . عند ما كنت صبيا ، كنت أعمل
راعى بقر لدى أحد اصحاب المزارع المجانين . وكان
يقيم فى مزرعته استعراضات للبقر .

ثم يلوح الطوف فوق سطح المحيط المنحنى ..
يظهر فى البداية طرفه العلوى ، ثم هيكله كله الذى فقد
منذ زمن بعيد هيئته البيضاء الجميلة ، وأصبح ملوثا
بالبقع وممزقا وتعلوه انتفاخات بنية . ثم ها هو جانب
الطوف العالى يحجب البحر والسماء . ويدور الطوف
ببطء حول العمود الاسود فقد ثبتت اليه سفينة ذات
دفة ساكنة ومعقوفة ، وقد أخليت من بحارتها ، بينما
تمد آلات أتوماتيكية افرانها بالوقود .

ويتوقف الزورق عند ميناء الطوف .

ويشبك قائد البحارة خطافه بمهارة فى حاجز الميناء
ويقول بلغة انجليزية ركيكة :

— اليوم هو يوم عظيم .

ويبتسم باحترام .

ويصعد كرافتسوف وباركنسون الى الميناء ، ويسيران
نحو السلم بينما تقرع بزتاهما المصنوعتان من الألياف
الزجاجية مع كل خطوة يخطوانها . وعبر زجاج الخوذة

المحكمة يبدو لهما كل ما يحيط بهما ملونا باللون
الاصفر .

ويصعدان على السلم الحلزونى .. الصعود صعب بدون
المصعد ، خاصة والارتفاع ثلاثون مترا . وتهتز تحت
اقدامهما الدرجات الحديدية الضيقة . يصعدان ،
وكلما ارتفعا ، كلما اكثرا من الوقوف على ساحات
السلم ليلتقطا أنفاسهما . ويلوح لهما الزورق الأبيض
من هذا الارتفاع كلعبة أطفال صغيرة من البلاستيك .

وأخيرا ها هو السطح العلوى .

يسيران ببطء بحذاء شرفة صالون الاستراحة الخاوية ،
بحذاء صف القمرات المفتوحة الأبواب ، بحذاء
القناطر الخشبية والمعدنية المكدسة فى فوضى ، والتى
أصبحت الآن بلا فائدة . وتقف الرافعة البخارية محنية
عنقها الطويل كأنها تحييهما . بيد أنه لا يجب أن
ينظرا الى المحيط فسيدور رأساهما ، اذ أن الأفق يدور .

وتغشى أبصارهما من وميض البرق المستمر ، الذى
يضرب العمود الأسود بعنف فوق رأسيهما تماما .

ويقول كرافتسوف لنفسه : « يبدو أنه اتسع اكثر » ،
يقصد بذلك مجال العمود الغامض . وليتأكد من ذلك

يخطو بضع خطوات نحو مركز الطوف ، ثم يعود الى طرفه . نعم ، العودة أصعب .

فعلا ، لقد اتسع المجال ، فجهاز المراقبة الموضوع على عمود صغير بجوار العربة ، يؤكد ذلك .

ثم ها هى العربة ، والصندوق الضخم الموضوع فوقها يشبه الطوربيد . وهكذا لم ير كرافتسوف بعينيه القنبلة الذرية ، فقد نقلت « البراعة المضيئة » الى الطوف فى صندوق خاص به جهاز يوجه الانفجار الى المستوى الأفقى ، ولا يرى من الخارج الا فوهات الأجهزة المغطاة بشبكات نحاسية ، بينما تضئ عين جهاز الأمان بلون أخضر بشوش مثلما كانت تضئ مساء الأمس بعد يوم طويل شاق من التجارب والضبط والاختبارات .

وتحت هيكل العربة ثبتت أنبوبة محشوة بحلقات مضغوطة من وقود الصواريخ الجاف ومحرك من أبسط انواع المحركات النفاثة . بالأمس دفع محرك مشابه منصة كهذه ، وقد وضعت عليها كتلة من المعدن بدلا من القنبلة ، فانزلقت العربة على القضبان نحو مركز الطوف وجذبها العمود نحوه فازدادت سرعة اندفاعها ، حتى اصطدمت بجانبه الاسود والتصقت به ، ثم انطلقت معه الى أعلى بسرعة طائرة ركاب .

كان مشهدا مرعبا !

وها هما الآن يفتحان بطاريات الاتصال ، فتحدث القرقعة المألوفة فى سماعات الخوذة .

وينادى كرافتسوف :

— هل تسمعنى ؟

— نعم ... هل نبدأ ؟

— فلنبدأ !

قبل كل شيء ينبغى نزع زناقات فرامل الأمان . آه ، ليس ذلك بمثل هذه السهولة . لقد مالت عليهما العربة بعجلاتها فيضطران الى تناول « العتلات » ودفع العربة الى الوراء قليلا .

لقد نزعا الفرامل من القضبان .

بعد ذلك يحول كرافتسوف بعناية عقارب جهاز التوقيت الأول المتصل بالمحرك النفاث ، ويعطى اشارة لجيم فيضغط هذا على زر التشغيل .

وتنطفئ العين الخضراء ، وتشتعل أخرى حمراء .

انتهى كل شيء . بعد أربع ساعات بالضبط سيعمل جهاز التوقيت فيشتعل المحرك النفاث ويدفع العربة الى العمود الأسود . وعندما تصطدم العربة بالعمود يعمل جهاز

التوقيت الثانى المتصل بجهاز تفجير القنبلة الذرية ، ويجعله يفجرها بعد سبع دقائق . فبعد سبع دقائق يكون العمود الأسود قد حمل الصندوق بالقنبلة الى ارتفاع ستين كيلومترا ، عندئذ يعمل جهاز التفجير وتنسف « البراعة المضيئة » العمود حسب الأصول . ويقطع الانفجار الموجه العمود وتنفتح دائرة القصر فتعمل الاجهزة الاتوماتيكية على الفور . وتدخل مجالات القوة الجبارة التى تنبعث من الجهاز على الطوف فى تفاعل محسوب مع مجال العمود وترغمه على تغيير اتجاهه . ويتوقف العمود عن الصعود . أما الجزء الأعلى منه الذى انفصل بعد الانفجار فسيبقى فى الفضاء ، فهو قد أتم ما يزيد عن دورة حول الأرض ، ولا يزعج وجوده أحدا .

وفى هذا المساء ستضىء جميع أنوار الزينة فى كل المدن ... أوه ، لو أجد نفسى فى موسكو هذا المساء ! ...

لقد انجز العمل المطلوب وبوسعه الآن ان ينصرف. فخلال أربع ساعات يمكنه أن يعود بسهولة الى « فوكوكا — مارو » ، بل ويتناول الشاى مع على أوفساد .

ولكنه يبطئ . ويرفع درع الخوذة لكى يتأكد بأذنيه

من أن جهاز التوقيت يعمل . ويفعل جيم نفس الشىء . ويلفح وجهيهما هواء حار .

تك ، تك ، تك ...

جهاز التوقيت يحصى الثوانى بدقة وانتظام على حافة سطح الطوف الواسع الخاوى .

— حسنا ، هيا بنا يا جيم .

وفجأة يتداخل صوت جديد مع دقات جهاز التوقيت .. انها أيضا دقات ، ولكنها لاتتطابق مع الدقات الأولى .. انها أخفت منها وأسرع ، وذات رنين موسيقى خفيف ...

لم يستطع أحد أن يعرف أبدا لماذا اشتغل جهاز التوقيت المتصل بجهاز تفجير القنبلة من تلقاء نفسه . كان ينبغى أن يعمل بعد أربع ساعات ، ومن لحظة اصطدام العربة بالعمود الأسود . أما أن يعمل الآن ...

ويتطلع كرافتسوف الى باركنسون بلهفة ، فيتراجع هذا الى الوراء ببطء ، وترتعش شفتاه ، ويطل الرعب من عينيه ...

سبع دقائق ! سبع دقائق فقط ، وبعدها تضرب شحنة التفجير بقوة قطعتى البلوتونيوم بعضهما ببعض ، ثم تدمر شحنة الطاقة الهائلة الطوف ومعه الجهاز ...

وربما لا يتأثر العمود الأسود الذى يبعد عن هنا مائتان وخمسون مترا ، لن يقطعه الانفجار ، اذ ينبغى أن يكون بجواره تماما !

دن ، دن ، دن ...

وتدوى دقات جهاز التوقيت فى المخ تماما .

هل يفك جهاز التوقيت ويوقفه ؟ .. فى سبع دقائق ؟ هذا هراء ....

هل يهرب الى الزورق ؟ لن نستطيع الابتعاد الى المسافة اللازمة للأمان ...

لامهرب .. لا مهرب .

ماذا يفعل الناس بعد ذلك بدوننا ، بدون الطوف ؟ هل يبنون طوفا جديدا ، وجهازا جديدا ... ولكن الاشعة الكونية لن تمهلهم ...

— كلا !

— كلا !

— كم مر من الزمن ؟ نصف دقيقة ؟

— دن .. دن ..

وينتزع كرافتسوف قدميه من مكانهما ويضع يديه فى ظهر العربة ويدفع بقوة .

— هيا يا جيم ، بسرعة !

ويضع جيم يديه بجواره ويحاولان دفع العربة الثقيلة ، ولكنها لا تتحرك .. ويحاولان مرة أخرى .. وأخرى : ويصيح كرافتسوف بصوت أبح :

— هوب .. هوب ..

— لقد تحركت !

تحركت العربة من مكانها وانزلقت على القضبان ، وسارت ... وركضا خلفها يدفعانها بأيديهما .. أسرع ! لا يستطيعان التنفس .. الهواء يمزق حلقيهما بناره اللافحة .. لم يتمكنا من انزال درع الخوذة ...

ارتفعت العربة .. العمود يجذبها اليه .. بعد قليل ستسير من تلقاء نفسها ، ثم يشدها العمود ويطير بها الى أعلى ، الى أعلى ، بسرعة حوالى تسعة كيلومترات فى الدقيقة ... لوحة عقارب جهاز التوقيت أمام عينى كرافتسوف .. لقد ضاعت دقيقتان فقط .. ما زال هناك وقت .. ستنفجر هناك فى الأعلى .. ليس على ارتفاع ستين كيلومترا .. لا بأس .. ليكن على ارتفاع أربعين ...

« لن يصيبنا شيء ، سنغطى وجهينا ونرتمى على السطح.. الانفجار على مستوى أفقى وعلى ارتفاع كبير ...

الاشعة ؟ اننا نرتدى بزات واقية ، والبحارة على الزورق
أيضا فى بزات واقية .
لن يصيبنا شيء علينا فقط أن ندفعها .. هيا .. قليلا ..
لا أريد أن أموت ... »
ودوى صوت جيم المكبوت :
ــ كفى .. ستسير وحدها ...
ــ هيا قليلا .. هوب !
وركض جنونى ! يتعثر جيم فى رأس مسمار بارز
يسقط اثناء الجرى .. ألم حاد فى يده .
يصرخ وهو يختنق :
ــ قف !
ولكن كرافتسوف يركض ويركض ..
ــ الكسندر ! قف !
ماذا حدث له ؟ لماذا لا ...
وتنبثق فى رأس جيم فكرة رهيبة :
ــ آ ــ آ ــ آ ...
ويدق القضبان بيده السليمة بجنون ، ويزحف مثبتا
عينيه على بزة كرافتسوف المبتعدة .
لم يعد كرافتسوف يجرى خلف العربة .. لقد شدته

اليها فلا يستطيع الانفصال عنها ، وقدماه تتدليان
وتتخبطان على السطح بلا حول ..
انه يسقط أفقيا .. نفس الشعور بأنك تسقط فى
هوة ...
ــ الكسا ..! ... ا .. ا ..
وتطبق الغصة على حلق جيم .
العربة اسفل العمود تلفها سحابة بخار .. ثم تلوح
البزة الرمادية الزرقاء . صدمة مكتومة .
يغلق جيم عينيه اللتين لسعهما الهواء اللافح .
وفجأة يتذكر أولئك الذين يقفون على الزورق . فيقفز
ويركض نحو حافة الطوف وهو يختنق .
ويقفز فوق الحاجز ويفتح فمه ويغلقه دون صوت...
الصرخات لاتخرج من فمه ، الهواء لايسعفه .
ويلمحه البحارة اليابانيون على الزورق فيرفعون اليه
رؤوسهم .
وأخيرا تنطلق الصيحة :
ــ الجميع الى اسفل ! تحت السطح ! اغلقوا الفتحة !
انزلوا الخوذات ! وجوهكم الى اسفل !
لقد اخذوا يركضون هناك فى الاسفل .

ويتنزع جيم فتحة السقف بقوة ويزأر من الألم فى ذراعه ويقفز فى الفتحة . الجو هناك خانق مظلم . ويغلق الفتحة .

وفى هذه اللحظة ينتفض الطوف ، ويصل الى سمعه صوت الانفجار ممتدا مكتوما ، قادما من بعيد .

— ٣٧ —

الاعلام منكسة على صوارى السفن .

وصالون « فوكوكا — مارو » يتلألأ بالأضواء الكهربائية . هنا اجتمع كل أبطال القصة الذين تعرفنا عليهم .

الا هويل ونورما همبتون .. يبدو أنهما فى قمرتهما . ولا يوجد ايضا جيم باركنسون . فعندما توهجت السماء ودوى الانفجار ، أرسلت الى الطوف سفينة تحمل المهندسين الذريين وفرقة من المتطوعين ؛ فوجدوا فى قمرة الزورق الصغيرة ثلاثة من البحارة اليابانيين الخائفين الذين لا يعرفون شيئا سوى ان شخصا فى الحلة الواقية ظهر على الطوف قبل الانفجار وصرخ فيهم محذرا . وصعد المتطوعون فى بزّات واقية الى سطح الطوف

وفتشوه جيدا . وبينت عدادات « جيجر » المثبتة على بزاتهم أن مستوى الاشعاع ليس قويا الى هذا الحد . وفتشوا عدة ساعات ، وعندما فقدوا الأمل فى العثور على كرافتسوف وباركنسون ، نزع المتطوع تشولكوف غطاء احدى فتحات السقف وأضاءها بالمصباح فرأى شخصا فى بزة واقية . كان باركنسون فى اغماءة عميقة ؛ ولم يعد لوعيه الا وهو فى قمرة سفينة الانقاذ أثناء عودتهم ، ولكنه لم ينبس بكلمة ؛ وكانت عيناه تدلان على الجنون . ولم يذهب عنه ذهول الصدمة الا فى المركز الطبى على ظهر « فوكوكا — مارو » فتذكر ما حدث . عندئذ اوقفوا عمليات البحث عن كرافتسوف ، ووضعوا يد جيم المكسورة فى الجبس .

مات الكسندر كرافتسوف .

الصمت يلف الصالون . وبين الحين والحين يدخل المضيف حاملا صينية سوداء لامعة عليها اكوام من البرقيات ، فيضعها على المائدة أمام ماروزوف وتوكوناغا . برقيات التهنئة تنهال من جميع القارات .. تهنئة .. وتعزية . ويتفحص ماروزوف البرقيات ، ويقرأ بعضها بصوت هامس . ويجلس الاكاديمى اليابانى دون حراك

في كرسيه مغمضا عينيه براحة يده . يبدو المرض على هيئته اليوم بشكل خاص .

ويفتح الباب بعنف . على العتبة يقف هويل ماكفرسون . قميصه مفتوح على صدره والسترة ملقاة باهمال على كتفيه ، وفكه الأسفل بارز بعناد وتحد .

ويقول :

— هالو ! — ويدور برأسه فى الصالون بنظرة كراهية ، ويرن صوته أعلى من اللازم — طاب مساؤكم يا سادة !

ويتجه نحو الطاولة التى يجلس اليها رؤساء العملية . ويعتمد بيديه على الطاولة ويقول لتوكوناغا نافثا فى وجهه رائحة الروم :

— كيف حالك يا سيدى ؟

ويرفع اليابانى رأسه ببطء ، ويبدو وجهه مرهقا شاحبا مصفرا ، تعلوه شبكة كثيفة من التجاعيد .

— ماذا تريد ؟

صوت توكوناغا أيضا مريض .

— أريد .. أريد أن أسألك .. أى شيطان جعلك ترسل هذا الفتى الى الموت ؟ !

لحظة صمت مطبق .

— كيف تجرؤ يا سيد ماكفرسون ! — وينهض ماروزوف من كرسيه غاضبا — كيف تجرؤ ...

— اسكت ! — ويضرب بيده كومة البرقيات فيلقيها من على الطاولة — كان ينبغى سجنه .. وضعه فى غرفة واغلاقها بالمفتاح ...

— اهدأ يا ماكفرسون ! تمالك نفسك ، واعتذر فورا للأكاديمى تكوناغا ...

فيقول توكوناغا بصوت عال :

— لا داعى . السيد ماكفرسون على حق . ما كان ينبغى على أن أوافق . كان ينبغى أن أذهب أنا .. لأننى.. لان الامر بالنسبة لى سيان ...

ويدوى صوته ، ويعود يغلق عينيه براحته .

وتقتحم الصالون نورما همبتون .

— هويل .. يا الهى .. ماذا جرى لك .. — وتنتزع يديه من المائدة وتقوده نحو الباب — لقد جننت .. أنك تريد أن تقتل نفسك ...

وعندما يصل هويل الى الباب يتهالك مستندا الى قائمة الباب ، ويهتز ظهره من الأنين الوحشى الذى يطلقه . وتقف نورما بجواره مرتبكة وتربت على كتفه .

ويقترب على اوفساد من هويل ويقول متحاملا :
— لا داعى للبكاء يا انجليزى . لست فتاة .. أنت رجل .. كان كرافتسوف صديقى أيضا .. صديقنا كلنا .

ويساعد نوروما على سحب هويل من تحت ابطيه ويخرجان به .

ويعود الهدوء يخيم على الصالون .

وينتفض توكوناغا بعصبية من أزيز التليفون المفاجىء .
ويرفع ماروزوف السماعة ويصغى . ثم يقول ناهضا :
— تم الاتصال بموسكو .

وينهض توكوناغا أيضا ، ويخرج من الصالون فى صحبة ماروزوف .

ويقابلهما فى غرفة اللاسلكى اولوفانيكوف .

ويقول بصوت خافت وهو يقدم السماعة لماروزوف :
— انها عندنا فى هيئة تحرير « الازفستيا » .
— مارينا سيرغيفنا ؟ ماروزوف يتكلم . هل تسمعيننى ؟ ... اننى اعرف يا مارينا سيرغيفنا أن كلمات العزاء لا جدوى منها ، ولكن اسمحى لى أنا العجوز ، أن أقول لك اننى أفخر بزوجك ...

* * *

تلك هى القصة .

وربما يبدو لكم غريبا أن يستخدم الناس لقطع العمود الاسود شيئا غريبا وخطرا كالقنبلة الذرية . ولكن لاتنسوا أن هذه الحادثة قد وقعت منذ نصف قرن مضى ، فلم يكن هناك آنذاك أجهزة الاشعاع الغرافيكوانتم . ثم ان الناس وقتها كانوا قد بدأوا فقط يخمنون كنه المجال الواحد .

وماذا حدث بعد ذلك ؟ اذا كنتم قد نسيتم فلتديروا أشرطة التسجيل التعليمية للصف الرابع ، وسوف تذكركم بأن رائدى الفضاء ميشلاييف واريرا قد خرجا الى مدار يعادل حلقة العمود الأسود المقطوعة والتى أصبح اسمها « دائرة كرافتسوف » . وجعلا سرعة سفينتهما تعادل سرعة الدائرة ، وخرجا من السفينة فى بزات الفضاء ، وثبتا على طرفى الحلقة المنفرجين أول أجهزة ارسال للمحطات الاتوماتيكية .

والآن توجد على دائرة كرافتسوف محطات خارج الأرض للقطارات الصاروخية ، ومراكز للاتصال الفضائى ، واشياء أخرى كثيرة . وانتم تعرفون كل هذا جيدا .

أما الآن وبعد أن تعرفتم على الكسندر كرافتسوف عن كثب ، فلتتطلعوا مرة أخرى الى صورته ، المنشورة فى كتاب الجيوفيزياء ، فى القسم الذى يتناول دائرة كرافتسوف . ستجدونه شابا عاديا ، أليس كذلك ؟ لم يكن أبدا يفكر بأن يصبح بطلا .

لكنه فقط كان ينسى نفسه بسهولة ، عندما يفكر فى الآخرين .

سرطان البحر يغزو الجزيرة

ا. دنيبروف

صاح كوكلينغ فى البحارة :

— ايه ... كونوا اكثر حذرا !

وكان هؤلاء يقفون فى المياه حتى وسطهم وينزلون صندوقا خشبيا متوسط الحجم من القارب وهم يحاولون سحبه على حافتها .

كان هذا آخر صندوق من الصناديق العشرة التى جاء بها المهندس الى الجزيرة .

واضاف كوكلينغ متأففا :

— يا له من حر ... انه الجحيم بعينه !

ومسح رقبته الحمراء الغليظة بمنديل فاقع اللون . ثم خلع قميصه المبلل بالعرق وألقى به على الرمال وقال :

— انزع ملابسك يا باد، فلا يوجد هنا قوم متحضرون.

ونظرت بكآبة الى السفينة الشراعية الصغيرة التى تتأرجح

ببطء فوق الامواج على بعد كيلومترين من الشاطئ .
ستأتى مرة اخرى لتحملنا من هنا بعد عشرين يوما .

وقلت لكوكلينغ وانا اخلع ملابسى :

— اى شيطان جعلك تأتى بماكيناتك الى هذا الجحيم ؟ فى مثل هذه الشمس المحرقة سيكون من الممكن غدا ان نلف من جلدك السجائر .

— لايهم . سنكون بحاجة شديدة الى الشمس . وبالمناسبة انظر ... نحن الان فى منتصف النهار تماما ، وها هى الشمس فوق رأسك بالضبط .

فدمدمت دون ان احول عينى عن السفينة الشراعية « غالوبكا » :

— فى خط الاستواء دائما هكذا ... تجد ذلك مكتوبا فى جميع كتب الجغرافيا المدرسية .

واقترب البحارة من المهندس ووقفوا أمامه صامتين ، فدس هذا يده فى جيبه على مهل ثم اخرج رزمة من النقود ، ومد لهم عدة ورقات مالية قائلا :

— هل هذا يكفى ؟

وهز أحدهم رأسه موافقا .

— اذن يمكنكم أن تنصرفوا وتعودوا الى السفينة .

لاتنسوا ان تذكروا القبطان هيل بأننا ننتظر عودته بعد عشرين يوما .

ثم التفت الىّ قائلا :

— هيا نبدأ يا باد ... اننى لا أطيق الانتظار .

فسددت نظراتى الى عينيه مباشرة وقلت :

— اذا أردت الصراحة ، فانا لا اعرف سبب مجيئنا الى هنا . اننى اعرف طبعا انك ربما تحرجت من ان تحكى لى كل شىء بالتفصيل عندما كنا هناك ، فى الادميرالية . ولكنى اعتقد انه من الممكن ان تخبرنى الان .

وتقلص وجه كوكلينغ ، ثم نظر الى الرمال وقال :

— طبعا ممكن . ولولا ضيق الوقت لاخبرتك ونحن هناك . شعرت انه يكذب ، ولكنى لم اقل له شيئا ، بينما ظل هو واقفا يحك رقبته الحمراء براحته السمينة . كنت اعرف انه يفعل ذلك دائما عندما يريد ان يختلق شيئا .

ولكنى كنت الان مستعدا حتى لسماع هذا .

— الواقع يا باد ان العملية عبارة عن تجربة طريقة لاختبار نظرية هذا العالم ... ما اسمه ...

وتهرب من الكلام ونظر الى عينى مستطلعا ، فقلت :

— من ؟

— هذا العالم الانجليزى ... يا للشيطان .. لقد نسيت اسمه ... ها ... تذكرت ... تشارلز دارون .

اقتربت منه تماما ووضعت يدى على كتفه العارية وقلت :

— اسمع يا كوكلينغ . لا بد انك تعتبرنى غبيا بلا عقل ولا أعرف من هو دارون . كفى كذبا وقل بصراحة لماذا نزلنا هذه الرقعة الملتهبة وسط المحيط . وارجوك الا تذكر اسم دارون مرة اخرى .

فقهقه كوكلينغ وقد فغر فمه المملوء بالاسنان الاصطناعية . وابتعد حوالى خمس خطوات ثم قال :

— ومع ذلك فأنت أحمق يا باد . اننا سنختبر هنا دارون بالذات .

فسألته وقد اقتربت منه مرة اخرى ، وفى صدرى يغلى الحقد على هذا البدين ذى الجسد اللامع بالعرق :

— ولهذا بالذات جلبت الى هنا عشرة صناديق مملوءة بالحديد ؟

— نعم .

وكف عن الابتسام ثم أضاف :

— اما فيما يختص بمسؤولياتك ، فعليك كل قبل شىء ان تفتح الصندوق رقم واحد وتستخرج منه الخيمة والمياه والمعلبات والادوات اللازمة لفتح الصناديق الاخرى .

كان كوكلينغ يتكلم بنفس الطريقة التى كان يتكلم بها فى ميدان التدريب عندما عرفونى به . كان فى ذلك الحين يرتدى بدلة عسكرية .. وكنت أنا أيضا فى نفس الزى .

واجبت من خلال اسنانى المطبقة :

— حسنا .

واقتربت من الصندوق رقم واحد .

بعد حوالى ساعتين كنا قد نصبنا الخيمة الكبيرة على الشاطىء حيث نزلنا . وحملنا اليها مجرفة وعتلة ومطرقة وعدة مفكات وازميلا واداة أخرى للبرادة . ووضعنا فى الخيمة أيضا حوالى مائة علبة من الطعام المحفوظ وخزانات بها مياه عذبة .

ورغم أن كوكلينغ كان هو الرئيس ، الا انه كان يعمل كالبغل . لقد كان بالفعل يتحرق شوقا الى بدء

التجربة . ولم نلاحظ ونحن منهمكان فى العمل كيف أقلعت السفينة وغابت خلف الأفق .

بعد العشاء فتحنا الصندوق رقم اثنين ، فوجدنا فيه عربة عادية ذات عجلتين تشبه تلك العربات التى تستخدم على أرصفة المحطات لنقل متاع الركاب .

واقتربت من الصندوق الثالث ، لكن كوكلينغ استوقفنى قائلا :

— دعنا أولا ننظر الى الخريطة ، فعلينا أن ننقل محتويات الصناديق الباقية كلها الى أماكن مختلفة .

فنظرت اليه مندهشا ، فقال موضحا :

— هكذا تستدعى التجربة .

كانت الجزيرة مستديرة ، تشبه طبقا مقلوبا ، بها خليج صغير فى الجهة الشمالية ، أى فى المكان الذى نزلنا فيه . ويحيط بالجزيرة شاطئ رملى عرضه حوالى خمسين مترا . وتلى هذا الحزام الرملى هضبة غير مرتفعة مغطاة بعشب قصير يابس من شدة الحر .

ولم يكن قطر الجزيرة يتجاوز ثلاثة كيلومترات . وكان على الخريطة عدة علامات بالقلم الأحمر ، بعضها على امتداد الشاطئ الرملى ، والأخرى فى الداخل .

وقال كوكلينغ :

— علينا أن ننقل الأشياء التى سنستخرجها من الصناديق الآن الى هذه الأماكن .

— وهل هى أجهزة قياس ؟

— كلا ... قالها المهندس وضحك ضحكته البغيضة التى يرسلها كلما كان يعرف شيئا يجهله الآخرون .

كان الصندوق الثالث ثقيلا الى درجة لا تصدق ، وظننت ان به ماكينة مصنع ضخمة . ولكن ما ان تناثرت منه عدة الواح حتى كدت أصرخ من الدهشة . فقد أفلتت منه الواح وقضبان معدنية من مختلف الأشكال والأحجام . لقد كان الصندوق محشوا بالقطع المعدنية المعدة للتشغيل .

— قد يخيل للمرء أننا سنلعب لعبة المكعبات ! صحت وأنا أقلب القطع المعدنية المستطيلة والمكعبة والمستديرة والكروية .

فأجاب كوكلينغ :

— لا أظن .

وانشغل بالصندوق التالى .

ووجدت الصناديق التالية ، من الرابع حتى التاسع مملوءة بنفس القطع المعدنية المعدة للتشغيل .

وكانت من ثلاثة أنواع : رمادية ، وحمراء ، وفضية . فعرفت دون جهد أنها مصنوعة من الحديد والنحاس والزنك .

وعندما هممت بفتح الصندوق العاشر قال كوكلينغ :

— سنفتحه بعد أن ننقل هذه القطع الى مختلف انحاء الجزيرة .

وقضينا الأيام الثلاثة التالية فى توزيع القطع المعدنية فى الجزيرة بواسطة العربة . وكنا نضعها اكواما صغيرة ، بعضها نتركه فوق الرمال . والبعض الآخر كنت أدفنه حسب تعليمات المهندس . وفى بعض الكومات كنا نضع القضبان المعدنية من جميع الانواع ، وفى البعض الآخر نضع قضبانا من نوع واحد .

وعندما انتهينا من هذه العملية عدنا الى الخيمة وشرعنا فى فتح الصندوق العاشر .

وامرنى كوكلينغ :

— افتحه ، لكن بحذر .

كان هذا الصندوق اخف وزنا من الصناديق الاخرى بكثير وأصغر حجما .

كانت به نشارة خشب مضغوطة وفى وسطها لفة مغلفة باللباد والورق المشمع . وفتحنا اللفة .

ووجدنا أمامنا جهازا غريب الشكل .

كان يشبه للوهلة الأولى لعبة أطفال معدنية على شكل سرطان البحر . لكنها لم تكن مجرد سرطان . فبخلاف الأرجل الست الجانبية ، كان له فى المقدمة زوجان من الأذرع القابضة الرفيعة تختبئ اطرافها فى « فك » بارز الى الأمام نصف مفتوح لهذا الحيوان الكريه وفى تجويف على ظهره كانت تلمع مرآة بيضاوية صغيرة من معدن مصقول فى وسطها بلورة حمراء قاتمة . وكان لهذا الحيوان ، خلافا للسرطان اللعبة زوجان من الاعين ، زوج فى المقدمة ، وآخر فى المؤخرة .

وظللت انظر الى هذا الشىء طويلا وأنا لاافقه كنهه .

وبعد صمت طويل سألنى كوكلينغ :

— هل يعجبك ؟

وهززت كتفى ثم قلت :

— يبدو فعلا أننا جئنا لنلعب لعبة المكعبات ونلهو بلعب الاطفال .

ولكن كوكلينغ قال بفخر :

— انها لعبة خطرة . وسترى الآن بنفسك. ارفعه وضعه على الرمل .

كان السرطان خفيفا لا يزيد وزنه على ثلاثة كيلوغرامات . وكان يحفظ توازنه جيدا فوق الرمل .

وسألت المهندس بتهكم :

— حسنا ، وماذا بعد ؟

— لننتظر قليلا حتى يسخن .

وجلسنا على الرمل وأخذنا نراقب هذا الحيوان المعدنى الشائه . وبعد حوالى دقيقتين لاحظت أن المرآة الصغيرة على ظهره أخذت تدور ببطء فى اتجاه الشمس .

فصحت وأنا انهض واقفا :

— أوه ، يبدو أن الحياة اخذت تدب فيه !

وعندما كنت أنهض سقط ظلى عفوا على هذه الآلة فحرك السرطان أرجله بسرعة وقفز مبتعدا عن الظل الى الجانب المشمس . ومن شدة المفاجأة قفزت جانبا قفزة هائلة .

فقهقه كوكلينغ :

— أرأيت اذن هذه اللعبة ؟ ماذا ، هل فزعت ؟

ومسحت العرق من على جبينى :

— بالله يا كوكلينغ هلا قلت لى ماذا سنفعل به هنا؟ لماذا جئنا الى هذا المكان ؟

ونهض كوكلينغ ايضا واقترب منى وقال بلهجة جادة :

— لنختبر نظرية دارون .

— ولكن تلك نظرية بيولوجية ، نظرية الانتخاب الطبيعى والتطور وما الى ذلك .

— بالضبط . وبالمناسبة ، انظر ، ها هو بطلنا قد ذهب ليشرب .

أصابنى الذهول . لقد زحفت الدمية نحو الشاطئ وغرست فيه خرطومها الصغير وأخذت على ما يبدو تسحب الماء الى جوفها . وبعد ان ارتوت عادت فوقفت تحت الشمس دون حراك .

وتطلعت الى هذه الآلة الصغيرة وشعرت نحوها باشمئزاز غريب مقرون بالخوف . وخيل اليّ لاول وهلة أن هذا السرطان المعدنى الشائه فيه شيء ما يذكرنى بكوكلينغ نفسه .

وبعد فترة من الصمت سألت المهندس :

— هل انت الذى اخترعه ؟

فدمدم وهو يتمدد على الرمل :

— آها ..

واستلقيت انا ايضا وثبت عيني على هذا الجهاز الغريب . كان يبدو الآن جامدا بلا حياة .

وزحفت على بطني نحوه وأخذت اتفحصه عن قرب .

كان ظهره عبارة عن سطح نصف اسطوانة ذات جانبين مسطحين من الأمام والخلف ، فى كل منهما فتحتان تشبهان العينين ، ومما يدعم هذا الانطباع أنه كانت هناك بلورات لامعة خلف الفتحات داخل جسم السرطان . وكان يبدو تحت جسمه لوح مسطح هو بطنه . وعلى ارتفاع قليل من اللوح ظهرت ثلاثة أزواج من الأرجل الكبيرة وزوجان من الأرجل الصغيرة ذات المقابض .

ولم يكن يرى ما بداخل السرطان .

وكنت أحاول وانا اتفحص هذه اللعبة أن أفهم سر هذا الاهتمام الذى أولته الادميرالية لها ، مما دفعها الى تجهيز سفينة خاصة وارسال بعثة الى هذه الجزيرة .

وبقينا أنا وكوكلينغ راقدين على الرمل حتى مالت الشمس نحو الأفق فامتدت ظلال الشجيرات البعيدة وسقطت على السرطان المعدنى ، فما كان منه الا أن تحرك قليلا فأصبح تحت أشعة الشمس ثانية . ولكن

الظل أدركه هناك ، فزحف السرطان بحذاء الشاطئ هابطا شيئا فشيئا نحو الماء الذى كانت اشعة الشمس لا تزال تغمره . وبدا ان حرارة الشمس شيء ضرورى جدا له .

ونهضنا وسرنا وراء السرطان الآلى على مهل .

وهكذا طفنا بالجزيرة تدريجيا حتى وجدنا أنفسنا فى الجهة الغربية .

فى هذه المنطقة ، وبجوار الشاطئ تماما ، كانت توجد كومة من القضبان المعدنية . وعندما كان السرطان على بعد حوالى عشرة أمتار منها بدا أنه نسى الشمس فجأة وأسرع يركض نحو الكومة ، وجمد فى مكانه بجوار احدى القطع النحاسية .

وأمسك كوكلينغ بيدى وقال :

— لنعد الآن الى الخيمة . الشيء الطريف سيحدث غدا صباحا . وتناولنا عشاءنا فى صمت والتحفنا ببطاطين خفيفة . وخيل الي أن كوكلينغ قد أرضاه اننى لم أوجه اليه أية اسئلة . وقبل أن أنام سمعته وهو يتقلب من جنب الى جنب وأحيانا يضحك ضحكته الكريهة . اذن فهو يعرف أشياء يجهلها الآخرون .

* * *

في اليوم التالي نهضت مبكرا لاستحم في البحر . كان الماء دافئا فسبحت فترة طويلة مستمتعا بمنظر الفجر الأحمر وهو يتلألأ في الشرق ، فوق صفحة البحر الملساء التي لم تعكرها سوى امواج عريضة . وعندما عدت الى مكان اقامتنا ودخلت الخيمة لم أجد هناك المهندس الحربي .

وقلت لنفسي : «لقد ذهب يمتع ناظريه بحيوانه الميكانيكي الشائه» ، وفتحت علبة أناناس .

ولم اكد آكل ثلاث قطع من الأناناس حتى تردد صوت المهندس قادما من بعيد ، ثم أخذ يعلو ويعلو :

— اسرع أيها الملازم الى هنا ! اسرع ، اسرع ، لقد بدأت العملية .. اسرع الى هنا !

وخرجت من الخيمة فرأيت كوكلينغ واقفا بين الشجيرات فوق احد المرتفعات يلوح لي بيده . ثم قال وهو يزفر كالقاطرة :

— هيا بنا ... اسرع !

— الى أين يا مهندس ؟

— الى حيث تركنا فارسنا أمس .

كانت الشمس قد ارتفعت عاليا في السماء عندما

وصلنا الى كومة القطع المعدنية . ولم استطع في البداية ان الحظ شيئا ، فقد كانت القطع تبرق تحت أشعة الشمس .

وعندما لم يعد بيني وبين كومة المعدن سوى خطوتين لا اكثر لمحت خيطين دقيقين من الدخان الأزرق يصعدان الى أعلى ، ثم ... تسمرت كالمشلول . وفركت عيني ، غير أن ماكنت أراه ظل ماثلا أمامي . فبجوار كومة المعدن كان هناك سرطانان يشبهان تماما ذلك الذي أخرجناه من الصندوق أمس .

وهتفت :

— ما هذا ؟ هل كان أحدهما مدفونا تحت قطع المعدن ؟

وجلس كوكلينغ القرفصاء ثم نهض وجلس عدة مرات وهو يضحك ضحكته المعهودة ويفرك راحتيه .

فصرخت فيه :

— كفاك تظاهرا بالبله ! من أين جاء السرطان الآخر ؟

— ولد ! ولد هذه الليلة !

وعضضت شفتي ولم أنبس بكلمة ، واقتربت من السرطانين اللذين كان يرتفع فوق ظهريهما خطان

دقيقان من الدخان . وخيل اليّ للوهلة الأولى أنني مصاب بهلوسة ، فقد كان السرطانان يعملان بحمية ! نعم ، كانا يعملان محركين بسرعة أطرافهما الأمامية القابضة ، وعندما تلمس هذه الأخيرة قطع المعدن تصنع فوق سطحها قوسا كهربائيا فتلحمها كما يصنع اللحامون الكهربائيون . ثم يدس السرطانان المعدن فى فميهما العريضين ، بينما كان فى جوفيهما شىء ما يئز . وأحيانا كان وابل من الشرر يندفع من بين فكيهما محدثا أزيزا ، ثم يمتد الزوج الثانى من الأرجل فيخرج القطع الجاهزة .

وكانت تلك القطع تتجمع حسب نظام معين وفوق لوح مسطح يتحرك ببطء من تحت السرطان .

وفوق لوح أحد السرطانين تجمعت تقريبا نسخة لسرطان ثالث ، بينما لم يكن السرطان الثانى قد أتم سوى الهيكل العام لحيوان ميكانيكى جديد . ووقفت أنا مذهولا مما أرى .

وصحت :

ـــ ان هذه الحشرات تصنع مثيلات لها !

فقال كوكلينغ :

ـــ صحيح تماما . ان المهمة الوحيدة لهذه الآلة أن تصنع آلات مثلها .

فسألته وأنا لا أفقه شيئا :

ـــ وهل هذا شىء ممكن ؟

ـــ ولم لا ؟ أليست كل آلة . . ولنأخذ على سبيل المثال آلة الخراطة . . أليست تصنع قطعا لتركيب آلة خراطة أخرى مثلها . ولذلك خطرت لى فكرة صنع آلة ـــ أتوماتيكية ، تصنع نفسها بنفسها من أول عملية حتى آخر عملية . ونموذج هذه الآلة هو سرطانى هذا .

واستغرقت فى التفكير ، ورحت أحاول ادراك ما قاله المهندس . وفى تلك اللحظة انفتح فم السرطان الأول وخرج منه شريط معدنى عريض غطى الآلة المجمعة على اللوح أسفل السرطان ، وكان بمثابة ظهر السرطان الثالث . وعندما تم وضع هذا الظهر قامت أرجل السرطان الأمامية السريعة بلحم الجدران المعدنية ذات الفتحات فى الأمام والخلف ، وهكذا تم صنع سرطان جديد . وكان لديه مثل اشقائه ـــ مرآة معدنية براقة فى تجويف على ظهره ، وبوسطها بلورة حمراء .

وجذب السرطان الصانع لوحه المعدنى تحت بطنه فوقف « وليده » بأقدامه على الأرض الرملية . ولا حظت أن المرآة على ظهره أخذت تتحرك ببطء بحثا عن الشمس . ووقف السرطان الجديد فى مكانه برهة ، ثم خطا الى الشاطىء وشرب من مياه البحر ، وعاد فوقف يسخن نفسه تحت أشعة الشمس .

وجال بخاطرى أننى أرى كل ذلك فى الحلم .

وبينما كنت أتأمل المولود الجديد اذا بكوكلينغ يصيح :

— ها هو الرابع قد جهز .

فأدرت رأسى ورأيت الوليد الرابع .

وفى هذه الأثناء ظل السرطانان الأولان واقفين بجوار كومة المعدن وكأن شيئا لم يحدث ، يمدان أرجلهما فيلحمان قطع المعدن ثم يدسانها فى جوفيهما مكررين ما كانا يصنعانه من قبل .

ومضى السرطان الرابع نحو البحر ليشرب .

وسألت كوكلينغ :

— خبرنى بحق الشيطان ، لماذا تشربت الماء ؟

— هذا بمثابة غمر البطارية بالماء . ومادامت اشعة

الشمس موجودة فانها تتحول بواسطة المرآة على سطح السرطان والبطارية المصنوعة من السليكون الى طاقة كهربائية . وهذه الطاقة تكفى للعمل أثناء النهار ولملء البطارية . أما فى الليل فيعمل الجهاز الاوتوماتيكى بواسطة الطاقة المخزونة فى البطارية أثناء النهار .

— معنى ذلك أن هذه الحشرات تعل ليلا ونهارا ؟

— نعم ، ليلا ونهارا ، دون توقف .

وتحرك السرطان الرابع وزحف نحو كومة المعدن ايضا .

وأخذت تعمل الآن سرطانات ثلاثة ، بينما وقف الرابع يتزود بالطاقة الشمسية .

وقلت وأنا أحاول ادراك تكنولوجيا هذا الانتاج الخرافى للآلات :

— ولكن مادة البطاريات السليكونية ليست موجودة فى اكوام المعدن .

— ليست ضرورية فهى موجودة بما فيه الكفاية — ودفع كوكلينغ الرمل بقدمه — الرمل هو اكسيد السليكون ، وهو يتحول داخل السرطان الى سيلكون نقى تحت تأثير القوس الفولطى .

وعدنا الى الخيمة مساء عندما كان حول كومة المعدن ستة سرطانات تعمل ، واثنان يقفان ليسخنا تحت أشعة الشمس .

وعلى العشاء سألت كوكلينغ :

— وما الحاجة لكل هذا ؟

فأجاب بصراحة :

— للحرب .. فهذه السرطانات سلاح تخريبي رهيب .

— لست أفهم يا مهندس .

ومضغ كوكلينغ قطعة اللحم المدخن ثم أجاب على مهل :

— تصور ماذا يحدث لو أطلقنا مثل هذه الآلات خفية على أرض العدو .

فتوقفت عن الأكل وقلت :

— وماذا بعدها ؟

— هل تعرف ما هى المتوالية ؟

— لنفرض .

— لقد بدأنا أمس بسرطان واحد . والآن أصبح عددها ثمانية . وغدا ستصبح أربعة وستين ، وبعد

غد خمسمائة واثنى عشر ، وهكذا دواليك . وبعد عشرة أيام سيزيد عددها عن عشرة ملايين ، وستحتاج لهذا الغرض الى ثلاثين ألف طن من المعدن .

وعندما سمعت هذه الأرقام عقدت الدهشة لسانى ثم دمدمت :

— نعم ، ولكن ...

— هذه السرطانات ستستطيع خلال فترة قصيرة التهام كل مالدى العدو من معدن ، كل دباباته ومدافعه وطائراته ... كل آلاته ومعداته وماكيناته . ستلتهم كل ما يوجد على أرضه من معدن . وبعد شهر لا تبقى منه قطعة واحدة فى الكرة الأرضية بأسرها . سيذهب كله الى صنع واعادة صنع السرطانات ... ولتلاحظ أن المعدن فى زمن الحرب أهم المواد الاستراتيجية .

وهمست قائلا :

— اذن فهذا هو السبب الذى جعل الادميرالية تهتم بلعبتك ! .

— بالضبط . ولكن هذا السرطان ليس الا أول نموذج . وفى نيتى أن أطوره بحيث اجعله أقل تعقيدا بكثير ، وبناء على ذلك ستزداد سرعة صنع هذه الآلات

الاتوماتيكية ، لنقل مرتين أو ثلاث مرات . وسأجعل الهيكل اكثر صلابة وقدرة على الاستقرار واسرع حركة ، وسأزيد حساسية اجهزة التبيين لاكتشاف مكامن المعادن . وعندئذ ستصبح آلاتي في وقت الحرب أشد وطأة من الطاعون . انني أريد القضاء على الثروة المعدنية لدى العدو خلال يومين أو ثلاثة .

وقلت هاتفا :

— ولكن هذه الآلات ستتحول الى أراضينا بعد أن تنتهي من التهام كل مالدى العدو من معدن !

— هذه هي النقطة الثانية . يمكن وضع شفرة لعمل الآلات ، وبمجرد أن تظهر على أراضينا نوقف عملها لأننا نعرف الشفرة . وبالمناسبة يمكن بهذه الطريقة تحويل كل احتياطيات العدو المعدنية الى جانبنا .

... في تلك الليلة رأيت أحلاما مرعبة . فقد زحفت عليّ سحب من السرطانات المعدنية وهي تئز بأذرعها واعمدة الدخان الأزرق الدقيقة فوق ظهورها المعدنية .

وبعد أربعة أيام امتلأت الجزيرة بآلات المهندس كوكلينغ .

واذا صدقنا حساباته فان عددها الآن يزيد على الأربعة آلاف .

وكانت هياكلها البراقة تلوح في كل مكان . وعندما كان المعدن ينتهي من احدى الكومات كانت هذه السرطانات تركض في انحاء الجزيرة حتى تعثر على كومة أخرى .

وفي اليوم الخامس ، وقبل شروق الشمس شاهدت منظرا بشعا : فقد تشاجر سرطانان من أجل قطعة زنك .

حدث ذلك في الجزء الجنوبي من الجزيرة حيث كنا قد دفنا عدة قطع من الزنك . وكانت السرطانات التي تعمل في أماكن متفرقة تأتي الى هنا دوريا لعمل الاجزاء الزنكية اللازمة . وفي هذه المرة حدث ان وصل الى الحفرة التي تضم قطع الزنك حوالي عشرين سرطانا دفعة واحدة فساد الهرج والمرج ، وأخذت السرطانات تعرقل بعضها . وتميز عن الجميع سرطان كان اكثرها خفة حركة ، وكما خيل الي ، اكثرها وقاحة وأقواها .

أخذ هذا السرطان يدفع اصحابه بعيدا أو يخطو فوق ظهورهم محاولا استخراج قطعة زنك من قاع

الحفرة . وعندما أصبح قريبا من هدفه مد سرطان آخر أذرعه وأطبق على نفس القطعة ، وشد كل منهما القطعة فى اتجاه مخالف . واستطاع ذلك السرطان الذى بدا لى اكثرهم خفة حركة أن ينتزع أخيرا القطعة من منافسه . ولكن الخصم لم يسلم بترك المعدن فهاجم السرطان من الخلف وجلس على ظهره ودس مخالبه الرفيعة فى فمه .

واشتبكت أذرع السرطانين وأخذا ينهشان بعضهما البعض بقوة رهيبة .

ولم يلق ايّ من السرطانات الاخرى بالا الى ما يحدث ، بينما كانت المعركة المستعرة بين السرطانين معركة حياة أو موت . ثم رأيت السرطان الجالس فوق ظهر زميله ينقلب فجأة على ظهره وبطنه الى أعلى ، وتحرك لوحه المعدنى الى اسفل كاشفا أجهزته الداخلية . وفى تلك اللحظه أخذ خصمه يسدد الى جسده بسرعة خيوطا من الشرر الكهربائى . وعندما انهار جسد الضحية وتمزق اربا أخذ السرطان المنتصر يشد المفاتيح والمسامير والاسلاك ويدسها فى فمه بسرعة .

وبينما كانت الاجزاء التى حصل عليها السرطان

بتلك الطريقة تغيب داخله ، كان لوحه المعدنى يتحرك بسرعة الى الأمام ، فقد كانت تجرى فوقه عملية تجميع دائبة .

وبعد عدة دقائق هبط من فوق اللوح سرطان جديد واستقر على الرمال .

وعندما حكيت ما رأيته لكلوكلينغ ضحك ضحكته المعهودة وقال :

— هذا هو المطلوب تماما .

— ولماذا ؟

— الم أقل لك اننى أريد تطوير آلاتى هذه .

— وماذا يمنعك ؟ خذ الرسومات وادرسها وفكر فى الطريقة ، لكن ما دخل النزاع بين السرطانات هنا ؟ بهذه الطريقة سيلتهمون بعضهم .

— بالضبط ! ولن يبقى سوى الأقوى .

فكرت قليلا ثم قلت :

— ما معنى « الأقوى » ؟ انهم جميعا متشابهون ، فهم على حد فهمى يصنعون أنفسهم .

— وهل تظن أنه من الممكن عموما صنع نسخة مطابقة تماما لشىء آخر ؟ انك تعلم ، على ما اعتقد ، أنه

حتى فى حالة صنع رولمان البلى لا يمكن صنع كرتين متساويتين ، مع أنها حالة اكثر بساطة . أما فى حالتنا هذه فان لكل آلة صانعة ، جهاز مراقبة يقارن بين النسخة المصنوعة وبين السرطان الصانع . تخيل اذن ما الذى سيحدث اذا كانت كل آلة جديدة تصنع حسب النسخة السابقة لا حسب الأصل ؟ فقد نحصل فى نهاية الأمر على آلة لا تشبه الاصل الأول فى شىء .

وقلت معارضا :

ـ ولكن ، اذا كان السرطان الجديد لا يشبه الأصل فان ينفذ مهمته الأساسية ، أى صنع نفسه .

ـ فليكن . هذا عظيم جدا . فالنسخ الاكثر دقة ستقوم بصنع سرطان آخر من جثته . أما النسخ الاكثر دقة فهى تلك التى ستتركز فيها بمحض الصدفة خصائص التركيب مما يجعلها اكثر قدرة على البقاء . وهكذا ينبغى أن تظهر النسخ الأقوى والاسرع والابسط . ولهذا فان أعكف على الرسومات لاجراء التحسينات ، بل كل ما سأفعله هو الانتظار حتى تلتهم السرطانات كل ما فى هذه الجزيرة من معدن ثم تبدأ الحرب فيما

بينها ويأكل بعضها البعض الاخر ويعيد صنع نفسه . وهكذا تظهر الآلات التى ابتغيها .

جلست فى تلك الليلة طويلا أمام الخيمة أحدق فى البحر وأدخن . أحقا اخترع كوكلينغ شيئا تفوح منه رائحة العواقب الوخيمة على البشرية؟ أحقا نقوم على أرض هذه الجزيرة الضائعة فى وسط المحيط « بتفريخ » طاعون رهيب ، بوسعه أن يلتهم كل ما فى الأرض من معدن ؟

وبينما كنت جالسا أفكر مرت بقربى بضع حشرات معدنية . وكانت أثناء سيرها تعمل دون كلل ، ويصدر عن أجزائها صرير معدنى. واصطدمت واحدة منها بى فركلتها بقدمى مشمئزا . فانقلبت على ظهرها دون حول ، وفى نفس اللحظة تقريبا انقض عليها سرطانان آخران وبرقت فى الظلمة الشرارات الكهربائية الساطعة .

كانا يقطعان أوصال الحشرة التعيسة بهذه الشرارات الى اشلاء! وأحسست بالضيق فاندفعت الى الخيمة واخرجت العتلة من الصندوق . وكان كوكلينغ يغط فى النوم مرسلا شخيرا .

واقتربت بهدوء من كتلة السرطانات وضربت واحدا منها بكل قوتى .

ولست ادرى لماذا خيل الى أن هذا سيخيف البقية . بيد أن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل هجم الباقون على السرطان الذى حطمته ، ومن جديد لمع وميض الشرار .

وضربت عدة ضربات أخرى فلم يؤد ذلك الا الى زيادة كمية الشرار الكهربائى . واندفعت الى المكان عدة حشرات قادمة من قلب الجزيرة .

وفى الظلام لم المح الا الهياكل العامة لتلك الآلات ، ولكن خيل الى فجأة أن واحدا من تلك السرطانات كان كبير الحجم بصورة خاصة .

وصوبت اليه ضربتى . . . ولكن ما أن مست العتلة ظهره حتى وجدتنى أصرخ واقفز بعيدا . . فقد سرى فى بدنى تيار كهربائى خلال العتلة ! اذن فقد كان ثمة مجال كهربائى حول جسد هذا المخلوق القمىء . وجالت بذهنى فكرة . . « انها حماية نشأت نتيجة التطور » .

واقتربت من كتلة السرطانات التى كان يصدر

عنها أزيز ، وبدنى كله يرتجف ، وأردت تخليص العتلة . . ولكن هيهات ! لقد رأيت فى الظلام وعلى ضوء عشرات الأقواس الكهربائية المرتعش عتلتى وهى تقسم الى أجزاء . وكان اكثر الجميع نشاطا ذلك السرطان الاكبر حجما ، والذى أردت تحطيمه .

وعدت الى الخيمة واستلقيت على سريرى .

واستطعت أن اغيب فى نوم مرهق لبعض الوقت . ويبدو أن نومى لم يستغرق فترة طويلة ، فقد استيقظت فجأة . . وأحسست أن شيئا باردا ثقيلا يزحف فوق بدنى . وقفزت واقفا على قدمى . ولم استطع للوهلة الأولى أن أدرك أنه سرطان . . . ثم غاب عن عينى داخل الخيمة . وبعد بضع ثوان رأيت ضوء شرارة كهربائية ساطعة .

لقد جاء هذا السرطان الملعون ليبحث عن المعدن هنا ، وأخذ يقطع علبة معدنية بها ماء عذب .

وايقظت كوكلينغ على عجل وشرحت له الامر باضطراب . فأصدر أمرا :

— كل العلب الى البحر ! انقل مخزون المياه والأكل الى البحر !

وأخذنا ننقل العلب المعدنية الى البحر ونرصها على قاعه الرملى فى موضع كانت المياه فيه تصل الى وسطنا . ونقلنا اليه كذلك كل معداتنا .

ثم جلسنا مبللين خائرى القوى على الشاطىء حتى الصباح ، دون أن يغمض لنا طرف . وكان كوكلينغ يلهث بشدة ، أما أنا فشعرت فى أعماقى بالسرور لأنه هو أيضا يعانى من شر ما صنع . لقد أصبحت الآن أمقته وأتمنى له عقابا أشد .

* * *

لست أدرى كم مر على وصولنا الى هذه الجزيرة ، بيد أن كوكلينغ أعلن لى ذات صباح بلهجة مهيبة :

— أطرف شىء سيقع الآن . لقد انتهى المعدن كله .

وبالفعل ، فقد طفنا بجميع الأماكن التى كانت تضم قطع المعدن فلم نعثر على شىء فيها ، ولم نر على طول الشاطىء وبين الشجيرات سوى حفر فارغة .

لقد تحولت المكعبات والمحاور والقضبان المعدنية الى آلات لا حصر لها تركض فى انحاء الجزيرة .

وأصبحت حركات هذه المخلوقات سريعة وعلى قفزات ، وبطارياتها مشحونة حتى النهاية بينما لا يذهب شىء من طاقتها فى العمل . لقد كانت تركض على الشاطىء دون معنى ، وتزحف بين الشجيرات وعلى الهضبة ويصطدم أحدها بالآخر وأحيانا بنا .

وعندما راقبتها اقتنعت بأن كوكلينغ على صواب ، فقد كانت السرطانات فعلا مختلفة . كانت تتميز فيما بينها من حيث الأحجام وطول الأذرع وسعة الأفواه ، هذه الافواه التى كانت بمثابة ورش التصنيع . وكان بعضها اكثر حركة والبعض الآخر أقل . ويبدو أن اختلافات اكثر عمقا كانت فى اعضائها الداخلية .

وقال كوكلينغ :

— حسنا ، لقد آن لها أن تبدأ الحرب .

فسألته :

— هل أنت جاد فى قولك ؟

— طبعا . يكفى لهذا أن نجعلها تذوق الكوبالت . فأجهزتها مصنوعة بطريقة تجعلها — اذا دخل فيها ولو جزء يسير من الكوبالت — تقضى على الاحترام المتبادل فيما بينها ، اذا صح هذا التعبير .

في صباح اليوم التالي توجهت أنا وكوكلينغ الى « مخزننا البحري » فأخرجنا من قاع البحر مجموعة من المعلبات وعلب الماء العذب واربع كتل رمادية من الكوبالت احتفظ بها المهندس خصيصا لاستخدامها في المرحلة الحاسمة من تجربته .

وعندما خرج كوكلينغ من الماء رافعا بيده الكوبالت عاليا ، أحاط به على الفور عدة سرطانات . ومع أنها لم تتجاوز حدود ظله الممتد على الأرض الا انه كان واضحا أن ظهور المعدن الجديد قد أثارها بشدة . وكنت واقفا على مقربة من المهندس أراقب بدهشة كيف كانت بعض السرطانات تحاول القفز الى أعلى دون فائدة .

— انظر كم هي متنوعة حركاتها ! وكيف أن أحدا منها لا يشبه الآخر . وفي خضم هذه الحرب التي سنجعلها يخوضها بعضها ضد بعض لن يبقى الا الأقوى والأقدر . وهذه ستصنع جيلا اكثر تطورا منهم .

قال كوكلينغ ذلك وألقى بقطع الكوبالت الواحدة تلو الأخرى في اتجاه الشجيرات .

ومن الصعب أن أصف ما حدث بعد ذلك .

فقد هجم على القطع عدة سرطانات دفعة واحدة وتدافعت وهي تقطع الكوبالت بالشرارات الكهربائية . وتجمهرت الأخرى خلفها في محاولة للحصول على قطعة من المعدن . وزحف البعض فوق ظهور البعض الآخر يريدون الوصول الى المركز .

وصاح المهندس الحربي بفرح وصفق بيديه :

— انظر .. ها هي المعركة الأولى !

وخلال عدة دقائق تحول المكان الذي ألقى فيه كوكلينغ بقطع الكوبالت الى ساحة قتال رهيب راح يندفع نحوها المزيد والمزيد من هذه السرطانات .

وبوصول الكوبالت وقطع السرطانات الممزقة الى الاعضاء الداخلية للسرطانات الأخرى ، كانت هذه تتحول الى وحوش ضارية جسورة تنقض فورا على رفاقها .

وفي المرحلة الأولى من هذه الحرب كانت السرطانات التي ذاقت الكوبالت هي الطرف المهاجم ، وهي بالذات التي كانت تمزق السرطانات المندفعة الى هنا من كل ارجاء الجزيرة على أمل الحصول على المعدن

المطلوب . ولكن كلما ازداد عدد السرطانات التى ذاقت الكوبالت ، كلما أصبحت الحرب أشد ضراوة . وعند هذه اللحظة انخرطت فى الصراع الآلات الوليدة التى صنعت اثناء هذه المعمعة .

لقد كان جيلا مدهشا من الآلات .. أقل حجما ولكنه ذو سرعة انتقال هائلة . وكان ما أدهشنى انه لم يعد بحاجة الى عملية ملء البطاريات .

كانت الطاقة الشمسية وحدها تكفى تماما هذه السرطانات الوليدة ، وكانت هذه المخلوقات تمتصها بواسطة مرايا على ظهورها اكبر بكثير من الحجم العادى . وكانت عدوانيتها مذهلة ، فقد كانت تهجم دفعة واحدة على عدة سرطانات وتقطع بالشرارة سرطانين أو ثلاثة فى وقت واحد .

ووقف كوكلينغ فى الماء وقد تهلل وجهه بالرضا اللانهائى . وأخذ يفرك راحتيه ويتنفس بصوت عال مرددا :

ـ حسنا ، حسنا ! اننى أتصور ما سيحدث بعد ذلك !

أما أنا فقد كنت انظر الى معركة الآلات هذه

بقرف وخوف شديدين . ترى أى مخلوق سيولد نتيجة هذه المعركة ؟

وعند منتصف النهار تحول الشاطىء المجاور لخيمتنا الى ساحة قتال واسعة ، تدافعت نحوها الآلات من جميع ارجاء الجزيرة . وكانت الحرب دائرة فى صمت ، دون صراخ أو عويل ، دون دوى أو قصف مدافع . كان أزيز الشرارات الكهربائية الكثيرة واصطكاك الهياكل المعدنية يضفى على هذه الحرب الغريبة حفيفا وصريرا فظيعين .

ورغم أن معظم الجيل الجديد كان قصير القامة وسريع الحركة ، الا أنه بدأت تظهر أشكال أخرى من السرطانات تفوق فى حجمها السرطانات الأخرى بدرجة كبيرة . وكانت بطيئة الحركة ، لكنها تنم عن قوة ، فكانت تقضى بسهولة على الآلات القزمة التى تهاجمها .

وعندما مالت الشمس نحو المغيب حدث تغير مفاجىء فى حركة السرطانات الصغيرة ، فقد تجمعت كلها فى الناحية الغربية وأخذت تتحرك ببطء .

وقال كوكلينغ بصوت متحشرج :

— يا للشيطان ! كل هذه المجموعة مقضى عليها بالهلاك ، فهى بدون بطاريات .. وما أن تغيب الشمس حتى تدركها النهاية .

وبالفعل ... ما أن استطالت ظلال الشجيرات وغطت كتلة السرطانات الصغيرة الهائلة ، حتى خمدت حركتها تماما . وتحولت من جيش وحوش صغيرة كاسرة الى مخزن ضخم للصفائح المعدنية الخامدة .

واقتربت منها ببطء سرطانات ضخمة تكاد تبلغ نصف قامة الانسان وأخذت تلتهمها الواحد تلو الآخر ، وبدأت تظهر على ألواح الآباء الجبابرة هياكل لجيل جديد أضخم بكثير من جيل الآباء .

وتجهم كوكلينغ ، وكان من الواضح أن هذا التطور لا يرضيه أبدا .. فالسرطانات الآلية الضخمة ، البطيئة الحركة سلاح سيىء للغاية للتخريب فى مؤخرة العدو !

وعندما انهمكت السرطانات الجبارة فى التهام الجيل الصغير ساد هدوء مؤقت على الشاطىء .

وخرجت من الماء وتبعنى المهندس فى صمت ، فتوجهنا الى الجانب الشرقى من الجزيرة لنيل قسط من الراحة .

كنت متعبا للغاية فنمت تقريبا فى نفس اللحظة التى تمددت فيها على الرمل الدافىء الناعم .

* * *

استيقظت أثناء الليل على صرخة مرعبة ، وعندما قفزت واقفا لم أتبين شيئا سوى شريط الشاطىء الرمادى والبحر الملتحم بسماء سوداء مرصعة بالنجوم .

وترددت الصرخة مرة أخرى ، وكانت قادمة من جهة الشجيرات ولكنها أخفت من السابقة . وفى هذه اللحظة فقط لاحظت أن كوكلينغ ليس بجوارى فأسرعت الى ذلك المكان الذى خيل الى أن صرخته جاءت منه .

كان البحر هادئا جدا كالعادة ، وليس على صفحته سوى أمواج صغيرة ترتطم بالشاطىء الرملى بصوت لا يكاد يلحظ . بيد أنه خيل الى أن سطح البحر عند المكان الذى وضعنا فيه مخزون طعامنا وعلب المياه العذبة يبدو مضطربا ، فقد كان هناك صوت طرطشة وخرير .

وظننت أن المهندس هناك يعبث بشىء ما ، فصحت مقتربا من مخزننا تحت الماء :

— ماذا تفعل هنا يا مهندس ؟
وفجأة سمعت صوته عن يميني :
— انني هنا !
— ياإلهي ، أين أنت ؟
فسمعت صوته من جديد :
— انني هنا ! أقف في الماء حتى حلقي ، تعال الي .
نزلت الماء فاصطدمت بشيء صلب ، اتضح أنه سرطان جبار واقف في الماء على ارجله الطويلة .
وسألت كوكلينغ :
— لماذا توغلت في الماء الى هذا الحد ؟ ماذا تفعل هناك ؟
وصاح المهندس السمين بصوت ضعيف شاك :
— لقد طاردوني حتى الجأوني الى هذا المكان !
— طاردوك ؟ من ؟
— السرطانات .
— غير معقول ! ولكنها لا تطاردني .
وتعثرت في الماء بسرطان آخر فدرت حوله ووصلت أخيرا الى المهندس . لقد كان واقفا في الماء فعلا حتى حلقه .

— قل لي ما الخبر ؟
فأجاب بصوت مرتعش :
— أنا نفسي لا أفهم ... عندما كنت نائما هاجمني فجأة واحد منها .. وظننت ذلك صدفة .. فابتعدت ولكنه اقترب مني مرة أخرى ولمس وجهي بأرجله ، فنهضت وابتعدت ، واذا به يتبعني .. فركضت .. واذا به يركض خلفي ، وانضم اليه سرطان آخر ، ثم ثالث ، ثم أصبحوا كثرة ... وهاهم قد الجأوني الى هنا ...
قلت :
— غريب ! لم يحدث هذا من قبل أبدا . لو أنهم اكتسبوا اثناء التطور غريزة كره الانسان لما تركوني وشأني أبدا .
وأجاب كوكلينغ متحشرجا :
— لست أدري .. ولكني أخاف الخروج الى الشاطىء ...
— هراء ! — وسحبته من يده — هيا نسير بحذاء الشاطىء شرقا وسوف أحميك .
— كيف ؟

— سنذهب الآن الى مخزننا فآخذ من هناك شيئا ثقيلا .. مطرقة مثلا ...

وتأوه المهندس قائلا :

— اياك أن تأخذ شيئا معدنيا .. خذ لوحا خشبيا أو اى شيء خشبي آخر .

وتحركنا ببطء بحذاء الشاطىء . وعندما اقتربنا من المخزن تركت المهندس بمفرده واقتربت من الشاطىء . وسمعت طرطشة عالية فى الماء وأزيز الآلات المعروف .

كانت هذه الحشرات المعدنية تمزق علب طعامنا ومياهنا بعد أن وصلت الى مخزننا تحت مياه البحر .

وصحت :

— لقد ضعنا يا كوكلينغ .. هذه السرطانات أكلت كل العلب .

فقال بصوت ضعيف :

— حقا ؟ وماذا سنفعل الآن ؟

— فكر أنت فيما يجب عمله . أليست هذه الفكرة الحمقاء فكرتك . لقد اخترعت سلاح التخريب الذى يعجبك ، ولتتحمل تبعة فعلتك .

وابتعدت عن مجموعة السرطانات وخرجت الى الشاطىء .

وأخذت أزحف بين السرطانات فى الظلام وأجمع قطع اللحم والأناناس والتفاح وبعض الاشياء الاخرى المبعثرة على الرمال واضعها على الهضبة الرملية . ويبدو أن هذه الحشرات عملت بكل نشاط عندما كنا نائمين ، فقد كان الشاطىء مغطى بقطع المحفوظات ، ولم أعثر على علبة سليمة واحدة .

وبينما كنت أجمع بقايا الأطعمة ظل كوكلينغ واقفا فى الماء الى حلقه ، على بعد حوالى عشرين خطوة من الشاطىء .

وكنت منهمكا فى جمع بقايا الطعام ومبتئسا لما حدث حتى أننى نسيت وجوده . لكنه سرعان ما أطلق صرخة حادة فانتبهت اليه :

— يا الهى .. يا باد ، انها ستصل الىّ !

وقفزت الى الماء وانا اتعثر بهذه السرطانات المعدنية المرعبة ، واتجهت نحو كوكلينغ ، فاصطدمت بسرطان آخر على بعد خمس خطوات من كوكلينغ .

ولم يعرني السرطان اى اهتمام .

وقلت لكوكلينغ :

ــ يا للشيطان ! لماذا لا يحبونك الى هذه الدرجة ؟ ألست أباهم ، اذا جاز التعبير ؟

فأجاب كوكلينغ بصوت متحشرج وهو يخبط فى الماء:

ــ لست أدرى . اصنع شيئا يا باد لكى يبتعد . لو ولد سرطان أكبر من هذا فسأهلك . . .

ــ ها هو التطور ! ولكن قل لى ما هى نقطة الضعف فى هذه المخلوقات ؟ كيف يمكن افساد اجهزتها ؟

ــ فى السابق كان ينبغى كسر المرآة أو استخراج البطارية . أما الآن فأنا لا اعرف . . . يجب دراستها دراسة خاصة . . .

ــ عليك اللعنة أنت ودراساتك !

صحت من خلال أسنانى وأمسكت بمخلب السرطان الأمامى النحيل الممتد نحو وجه المهندس .

وتراجع السرطان الى الوراء ، فبحثت عن مخلبه الآخر وثنيته أيضا . كانت مخالبه تنثنى بسهولة كأنها سلك معدنى .

ويبدو أن هذه العملية لم ترق على الاطلاق للمخلوق

المعدنى فتراجع ببطء خارجا من الماء . أما أنا والمهندس فسرنا بحذاء الشاطىء .

وعندما أشرقت الشمس خرجت جميع السرطانات من الماء ووقفت على الشاطىء لتستدفىء . وخلال هذه الفترة تمكنت من تحطيم المرايا على ظهور حوالى خمسين حشرة ، فكفت كلها عن الحركة .

ولكن ذلك لم يحسن الوضع للأسف ، فقد تحولت على الفور الى ضحايا للسرطانات الأخرى التى أخذت تصنع منها حيوانات جديدة بسرعة هائلة . ولم استطع تحطيم البطاريات السليكونية على ظهور جميع هذه الآلات ، فقد وجدت نفسى عدة مرات أمام آلات مكهربة مما أقعدنى عن مواصلة الحرب ضدها .

وظل كوكلينغ طوال هذا الوقت واقفا فى الماء .

ثم سرعان ما نشبت الحرب بين الآلات من جديد ، وبدا أنها نسيت المهندس تماما .

وتركنا ساحة القتال وانتقلنا الى الجهة المقابلة من الجزيرة . وبرد المهندس من مكوثه الطويل فى الماء ، لدرجة أنه ارتمى على الأرض واسنانه تصطك ، وطلب منى أن أغطيه بالرمل الساخن .

وبعد ذلك عدت الى مكان اقامتنا الأول لكى احضر الملابس وما تبقى من طعامنا . وهنا فقط اكتشفت أن الخيمة قد حطمت ، واختفت الاوتاد الحديدية التى كانت مغروزة فى الرمل ، وكذلك الحلقات المعدنية التى كانت تشد الخيمة الى الحبال .

ووجدت تحت مشمع الخيمة ملابس كوكلينغ وملابسى التى كان يمكن أن تلاحظ عليها أيضا آثار السرطانات فى بحثها عن المعدن . فقد اختفت منها المشابك والأزرار والابزيمات المعدنية ، ولم يبق مكانها سوى آثار حروق فى القماش .

وفى هذه الفترة انتقلت المعركة بين السرطانات من الشاطىء الى داخل الجزيرة . وعندما صعدت الى الهضبة رأيت فى وسط الجزيرة تقريبا ، بين الأشجار عدة سرطانات خرافية تقف على أرجل عالية تكاد تبلغ قامة الانسان . وكانت تتفرق أزواجا ببطء ثم تهجم على بعضها بسرعة رهيبة .

وعندما تصطدم ببعضها يصدر صوت معدنى مدو . وكان واضحا من حركاتها البطيئة أنها ذات قوة جبارة ووزن كبير .

ورأيت بعينى عدة آلات تسقط على الأرض فتمزقها الآلات الآخرى فورا .

بيد أننى كنت قد شبعت من مناظر المعارك بين هذه الآلات المجنونة ، فحملت كل ما استطعت أن اجده فى مكان اقامتنا الأول وتوجهت على مهل الى المكان الذى تركت فيه كوكلينغ .

كانت الشمس تصب اشعتها المحرقة دون رحمة ، فنزلت الى البحر عدة مرات قبل أن اصل الى كوكلينغ .

وكنت على مسافة قريبة من المرتفع الرملى الصغير الذى كان كوكلينغ مدفونا فيه عندما ظهر سرطان ضخم من خلف الشجيرات ناحية الهضبة .

كان أطول منى قامة ، وأرجله عالية وغليظة . وكان يتحرك بقفزات غير منتظمة ويطوى جسمه بطريقة غريبة . وكانت أرجله الأمامية التى يعمل بها طويلة الى درجة غير معقولة وتتدلى على الرمل . أما فمه — أى ورشته — فكان متضخما بشكل خاص .

وزحف « أفعوان البحر المنقرض » هذا كما سميته بينى وبين نفسى الى الشاطىء وأخذ يدير جسمه ببطء

فى جميع الاتجاهات كأنه يفحص المكان ، ولوحت
فى اتجاهه بمشمع الخيمة وبصورة آلية ، كما
يفعل المرء عندما يحاول طرد بقرة تسد عليه الطريق .
بيد أنه لم يعرني أدنى اهتمام ، بل أخذ يقترب بجانبه
بصورة غريبة راسما فى مساره قوسا كبيرا ، نحو
المرتفع الرملى الذى كان كوكلينغ نائما تحته .
ولو كنت قد فطنت الى ان المخلوق الخرافى يتجه
نحو المهندس لاسرعت الى نجدته . ولكن خط سير
هذه الآله كان غريبا وغير واضح حتى أننى ظننت
فى البداية أنها تتجه نحو الماء . وعندما مست المياه
بأرجلها ، استدارت بشدة وتوجهت بسرعة الى المهندس
. . . ساعتها فقط القيت ما معى من متاع وركضت
الى الأمام .
ووقف « أفعوان البحر المنقرض » فوق كوكلينغ
وأقعى قليلا .
ولاحظت أن طرفى ذراعيه الطويلتين نبشا فى الرمل
قرب وجه المهندس .
وفى اللحظة التالية ثارت فجأة سحابة من الغبار فى
المكان الذى كان منذ فترة قصيرة تلا رمليا . فقد

انتفض كوكلينغ كمن لدغته أفعى وهرول مبتعدا عن
السرطان وقد ركبه الذعر .
ولكنه كان قد تأخر . . .
فقد التفت ايدى السرطان الدقيقة حول رقبة المهندس
السمينة باحكام ، وشدته الى أعلى نحو فم الوحش .
وتدلى كوكلينغ فى الهواء عاجزا عن فعل أىّ شىء
سوى التلويح بيديه ورجليه . وبالرغم من اننى كرهت
المهندس من كل اعماقى فاننى لم اكن لادعه يقتل
فى صراعه مع وحش معدنى لا عقل له .
ولم أفكر طويلا بل أمسكت بأرجل السرطان الطويلة
وجذبتها بكل قوتى ، ولكنى كنت كمن يحاول دفع
ماسورة من الحديد مغروسة عميقا فى الأرض . ولم
يتزحزح « الأفعوان » عن مكانه .
وتسلقت حتى ارتقيت ظهره ، وأصبح وجهى لفترة
قصيرة على مستوى واحد مع وجه كوكلينغ المشوه .
وفجأة أدركت الأمر : « انها أسنانه . . . أسنان
كوكلينغ المعدنية ! » . مر هذا الخاطر فى ذهنى . .
وضربت المرآة اللامعة تحت الشمس بقبضتى وبكل
ما أوتيت من قوة .

ودار السرطان فى مكانه . وظهر وجه كوكلينغ المحتقن بعينيه الجاحظتين على مستوى فم الحيوان ، أى ورشته . وهنا وقع الأمر الرهيب . فقد تراقصت الشرارة الكهربائية على جبهة المهندس وصدغيه . ثم تراخت فجأة أيدى السرطان ، وسقط على الرمل جسد صانع الطاعون الحديدى ، وقد فارقته الحياة .

* * *

عندما كنت أدفن كوكلينغ كانت عدة سرطانات ضخمة تركض فى انحاء الجزيرة وهى تطارد بعضها ، لكنها لم تلق بالا لى أو لجثة المهندس الحربى .

ولففت كوكلينغ فى مشمع الخيمة ودفنته وسط الجزيرة فى حفرة غير عميقة . دفنته دون أسف . وكان الرمل يصر تحت أسنانى فى حلقى الجاف فأخذت ألعن فى اعماقى المهندس الراحل على فكرته القذرة . ومن وجهة نظر الأخلاق المسيحية فقد كنت ارتكب بلعناتى هذه تجديفا رهيبا .

ثم أمضيت عدة أيام متتالية راقدا على الساحل دون حراك انظر الى الأفق فى المكان الذى كان من

المقرر أن تظهر فيه السفينة « غالوبكا » . ومضى الوقت بطيئا ممضا ، وخيل الى أن الشمس القاسية تسمرت فوق رأسى . وأحيانا كنت أزحف حتى أصل الى الماء فأغمر فيه وجهى الملتهب .

ولكى أنسى الاحساس بالجوع والظمأ المضنى حاولت أن افكر فى أشياء مجردة . فكرت فى أن كثيرا من الناس الاذكياء فى زماننا هذا يبددون ذكاءهم فى محاولة الحاق الأذى بالآخرين . فمثلا اختراع كوكلينغ . . لقد كنت موقنا أنه من الممكن استخدامه لأغراض سامية ، للحصول على المعادن مثلا . وكان من الممكن توجيه عملية تطور هذه الحشرات بحيث تؤدى هذه المهمة بمزيد من الفعالية . وتوصلت الى استنتاج مؤداه أنه لو ادخلت تحسينات ملائمة على هذه الآلة لما تحولت الى عملاق جبار ثقيل .

وذات مرة سقط فوقى ظل كبير مستدير . ورفعت رأسى بمشقة ونظرت الى الشىء الذى حجب عنى الشمس ، فاتضح لى أننى راقد بين أرجل سرطان خرافى الحجم . وكان هذا السرطان قد أتى الى الشاطىء ، ويبدو أنه كان يتطلع نحو الأفق وينتظر شيئا .

ثم بدأت اضيع فى التخيلات ، فتحول السرطان العملاق فى رأسى الملتهب الى برميل مياه عذبة معلق عاليا ، ولم أتمكن ابدا من بلوغ قمته .

ثم افقت على ظهر السفينة . وعندما سألنى القبطان هيل عما اذا كان من اللازم شحن تلك الآلة الضخمة الغريبة الملقاة على الشاطىء ، أجبته بأنه فى الوقت الحالى ليس هناك أبدا ما يدعو الى ذلك .

الى اللقاء .. ياساكن المريخ

ر. ياروف

نظر فى البداية خلال شق بين الواح الخشب ، ثم قفز متشبثا بأطرافها ، ومدّ جسمه ثم جلس على حافة السور . كان الوقت ليلا ، وقد اختفت خلف الأفق بقايا أضواء المساء الشاحبة . وأغمض الصبى عينيه . . فامتد أمامه طريق كمدرج هبوط الطائرات ، ولاحت الغابة الخضراء ، ولما فتح عينيه لف الظلام كل شىء ، الا بقعة واحدة مضيئة فى هذا العالم الساكن . كان ثمة منزل على قمة الربوة ، وهناك بعيدا فى الأسفل ، حيث تلتقى السماء والغابة والدرب الضيق ، كانت النار تشتعل لهبا كبيرا أصفر ، ينطلق فى جميع الاتجاهات ، يحيط به الظلام كدائرة حافة القدح . وتصاعد الدخان فى الفضاء الخالى حوله . والتفت الصبى فاستطاع أن يرى المنزل قائما فى

مكانه ، رغم انه بدا غير واضح كأنما يلفه الضباب ، فسرى فيه شعور بالمرح والامان وسمع أزيز محرك ثم رأى طائرة تحلق فى السماء . وأخذ الصبى يراقب النار البعيدة وقد شده التوتر ، ثم قفز من السور محاولا ألا يحدث جلبة .

كان المنزل فى طرف القرية ، والطريق بعده ينحدر مباشرة الى أسفل . وكان تراب الطريق باردا عند السطح ، ولكنه كان يحتفظ فى جوفه دفء النهار . وسرّ الصبى لهذا الاكتشاف فسار بعض الوقت وهو يدفع قدميه داخل التراب ، ثم أفاق لنفسه فجأة . لقد ابتعد كثيرا . . وعندما التفت خلفه لم ير قمة الربوة ولا منزله ولا المنازل الاخرى الأعلى . واختفت أيضا النار التى كان يراها أمامه ، فقد حجبها تل آخر . وقف الصبى فى مكانه ، وتطلع الى السماء بنجومها الصغيرة فبدت له صافية ، رطبة وبراقة بعض الشىء كصورة من الصور الملونة المنقولة لتوها الى الورق . وتذكر على الفور سماء المدينة الكبيرة الشاحبة الزجاجية فمضى قدما دون تردد ، ناظرا الى أعلى ، وهو يحاول أن يحدد موضع كوكب المريخ . وعاوده الشعور بالأمان فسرى فيه المرح .

لم تكن حرارة اللهب قد انتشرت بعد ، ولكنه أحس برائحة الدخان الجاف النفاذة ، وتوقع أنه سيرى حالا ، خلف الاشجار الداكنة ، الشعلة الملتهبة . أحس بالتعب من الصعود والهبوط ، ومن الغابة المرعبة فى الليل ، ووخز ابر اغصان الصنوبر الضخمة التى كانت تحجب عنه السماء بين الحين والآخر ، ومن الفروع الحادة والاغصان السفلى والشجيرات الشائكة وجذور الأشجار الملتوية . وتساقطت قطرات العرق من وجهه خلف ياقة قميصه المفتوح .

وقف الصبى عند طرف المنطقة المكشوفة فى الغابة معتمدا بيده على جذع شجرة دافىء . وفى وسط المنطقة تماما كان ثمة كرة كبيرة تتأرجح بحجم منزل ذى ثلاثة طوابق ، ينبعث منها وميض . وكان الدخان ينبعث من الشجيرات القائمة على اطراف المنطقة ، وقد اسودت غصون الأشجار المواجهة للكرة ، بينما اختفى اللهيب .

وقال الصبى لنفسه :

— حتى سفينة الرحلات بين الكواكب قد تحترق فى طبقات الغلاف الجوى .

كانت الكرة تبرد بسرعة . فعندما كان الصبى يشاهد المنظر من قمة الربوة ، لم ير سوى كتلة برتقالية بلا شكل محدد ، ولما وصل الى هنا كان لون الكرة قد أصبح ورديا شاحبا واستمر يتبدل . منذ وقت قريب كان الصبى فى رحلة الى أحد المصانع . وكانت كتل المعدن المستخرجة من الفرن تبرد فى ورشة الحدادة على هذه الصورة تماما . وشحب سطح الكرة وانتشرت فوقه خطوط زرقاء وهى تختلط . وخبا اللون الوردى ، وحل الظلام . لا بد أن الكرة أصبحت باردة تماما . وفجأة اضاء كشاف على سطحها ، وانطلق منها شعاع أقوى من أى شعاع على الأرض ، وان كان لا يغشى العيون أبدا ، وأخذ يتحرك كشعاع مائل . وأخذ الشعاع يقترب من الصبى لكنه لم يبتعد حتى عندما توقف الشعاع عليه . وظهر شق فى جانب الكرة وأخذ يتسع بسرعة ، ففهم الصبى أنه باب يفتح . ولاح ضوء داخل الفتحة ، ثم ظهر بساط طويل أخذ ينبسط بسهولة حتى بلغ الأرض .

وقال الصبى محدثا نفسه :

— عندنا هنا يمدون سلما لا بساطا .

واقترب وتحسس البساط بيده فوجده صلبا للغاية ، كأنما كان شيئا آخر غير البساط الذى كان يفرش منذ لحظة بسهولة .

واشتد الضوء داخل الفتحة وظهر هو . وأخذ يهبط ببطء فوق بساطه المعلق . كانت قامته معتدلة تشبه قامة الانسان وانسدل الى جانبيه ذراعان تشبهان أيضا الأذرع الآدمية ، لكن وجهه لم يعجب الصبى . . . كان مغطى بالبثور والتجاعيد ولا يشبه الوجوه البشرية .

وسار حتى بلغ حافة البساط ثم توقف ، وأطرق قليلا كأنما يصغى الى شىء ما ثم خطا على الأرض ونزع القناع عن وجهه . .

وابتسم الصبى ببشاشة وهو يقول :

— أهنئكم بسلامة الوصول . اننى اعرف لماذا ترتدون بزة فضاء قبيحة كهذه . لقد قرأت منذ فترة كتابا عن الخفافيش . . ان لديها مثل هذه التجاعيد . . لكى تستطيع تحديد اتجاهها فى الظلام . . بواسطة ما فوق الصوت . . .

ونظر الغريب الى الصبى صامتا . كانت عيناه كبيرتين ، اكبر من العيون البشرية حوالى مرتين ، ولكن نظرتهما كانت لطيفة .

سأل الصبى :

— من أين جئتم ؟

وأخرج من جيبه خريطة مجعدة مهترئة تمثل السماء والنجوم . وما أن نظر القادم الغريب اليها حتى رفع يده كما يفعل الحواة ، واذا فيها جسم ما ، ناوله للصبى . كان ذلك نموذجا مجسدا للمجموعة الشمسية ؛ ولم يكن مفهوما كيف كانت اجزاء النموذج مستقرة داخل الغلاف الشفاف المحيط بها ، ولكن الشمس كانت هناك مضيئة وحولها تدور الكواكب فى مداراتها المحددة . ووجد الصبى مدار الكرة الأرضية وادهشته قوة المناظير الفلكية لدى اولئك الغرباء ؛ حتى أنهم رأوا على هذه الكرة الصغيرة ملامح المحيطات والقارات بل وحتى بروز المدن الكبرى . واشار القادم باصبعه الطويل النحيل الى كوكب المريخ فى النموذج .

وهلل الصبى :

— آه ، انتم من المريخ ! كان لدى احساس بأنكم فعلا من هناك . حسنا . . أهلا بكم . . دعونا نتعرف . . اسمى ساشا . . من أهل الأرض .

واشار بيده الى نفسه .

فقلد ساكن المريخ اشارته قائلا :

— أو .

ومد الصبى يده ، فمد ساكن المريخ يده ، وضغط على يد الصبى بقوة دون ان يسبب له ألما .

وجذب الصبى ساكن المريخ قائلا :

— هيا بنا . لابد ان تعرف البشرية بوصولكم بأسرع ما يمكن . لقد شاهدوا سفينتكم بلاشك ، ولا يمكن أن يكونوا قد ظنوها نجما يهوى . ربما يبحثون الآن عنكم ، هل تسمع أزيز المحركات ؟ ولكنك لن ترى شيئا خلال غصون الأشجار . بالقرب منا قرية وبها مكتب بريد وتلغراف واناس كثيرون مختلفون . .

وأخرج من جيبه قلما صغيرا وكتب على خريطة النجوم « ممنوع مس اى شىء الى حين وصول أكاديمية العلوم » وثبتها فى غصن شجيرة قريبة .

ثم ألقى نظرة أخيرة على المنطقة المكشوفة ، مسرح أعظم حدث فى حياته ، وتباعدت الأشجار المظلمة فرأى جميع المدن الكبرى فى العالم وجماهير الناس وهى تركض . . .

واشاح ساكن المريخ بيده فانطوى البساط واختفى داخل الفتحة واغلق الباب ، ثم انطفأ ضوءه الكشاف فى أعلى الكرة .

وقال الصبى :

ـ سنعود الى هنا بسرعة .

وتقدم فتبعه ساكن المريخ ، وتلاحقت الافكار فى رأس الصبى ، كل فكرة تسبق الأخرى .

ـ لقد جريت الى هنا على غير هدى ، ولم يهمنى ان كانت الغصون تخدشنى أم لا ، لكننا الآن سندور حول هذا الفضاء المكشوف حتى نهتدى الى الدرب لكيلا يمسك غصن واحد .. الست ضيفنا ؟ أوه كم أحبك يا ساكن المريخ ! كم كنت انتظر وصولك ، موقنا أنكم زرتم أرضنا فى وقت ما ، لكنكم رحلتم عنها اذ لم تجدوا من يضاهيكم فى الذكاء ! وها أنت ذا هنا من جديد ، انك لست شريرا على الاطلاق ، بل انت طيب يا ساكن المريخ ، لن تدمر شيئا عندنا أو تغتصبه .. الست انسانا عالى التطور ! كم كنت انتظرك يا ساكن المريخ ! ولو لم تأت الينا لوجدت الطريق اليك ، ربما بعد عشر ، أو خمس عشرة ،

أو عشرين سنة ، وربما يأتى وقت نطير فيه معا الى مجرة أخرى .

كانا يسيران على الدرب ، والصبى يبعد الغصون بيديه حتى لا يصطدم بها ساكن المريخ ويحاول ألا يجعله يتعثر فى الجذور الملتوية . ولاح ضوء الفجر ، ولمع الندى على الأوراق ، وصدحت الطيور ، وتصاعدت سحب الضباب من الوديان فى الغابة ، فنظر الصبى الى ساكن المريخ محاولا أن يعرف رد فعله على هذه الألوان والروائح والأصوات الأرضية وهل تعجبه أم لا .

وحلقت فوق الغابة ثلاث طائرات هليكوبتر ، وما أن خرج الصبى وساكن المريخ من الغابة الى مكان مكشوف حتى بدأت الطائرات تهبط وتدلت منها سلالم من الحبال وهبط منها أناس عسكريون ومدنيون . وكان أول الهابطين أكاديمى يرتدى طاقية سوداء ، ذو لحية بيضاء طويلة تناثر شعرها فى الهواء . وجذب الصبى ساكن المريخ من يده وجرى لملاقاتهم .

وقدّم صاحبه قائلا :

ـ انه من سكان المريخ

وتنحى .

ورفع الأكاديمى طاقيته بينما أدى العسكريون التحية العسكرية وسمع نقر آلات التصوير .

وقال الصبى :

ــ سفينته هناك فى الغابة . . لقد رأيت وهجها فى الليل . . .

واجاب الأكاديمى :

ــ شاطر !

وأخرج ميدالية كبيرة عليها حروف ذهبية :

ــ ما اسمك واسم عائلتك ، وعنوانك ؟ سأبلغ عنك جميع الصحف . وغدا سنأتى الى هنا فى بعثة كبيرة وسأستدعيك تلغرافيا . . أما الآن فابتعد . . .

وأشار الأكاديمى الى سلم الحبال داعيا ساكن المريخ للصعود . فهز الأخير رأسه وصعد الى الطائرة ، وتبعه الأكاديمى ، وهرع الباقون الى طائراتهم . ودارت المراوح بقوة فتمايل العشب أمواجا صغيرة . ورفع الصبى رأسه وصاح :

ــ الى اللقاء يا ساكن المريخ ! اننى فى انتظارك . . الى اللقاء !

وطارت الطائرات العمودية نحو الشمس المشرقة

الحمراء التى اخذت تكبر شيئا فشيئا ، كما تبدو من نافذة سفينة فضاء ، والتمت أشعتها النارية على مراوح الطائرات .

. . . كانت بعثة الانقاذ قد اجتمعت بسرعة ، وتحرك رجالها الستة نحو الغابة كى يتفرقوا هناك بحثا عن الصبى . كان النهار مشرقا والسماء صافية وسارت السيارات المحملة ، الواحدة تلو الأخرى ، وقد أثارت تراب الطريق . . . ولم يطل البحث ، فقد رأوا الصبى فى بداية الغابة . كان راقدا فى ظل الشجيرات ، والعشب الطويل يتمايل فوق وجهه الشاحب ، وجه ساكن المدينة الذى لم تلوحه الشمس . كانت ساقاه المطلتان من سرواله القصير مملوئتين بالخدوش ، ونعله الخفيف معفرا برماد الحريق . وكان تنفسه مضطربا وجسده يختلج بين الحين والحين فتمتد ذراعاه . وانحنى الطبيب عليه ، وأصغى قليلا ، ثم اعتدل .

ــ لاشىء . انه نائم فحسب .

كان الرجال واقفين حوله متجهمين ، وقد ارتدوا جميعا أحذية عالية من المطاط . كانوا مترددين :

هل يوقظون الصبى الآن ثم يعنفونه لكن بمودة ، أم ينتظرون قليلا ويدخنون سيجارة .

وقال أبو الصبى الذى كان لايزال مذهولا وان اصبح قادرا على التفكير :

ـ أنا لا أفهم ، لا أفهم .. آخذ أجازة ، ثم آتى معه الى هنا ، فاذا به يهرب من البيت ثالث يوم ! والى أين ؟ ولماذا ؟ . . .

وهز الطبيب كتفيه قائلا :

ـ انه صبى ! ربما جذبه الحريق اليه ؟ لقد اشتعلت النار فى كومة من القش فى الغابة ليلا . . صحيح انهم اطفأوها بسرعة . . ولكن طبعا مر وقت كثير فى الذهاب الى هناك ، ثم العودة . . .

أنا ذاهب للقاء أخى

ف . كرابيفين .

انتظروا « ماجلان »

— ١ —

من كان فى كونساتا يتذكر دون شك ذلك السلم الضيق الملتوى الذى يشق طريقه فى الصخور الساحلية . ويبدأ السلم من الشرفة ذات الاعمدة منحدرا نحو البحر . ولا تفصل بين اسفله والماء سوى قطعة ارض ضيقة مستوية تغطيها احجار اسفنجية وحصى كبيرة الحجم ، وتنداح الارض المحصورة بين البحر والصخور البيضاء المائلة الى الصفرة من « وادى الجنوب » الى « النقطة الشمالية » ، حيث تطاول عنان السماء مسلة الطيارين الفلكيين الشهداء الرفيعة والمائلة .

ويطيب فى هذا المكان جمع الاحجار المبرقشة التى سننتها الامواج ، وصيد السرطان الاسود الشرير . ودائما يتوقف الصبية العائدون من المدينة المدرسية ،

التى تقع الى الجنوب من مطار راتال الكونى ، على الساحل وهم فى طريقهم الى البيت لفترة من الزمن . فيملأون جيوبهم بمختلف اللقيات التى لم يدرك قيمتها الكبار ابدا ولن يدركوا ، ثم يركضون صاعدين درجات السلم العالية . ان السلم القديم يروق لهم اكثر من السلم الآلى المتحرك الذى يتسلق الصخور على بعد مائة قدم من هنا .

وفى ذلك الحين كنت قد انهيت توا التقرير عن البعثة الثالثة الى حوض الامازون . واصبح بامكانى الان وطوال شهر كامل قراءة الكتب العادية ، التى طالما اشتقت اليها ايام العمل المضنية . وكنت آخذ معى مجموعة من الاشعار او قصص راندين واصعد الى الشرفة العليا للسلم القديم . كان المكان مقفرا . وكانت الاعشاب تنمو فى الشقوق الفاصلة بين الصفائح الصخرية . وعششت الطيور فى زخارف الاعمدة المتشابكة .

وكنت اقضى الوقت بادىء الامر فى تلك الشرفة وحيدا . ثم بدأ يتردد على المكان رجل اسمر طويل القامة يرتدى سترة رمادية غريبة التفصيل . وفى الوهلة

الاولى لم يثر احد منا اهتمام الاخر ، وكأن اتفاقا مسبقا جرى بيننا . ولكن بما انه لم يكن احد سوانا يرتاد هذا المكان تقريبا ، وبعد ان تكررت مناسبات اللقاء بيننا ، بدأنا فى خاتمة المطاف نتبادل التحية دون ان نتبادل الحديث قط . وكنت اقرأ ، اما ذلك الشخص الغريب فكان يبدو طول الوقت غارقا فى التفكير وكأن فكرة معينة تشغل باله ، دون ان تتاح له الفرصة للبدء بالحديث .

كان هذا الشخص يرتاد المكان عند المغيب دائما . وعندما تتألق الشمس فى النقطة الشمالية ، حيث تشمخ مبانى كونساتا البيضاء . وتشحب زرقة البحر ، وتبدو تموجاته أشبه بالرصاص المنصهر . وفى الجهة الشرقية تكتسب لون الورد اقواس القنطرة القديمة التى تقوم فى نهاية مطار راتال الكونى ، وكأنها تذكرنا بتلك الازمان ، التى لم تكن فيها الطائرات قادرة على الاقلاع العمودى .

وكان الرجل الغريب يتخذ مجلسه عند قاعدة احد الاعمدة صامتا ، مسندا فكه على كفه . وكانت تدب الحيوية فيه ، عندما يظهر التلاميذ على الساحل . ثم

ينهض واقفا فى اعلى السلم ، فيتابع لعبهم وينتظر الوهلة التى يلحظه فيها ذلك الصبى الاشقر الذى يرتدى سترة من جلد النمر سوداء ـ برتقالية اللون ومخططة فينطلق نحوه الى الاعلى . وفى كل مرة كان الصبى ينطلق نحوه بسرعة البرق فترفرف سترته التى كان يرميها على كتفيه كالراية فى مهب الريح .

وعندها تتغير ملامح ذلك الغريب العبوس . فيستقبل الصبى بمرح ثم يغادران المكان وهما منهمكان بالحديث عن امورهما وقد احنيا رأسيهما مودعين .

وخيل لى فى بداية الامر انهما اب وابنه . ولكنى سمعت الصبى ذات مرة يرد على شخص ما وهو راكض :

ـ انا ذاهب لاستقبل اخى !

وعرفت فيما بعد من الحديث بين الاخوين ، ان اسم الأخ الاكبر الكسندر .

وقد حدث بعد زهاء اسبوع من اليوم الذى رأيت فيه الكسندر لاول مرة الحادث التالى . فقد جاء فى الوقت المعتاد وجلس عند العمود ، مصفرا لحنا غريبا حادا بعض الشىء . اما انا فكنت منهمكا فى القراءة ، ولكن ليس لدرجة الاستغراق ، ذلك انى كنت اعرف

« اغنية الكوكب الازرق » لفالنتين راندين عن ظهر قلب تقريبا . وكنت بين الفينة والاخرى القى النظرات على الكسندر من فوق حافة الكتاب العليا وبدا لى ان وجهه ليس غريبا علي .

وهبت نسمة باردة خفيفة . وبينما كنت اقلب احدى صفحات الكتاب المهلهل ، طارت احدى اوراقه غير المنظومة . فسمعت حفيفها وهى تتطاير مصطدمة بالاحجار ورأيتها عند قدمى الكسندر . فرفعها ونهض ليناولنى اياها . فنهضت بدورى ، والتقينا وسط الشرفة .

كانت هذه اول مرة اشاهد فيها الكسندر هكذا عن قرب . فبدا لى اقل عمرا مما كنت اتصور . والتجاعيد على قصبة انفه كانت تجعل وجهه قاسى الملامح . لكنه ابتسم وعندها اختفت التجاعيد . وسألنى وهو يمد يده مقدما الى الصفحة :

ـ ليس الكتاب ممتعا جدا ؟

ـ اننى اعرفه جيدا ، ليس الا .

ولم ارغب فى قطع الحديث ، فاستطردت :

ـ لقد تأخر اخوك . . .

ـ من المفروض ان يتأخر اليوم . لكننى نسيت . . .

وجلسنا جنبا الى جنب . فطلب الكسندر ان يلقى نظرة على كتابى . واستغربت كونه لا يعرف القصص القصيرة لراندين ، ولكنى لم اقل شيئا . وعندما فتح الكسندر الكتاب ووضع راحة يده على صفحاته ، كى لاتتطاير ، لاحظت على ظهر يده ندبة بيضاء متشعبة . فلاحظ الكسندر نظرتى . وقال :

— حدث هذا هناك . . . على كوكب « الوردة الصفراء » .

وعندها تذكرت كل شيء فى الحال . وهتفت : الكوكب الثلجى ؟! الكسندر سنيج * .

فالبرامج الطارئة ، والاعداد الخاصة من المجلات التى لم تختف من صفحاتها صور الكسندر سنيج ورفاقه الثلاثة ، كانت من احداث الماضى القريب جدا . وكانت تتردد اسماؤهم فى ارجاء الارض انذاك مقرونة بالاعجاب .

ورأيتنى امام الشخص الذى عاد الى الارض بعد رحلة دامت ثلاثمائة عام . ولم يكن ذلك الامر غريبا

* سنيج — الثلج بالروسية .

بحد ذاته اذ ان « باندير يليا » و « موسّون » حلقتا ايضا فى الفضاء الكونى اكثر من قرنين . وبالرغم من ان قصة مركبة الفضاء الفوتونية التى عاد بواسطتها سنيج كانت اكثر غرابة من الاخريات ، فانها لم تشغل تفكيرى آنذاك .

سألت الكسندر وانا احس بانى اواجه لغزا عجيبا : — أحقا ثلاثمائة سنة . . . بينما لايتجاوز سن الصبى الثانية عشرة . فكيف يمكن ان يكون شقيقك ؟

فرد الكسندر قائلا بعد لحظة من الصمت قائلا : انا اعلم بأنك من رجال الاثار . وعليك ان تحس بالزمن افضل من سواك . وان تفهم الناس . . . فهلا ساعدتنى اذا ما حدثتك عن كل شيء ؟

— سأبذل ما بوسعى لمساعدتك .

— ان ما ساحدثك عنه لا يعرفه الا انا وثلاثة اشخاص فقط لكنهم لا يستطيعون ابداء المساعدة اللازمة . . . ان نصيحتك ضرورية للغاية . . . فمن اين ابدأ ؟ . . على كل حال ، لقد بدأ كل شيء على مدرجات هذا السلم بالذات . . .

— ٢ —

كل شيء بدأ على مدرجات هذا السلم .

جاء نيل الى ساحل البحر لاول مرة منذ موت والديه . كان البحر بزرقته الساطعة وامواجه المتلاطمة التى يطفو فوقها الزبد وديعا ومشمسا وكأن مياهه لم تبتلع قط اية سفينة . . . وقد احاطه قوس هائل يمثل المدينة البيضاء .

وشرع نيل بالنزول صوب البحر . وكلما اقترب منه اسرع فى النزول ، وسرعان ما أنطلق باقصى سرعته لملاقاة السطح الازرق الرحب الذى تتراقص فوقه أشعة الشمس والاستمتاع بهوائه الرطب المالح .

وتعثر نيل بقطعة حجر فالتوت قدمه ووقع ارضا . لم تكن السقطة قوية . فنهض وهو يعض على شفته ويعرج بعض الشيء وواصل النزول . وكان نيل شأن جميع الصبية يؤمن بان الماء المالح خير دواء للخدوش والتسلخات . ولهذا اراد ان يدخل الماء بعد ان رمى نعليه . لكنه رأى بين الاحجار التى تغمرها من لحظة

لاخرى امواج خفيفة سرطانا اسود ضخما . فقفز الصبى جانبا بشعور لاارادى .

ويختلف الامر بين ان يأخذ الخوف الانسان للحظة او ان يكون جبانا تماما . ولكى يختبر نيل شجاعته ويثأر من السرطان على تخويفه اياه قرر ان يصطاد الزاهد الاسود ويقذف به بعيدا فى البحر .

ويبدو ان السرطان احس بالخطر فاسرع واختفى بين الاحجار .

فهمس الصبى :

— مهلا . . انى لك بالمرصاد . . !

واخذ الصبى المولع بالرياضة يقلب الاحجار . فهوت قطعة حجر مسطحة فى الماء . وما ان شعر السرطان انهم قد عثروا عليه ، حتى اسرع اكثر من السابق . ولكن نيل كان قد انحرف عنه ولم يوله اهتماما . فقد لمح علبة زرقاء صغيرة على حصى مبلل . كانت العلبة ناعمة الملمس ومستديرة وكأنها قطعة حجر صقلتها الامواج . ولا يعرف من اين اتى بها البحر الى هذا الساحل .

جلس الصبى على الحصى واخذ يمعن النظر فى

هذه اللقية . واكتشف انها ملحومة الغطاء . فظل نيل يخدش اللحام طوال اكثر من ساعة بابزيم حزامه حتى فصل الغطاء عن العلبة . فرأى داخلها ورقة قديمة فيها شارة هى عبارة عن غصن مذهب بدت خلال اوراقه نجوم رائعة وقد حفرت على الغصن كلمة واحدة « استكشاف » .

ونسى نيل الورقة وهو غارق فى تفحصّ الشارة . ولم يتذكرها لو لم تقذف الريح بورقة مكورة على ركبته فاخذها وصفنها . وتبين انها احدى صفحات مجلة قديمة جدا . . جدا . ولم تصب باى تلف لعدم نفاذ الماء داخل العلبة . وبدأ الصبى بالقراءة مواجها صعوبة جمة فى فهم الكتابة القديمة . وفجأة ظهرت ملامح الاهتمام والجد على وجهه . ولكنه واصل القراءة فوجد فى نهاية الصفحة كلمات لم يكن يتوقعها اثرت فى نفسه كصوت وتر عال ومفاجىء .

. . . وبعد زهاء الساعتين وصل الصبية الى الساحل . كان نيل يجلس فى نفس المكان مسندا مرفقيه على الاحجار التى أدفأتها اشعة الشمس وهو يمعن النظر فى زبد الامواج المتلاطمة مع الساحل .

وقال كبير الصبية :

— لقد بحثنا عنك . ولم نكن نعلم بانك ذهبت الى البحر . لماذا انت جالس بمفردك على الساحل ؟

ولم يسمع نيل شيئا . اشتدت سرعة الريح . وزاد هدير الامواج . اتعلمون كيف تهدر الامواج ؟ فى البداية يرتفع هدير الموجة المقبلة ، ثم ينهار الشبح مطرطشا على الصخور . وتنبسط بعده زاحفة منسابة بهديرها على حافة الساحل . . . فتتبعها الموجة التالية . . .

— ٣ —

لا يختلف الصبى نيل بشىء عن تلاميذ « الوادى الجنوبى » . وكان كالاخرين يحب ركوب الاراجيح العالية على مسافة خطرة من الاشجار المعوجة الملفوفة ، واللعب بالكرة بين جذوع الاشجار فى المروج المشمسة . ولم يحب كثيرا دراسة تاريخ اكتشاف الكواكب العظيمة . كان باستطاعته ان يسبق الكثير من الصبية فى الركض ، لكنه لم يكن يسبح بمهارة كافية . كان يشترك بارتياح فى اية لعبة ولكنه لم يحتل

المرتبة الاولى فى اى منها ابداً . وذات مرة اقدم على ما يعجز عنه الجميع .

وذلك ان غصنا مرنا لشجيرة كانت تنمو على الساحل تشبث بالشارة المثبتة على قميصه . فطارت الشارة ذات النجوم الزرق ووقعت فى الماء . وكانت تبدو بوضوح فى الماء الشفاف وهى تنزل الى القاع . فقفز نيل حالا ، دون ان يفكر لحظة ، فى الماء من ارتفاع ستة امتار وانقذ الشارة باعجوبة دون ان يرتطم بالاحجار المدببة التى كانت فى الاسفل .

وسرعان ما صعد الى الساحل وهو يشد راحة يده على الشارة و يعصر قميصه باليد الاخرى وهو صامت .

لم يعرف احد ، من اين له تلك الشارة ولماذا يحافظ عليها لهذه الدرجة . الا يحتمل ان يكون لدى كل شخص سره الخاص . لقد كبر نيل بكل معنى الكلمة بعد موت والديه ، ولم يكن يرد على اسئلة اترابه ابدا .

اضف الى ذلك انه لم يطرأ اى تغيير ملحوظ على حياته عندما بلغه نبأ المصيبة التى المت به . وقبل هذا كان نيل يقضى جل وقته فى المدرسة . ان ابويه كانا مختصين بدراسة الاعماق الكبيرة ، وكانا يسافران

للعمل فى البعثات اغلب الاحيان . لكن الصبى عرف الان ان سفينة الاعماق « الايل » لن تعود ابدا ، ولن يظهر بعد ذلك فى نهاية الممر الشخص الذى يمكنه الانطلاق نحوه ناسيا كل شىء على وجه البسيطة .

ومرت الاشهر آخذة معها ساعات الدراسة الصباحية والايام المشمسة ، وتلك الاوقات المليئة بالالعاب الصاخبة والامطار المبهجة . ويبدو ان النسيان اسدل ستاره على المصيبة . بيد ان الامواج حملت فى احدى المرات من مكان مجهول الى الساحل القريب من السلم القديم علبة زرقاء صغيرة لم يعرف مصدرها . كلا . . لم تكن العلبة ذكرى عن سفينة الاعماق المفقودة .

عندما تنعكس فى الليل اضواء « ابراج راتال » البرتقالية من خلال النافذة كان نيل يخرج من العلبة الزرقاء صفحة المجلة المكورة . ولم يكن للنور ضرورة ، اذا كان الصبى قد حفظ كل سطر فيها عن ظهر قلب . كانت تلك مجلة قديمة جدا تصدر قبل ثلاثمائة عام . والنص المطبوع فى الصفحة كان يتحدث عن الرحلة التى بدأتها مركبة الفضاء الفوتونية « ماجلان » .

لقد ورد فى كتاب تاريخ الرحلات بين النجوم حول هذه المركبة باختصار وباقتضاب : توجهت المركبة « ماجلان » نحو احد النجوم الصفراء بغية البحث عن كوكب مثيل للارض . ويحتمل ان طاقمها استخدم معلومات غير دقيقة عن الكوكب حصل عليها من المركبة المفقودة « جلوبوس » . وكان على المركبة « ماجلان » ان تعود بعد مائة واثنتى عشرة سنة . ولكن لم تصل منها اية معلومات . ومن المرجح ان الطيارين الفلكيين الشبان المولعين بالاسطورة والذين لم تكن لديهم الخبرة الكافية ، لاقوا حتفهم قبل الوصول الى الهدف .

ولم يرد فى الكتاب حتى ذكر اسمائهم . وقد عرفهم نيل بواسطة الورقة التى عثر عليها . كان اسم قائد المركبة الكسندر سنيج .

وعلم نيل من ابيه ان احد اجداده كان طيارا فلكيا . وعندما قرأ آنذاك على الساحل اسم « سنيج » احس بالفخر والغضب فى آن واحد . اما الغضب فكان سببه تلك الكلمات المقتضبة وربما الخاطئة عن الطيارين الفلكيين الذين وردت اسماؤهم فى الكتاب .

ما اكثر الاسباب التى يمكن ان تؤدى الى القضاء على المركبة . وهل يلام طاقم المركبة بسبب ذلك ؟

« وماذا لو انهم لم يعثروا على شىء عند تلك « النجمة الصفراء » وواصلوا تحليقهم ؟ اليس من المحتمل انهم . . . ما زالوا يحلقون الى يومنا هذا ؟ » — دارت هذه الافكار بخلد نيل وهو يناقش مع نفسه سطور هذا الكتاب . واذ كان يفكر بهذا الامر اغمض فجأة عينيه وكأنه ذعر من افكاره الخاصة . وتصور امامه بوضوح الممر الطويل لحديقة المدرسة باشجارها الكثيفة ، وفى نهايته يقف رجل طويل القامة يرتدى سترة الطيار الفلكى الفضية ، رجل يمكنه ان ينطلق نحوه ناسيا كل شىء على وجه البسيطة .

واذا عاد ؟ اكان باستطاعته ان يعود ثانية ؟ ان الوقت فى السفن الكونية يمر ابطأ بعشرات المرات مما هو على الارض . واذا ما عادت مركبة الفضاء الفوتونية فجأة ؟ فان نيل سيستقبل اخاه وليس احد اسلافه او شخصا مجهولا من قرن آخر . لان الصبى قرأ فى اخر صفحة من المجلة الكلمات التالية التى وجهها احدهم الى طاقم « ماجلان » : « لا تنسوا الاسماء

القديمة . ستعودون بعد سنوات طويلة ، لكن احفاد اصدقائكم سيستقبلونكم كاصدقاء . وسيصبح احفاد اخوانكم اخوانا لكم . . . » .

كان نيل يدرك ان هذا كله محض خيال . ومع ذلك كان لا يستبعد امكانية حدوث هذا الامر . سيحل الصباح . . . انه يرى بوضوح هذا الصباح : الشمس الساطعة قد ارتفعت الى سمت الرأس والسماء الزرقاء لدرجة صبغت معها المباني والملابس البيضاء والهيكل الفضي للمركبة . وادت الصواريخ المساعدة الى هبوط المركبة فورا وبحذر فوق ساحة الميناء الكوني . واستقرت المركبة النجمية الهائلة كبرج متلألئ تشبه نهايته عرف الديك والذي يبلغ ارتفاعه مائة وخمسين مترا مستندة على السلندرات السوداء للعاكسات الفوتونية . وظهرت بارزة على عرف البرج حروف منيرة للغة قديمة تشكل اسم « ماجلان » . وها هم ينزلون ببطء بواسطة السلم اللولبي . والان ستطأ ارجل الملاحين الارض وسيتوجهون بعدها لتحية المستقبلين . وسيقابلهم نيل قبل غيره اذ كان يقف في المقدمة . وعندها سيسأل حالا : من منهم الكسندر سنيج يا ترى ، ثم . . . كلا ،

قرر الا يتكلم كثيرا . ففي البداية سيذكر اسمه فقط . اذ ان اسم عائلته سنيج ايضا . .

لم يعتد نيل على كتمان افراحه او احزانه . لكنه لم يخبر احدا بذلك . لانه ، رغم ارادته ، بدأ يحلم بالمعجزة . ومن يؤمن بالمعجزة يا ترى ؟ ولكن نيل كان يخرج في بعض الليالي الورقة المكورة بعد ان ينظر الى اضواء الابراج في المطار الكوني . أليس من حق كل شخص ان يحلم حتى ولو كان الحلم متعذر التحقيق .

لا توجد معجزات . ولكن حدثت صدفة غريبة ، اذ استقبلت محطة الارشاد الخامسة في احد الايام نداء اثار ضجة كبيرة في العالم اجمع وهو : « الارض . . . اعطوا اشارة جوابية . انا آت . انا « ماجلان » .

— ٤ —

لم يطلع البدر بكامله بعد ، لكن القسم العلوي من القرص المنير كان قد اعتلى التلال المتموجة . وكان ضوؤه المتناثر والمائل الى الصفرة يخترق النافذة ، ويمتد كحزام واسع على السجاد .

وأقفل نيل جهاز الاستقبال اليدوى اذ لم تكن هناك اية انباء جديدة . لكنه لم يستطع الانتظار اكثر من ذلك . وتردد الصبى ثانية اخرى ، ثم نهض من مكانه ورتب الفراش وارتدى ملابسه بسرعة البرق . وبعد ان طرح السترة على كتفيه اقترب من النافذة التى كانت مواربة ، ولم تكن فى واقع الامر محكمة الاغلاق لانه قد امتد عبرها الى الغرفة غصن نبات لبلاب قرمزى جلب من المريخ . فلو احكم اغلاقها لقطع ساق اللبلاب ذى الاشواك الدقيقة . وبدت الشجيرات التى نمت بعد هطول المطر عبر النافذة متوهجة فى ضوء «القرص» ، وتعكس لمعانا مائلا الى الخضرة على الجدران البيضاء وزجاج نوافذ المدارس العريض . ولاح فوق التلال شعاع برتقالى انعكس على الغيوم المتناثرة ، وما لبث ان اختفى من جديد . يبدو ان مطار روتال الكونى يرسل اشارة الى شخص ما ثانية .

ودفع نيل الباب الزجاجى واخذ طريقه فى الممر الممهد .

لم يكن الكسى اوسكار مدير المدرسة قد نام بعد

بل كان يقرأ . وهب هواء منعش مشبع برائحة المطر فى الغرفة عبر الباب المفتوح وقلب اوراق الكتاب .

ووقف الصبى عند الباب .

— نيل ؟!

— نعم . . .

وبعد ان تعثر نيل فى كلامه محاولا الاسراع فى انهائه ، قص كل شىء لاول مرة .

نهض اوسكار واشاح بوجهه صوب النافذة . ولم يكن يعتبر نفسه مربيا ذا خبرة خلافا لرأى الجميع . وكل ما هنالك انه كان يتمتع بقابلية العثور على الحل الصائب فى الوقت المناسب . ولكنه اصيب بالذهول الان . فما الذى يستطيع قوله ؟ الا يجدر توضيح بعض الامور للصبى او حمله على العدول عن رأيه ؟ ولكن هل هذا ممكن ؟ وهل سيكون عند ذلك على حق ؟ لاذ المدير بالصمت ، اما الوقت فكان يمضى ولم يكن السكوت ممكنا اكثر من هذا .

— اسمع يانيل ، — هكذا بدأ المدير كلامه ، ولم يكن ليدرى العبارة التى ستتبع ذلك — الوقت ليل . . . الان .

— اوسكار ، اسمح لى ان اذهب الى « ساحل الصيف » .

قال الصبى ذلك بصوت خافت .

ولم يفهم من العبارة ان ثمة شيئا من الرجاء فيها ، اذ ان صوته كان ينم عن اسى يشبه الشوق الجارف الى الارض ، الذى يتملك رواد الفضاء فيجعلهم يقومون بالمجازفات .

ثمة امور تعجز المفاهيم والقوانين عن تفسيرها . فما الذى كان يستطيع اوسكار قوله فى تلك اللحظة ؟ لا شىء ، سوى ان الليل قد حل وعليه ان ينتظر حلول الصباح . ولكن ما فائدة ذلك ؟

وقال اوسكار : — سارافقك الى المحطة .

— لاداعى لذلك . الافضل ان اذهب وحدى . . .

ثم غادر الصبى المكان .

وتقدم اوسكار من الفيديوفون وطلب « ساحل الصيف » ، بعد ان ادار رقم محطة الارشاد وضغط بقنوط على زر النداءات المستعجلة .

لكنه لم يتلق اى جواب . الا ان الجهاز ردد صوت الانسان الآلى الهادىء وهو يقول : « كل شىء على احسن ما يرام » .

رحلة فى الليل

— ١ —

كان من الافضل لو لم يسلك هذا الطريق .

ثم قرر نيل ان يذهب الى المحطة عبر التلال اختصارا للطريق ، فوصل الممر بعد مضى ربع ساعة . وكان القمر الابيض يتألق فوق القمم الدائرية وبدت « حلقة الطاقة » محاطة بهالة منيرة . وكانت انوار ابراج راتال فى الجانب الايمن تنطفىء وتشتعل ببطء . اما فى الجهة اليسرى فكان بعض انوار كونساتا يبدو متلألئا من وراء التلال الممتدة على شكل حزام عريض نصف دائرى . وكان البحر يتموج خلفها بكسل على ضوء القمر .

اما جسر راتال بقناطره القديمة فكان يخترق الوادى من بدايته الى نهايته .

وحتى هذه اللحظة لم يدرك الوجل نيل من اللقاء ولم تساوره الشكوك . وكان نبأ عودة « ماجلان » غير متوقع ومثيرا فى الوقت ذاته ، ولم تترك البهجة مكانا للاضطراب فى نفسه .

ولم يحس نيل بالقلق الا عندما رأى القنطرة . وربما كان سيعجز عن تفسير الشك الذى راوده حينئذ . ربما كان السبب رؤيته لعقود القنطرة التى يبلغ ارتفاع الواحد منها حوالى مائتى متر ، فقد بدت كئيبة ورهيبة عملاقة . وذكرته بالارقام الصعبة المنال لكل ما يتعلق بالفضاء ، وبالمسافات التى قطعتها « ماجلان » ، وبالسنوات الثلاثمائة ... « ان احفاد اخوانكم سيصبحون اخوة لكم » .. وهل لما قيل قبل ثلاثمائة عام من معنى ...

كانت دعائم الجسر المعلق السوداء تنتصب كصفين من عمالقة الاساطير ، وكأنها فى صمتها تسأل الصبى : الى أين يذهب ؟ ولماذا ؟ وما هذه الافكار الحمقاء التى تراوده ؟

وتلفت الصبى حوله كمن يبحث عن سند ، بيد ان اضواء وادى الجنوب كانت قد غابت خلف التل .

عندئذ توقف لحظة جامدا ، ثم انطلق فجأة نحو الجسر المعلق . ركض نحوه مباشرة فوق عشب لم يزل بعد رطبا . وخدش نبات شوكى ساقه ، فتوقف ، ونزعه بغضب من جذوره ، وعاد يركض ثانية . كان

يركض مسرعا حتى لا يلحق به القلق الغريب الطنّان ! الآن سيعبر منطقة الظل العريضة ويتجاوز البوابة السوداء لجسر راتال ...

— ٢ —

كانت عربة القطار الدائرى السريع المتوجه الى شمال القارة عبر شاطىء الصيف خاوية . وضم نيل قدميه وتكور فى المقعد وأخذ يحدق عبر النافذة فى الظلام الذى كان يعدو الى الخلف بسرعة خمسمائة كيلومتر فى الساعة .

كان نيل متعبا ، وربما كان مستسلما للنوم الان لولا هذا القلق الذى عاد يطن فى اذ نيه طنين وتر مزعج : « ماذا لو انه لم يجبنى بشىء ؟ ماذا لو انه اعتبر الامر مزحة ؟ وهل يأبه بطل الفضاء العائد بعد ثلاثمائة عام بصبى صغير ؟ »

وتخيل الصبى فجأة ارض المطار الكونى الواسعة المكتظة بآلاف المستقبلين ... آلاف الهتافات ،

وآلاف الايدى الممدودة للمصافحة . فماذا يفعل هو هناك ؟ ماذا يقول ؟

وخطرت له فجأة فكرة . . لا ينبغى ان يقضى الليلة فى المدينة وينتظر هبوط سفينة الفضاء فى الصباح . يجب ان يقول كل شىء لالكسندر الان بواسطة « المرشد ــ ٥ » الذى اقام اتصالا مع السفينة . ان محطة الارشاد تقع على بعد اربعين كيلومترا من شاطىء الصيف . عليه ان يمكث فى القطار خمس دقائق اخرى .

وانتظر حتى بلغ القطار المنعطف التالى فخرج الى الرصيف الدائرى المتحرك واخذ يقفز فوق الدوائر التى تخفف من سرعة اندفاعه ، حتى وصل الى المركز الثابت ، وعبر النفق ثم خرج الى الرصيف .

امامه كان ينبسط حقل اسود ، ومن خلفه اضواء الرصيف الخابية ، وعند الافق ظهر صارى محطة الارشاد الازرق .

وكان الهواء يهب خفيفا فألقى حفيفه الهادىء السكينة فى قلب الصبى . وسار نيل نحو الصارى الازرق مباشرة وهو يشق طريقه وسط العشب العالى .

يبدو ان المطر سقط هنا ايضا منذ فترة قريبة ، فقد كانت الاوراق المبللة تلتصق بركبتيه ، وكان الهواء رطبا ودافئا .

وبعد قليل خرج الى الطريق فأسرع الخطى ، فزاد الهواء المقابل من سرعته ايضا محاولا نزع السترة عن كتفى الصبى .

ــ ٣ ــ

كفت محطة « المرشد ــ ٥ » منذ فترة طويلة عن اعطاء اية بيانات مفصلة ، وكان الجهاز الاتوماتيكى يجيب على جميع الاسئلة بعبارة « كل شىء على مايرام » ، وقد حاول الكثيرون ضبط اجهزتهم على موجة الاتصال بالسفينة ولكنهم لم يوفقوا ، فلم يكن هناك من يعرف طريقة الارسال القديمة .

وكانت محطة « جوبيتر » الانتقالية هى اول من التقط اشارة السفينة الفوتونية « ماجلان ». ولكن الارض اصبحت الان على اتصال مباشر بالسفينة ، ولم يغادر المرشدون المحطة لحظة واحدة . كان ثلاثة منهم

مناوبين امام الفنار الموجه ، اما الرابع فكان نائما فى مقعده بجوارهم . وكان طاقم السفينة قد سلّم قيادتها للارض ، وعلى المرشدين ان ينزلوها على ارض مطار « الشاطىء الفضائى » .

ومنذ ساعات قليلة اجرى سرغى كوستيور اتصالا صوتيا مع السفينة . ولكن الطاقم لم يخبره بأية معلومات سوى ما يتعلق بنظام عمل الاجهزة الاتوماتيكية للمساعدة على الهبوط .

ووجه المرشدون السفينة الى مدار دائرى فتعلقت حول الارض كتابع لها يدور معها مرة كل اربع وعشرين ساعة . وكان سرغى على وشك الانتهاء من اذاعة بيانات الاتجاه ، عندما قال ميجل نوفيوس :

ـ هناك شخص يبعث باشاراته منذ ساعتين ويطلب منا الرد .

فقال سرغى دون ان يلتفت :

ـ لابد انه مصاب بأرق . . .

واخذ يراقب بانتباه « المتجه » المتقاطع مع النقطة السوداء التى تمثل المطار الفضائى على الخريطة المضيئة .

وعاد نوفيوس يقول :

ـ انه نداء عاجل . . ست اشارات استغاثة . . ليس هذا مجرد حب استطلاع

ـ لو كان الامر هاما فلماذا لا يتصل بالخط المباشر ؟

ـ لا أعرف . . .

بعد بضع دقائق سمع سرغى بنفسه صفارة النداء العاجل . ولم يتمكن لا هو ، ولا المرشدان الاخران المناوبان على اجهزة الارسال الاخرى ان يقتربوا من جهاز الفيديوفون .

وقال سرغى :

ـ أجب على النداء يا ميجل .

ولكن ميجل كان مستغرقا فى النوم فى مقعده . ولم تتكرر الاشارة . ثم مر نصف ساعة ، وتلقت اجهزة السفينة الاتوماتيكية المهمة الاخيرة ، فأغلق سرغى عينيه بارتياح . ولكن الارقام الحمراء ظلت تتراقص امام عينيه المغمضتين وآلمه جفناه المتعبان .

وفى هذه اللحظة لمس شخص ما ذراعه فرفع راحتيه عن وجهه ورأى امامه صبيا فى حوالى الثانية

عشرة من عمره ، اسمر ، اشقر الشعر ، يرتدى سترة مخططة مفتوحة ، ويضع شارة ذهبية على قميصه الاخضر الفاتح ، وآثار خدوش حديثة على ساقيه . كان الصبى يحدق فى وجه سرغى من اسفل الى أعلى . ويبدو انه اراد ان يوضح الامر كله فى لحظة واحدة فقال عدة كلمات لم يفهم المرشد معناها على الفور فسأله :

— عم تتحدث ؟ كيف جئت الى هنا ؟

* * *

عندما اقترب نيل من مبنى محطة الارشاد الرئيسى عثر على الفور على احد الابواب . ولما دلف منه وجد نفسه فى طرقة ضيقة طويلة ، وتردد فيها وقع خطواته عاليا . وكانت ارضها الملساء اللامعة كالزجاج تعكس على صفحتها مصابيح السقف الكبيرة . وسار الصبى فى الطرقة ، فعادت اوتار القلق اللعين تقلقه وقد اتحدت فصارت صوتا واحدا ممضا . وازداد قلقه حتى غص حلقه من الاضطراب ، واحس بقلبه يختلج بلا انتظام ككرة تتدحرج على درج .

وانتهت الطرقة بمنعطف حاد ، قاده الى درج عريض

ارتقاه نيل ، ثم توقف لحظة ويده مرفوعة امام باب زجاجى غير شفاف ، لكنه استجمع نفسه ودفع الباب .

رأى قاعة دائرية ذات جدران منخفضة وقبة شفافة مخططة بخطوط بيضاء غريبة تلوح النجوم من بين نسيجها العنكبوتى . وكانت أرضيتها ذات المربعات السوداء والبيضاء ترتفع قليلا نحو مركز القاعة حيث كانت فسحة صغيرة عليها جهاز مخروطى الشكل يقف امامه ثلاثة رجال . وغير بعيد عنهم كان يرقد رجل رابع فى أحد الكراسى المبعثرة فى القاعة . وكان الثلاثة الواقفون امام الجهاز يتحدثون عن شىء ما ، وبدت له اصواتهم عالية وغير طبيعية . لقد سمع كل كلمة لكنه لم يفهم شيئا . يبدو ان رأسه كان يدور قليلا من الارهاق ، حتى ان كل شىء بدا له غير حقيقى . وخطا فوق المربعات السوداء والبيضاء حتى وصل الى وسط القاعة فصعد الى الفسحة وهز برفق احد المرشدين من ذراعه . والتفت المرشد نحوه ففهم نيل من نظرة عينيه المندهشتين ان المرشد لم يسمع وقع خطواته .

ولكى يوضح له الامر كله دفعة واحدة قال :

— لقد جئت لاقابل اخى . . .

كان كل شيء يبدو كحلم . وتكلم نيل واستمع وكأن شخصا آخر هو الذى يتكلم ويستمع ، واحس بصوته يدوى ثم يتلاشى فى هذا المبنى الضخم . ولم يذكر ان كان تكلم طويلا ام لا . ولكن يبدو انه تكلم مدة قصيرة للغاية . كانت اضواء اللمبات الصغيرة تومض فى الاجهزة المقامة بجوار الجدران الدائرية ، وعلى الشاشات ترتسم خطوط زرقاء كالثعابين ، سرعان ما يتغير شكلها .

واستطاع نيل ان يتخلص لحظة من تسمره فسأل :

— خبرنى ايها المرشد ... هل سيرد علىّ ؟ ألن يرفض ؟

وحلت لحظة صمت . ثم قال احدهم عبارة بدت لشدة بساطتها وطبيعيتها انها لا تتفق ابدا وما يدور هنا.

— أصل الموضوع ان ...

وصاح أحدهم ليوقظ ميجل :

— ميجل ! ميجل ! استيقظ واسمع .

ورقصت على الشاشات خطوط كالبرق ، وفجأة قال كبير المرشدين الذى كان يدعى سرغى :

— انك تنام يا صغيرى .

وحمله على ذراعيه ووضعه فى كرسى واسع وثير . ولكن نيل لم يكن نائما . كان ينظر الى الاضواء المتراقصة ويسمع كلمات تدوى تحت القبة :

— انسان ...

— ثلاثة قرون ...

— لم يخف ... واذا لم يكن الامر كذلك ؟

— انه نائم .

— كلا .

وسأل الشخص الذى قال « كلا » :

— ما اسمك يا أخا رائد الفضاء ؟

— نيل

ولم يسمع احدا يكرر السؤال ولكنه احس ان المرشدين لم يفهموا ، وقال :

— اسمى نيل سنيج .

فرددت الاصوات :

— سنيج ...

— تركيب غريب ...

واراد نيل ان يقول : « ليس هناك شيء غريب . لقد سمونى كذلك على اسم « نيل ليدس » قبطان السفينة « الضوء » ... »

وحرك احدهم الكرسي ثم قال :
— انه نائم .
ففتح نيل عينيه وقال :
— لست نائما . . هل ردت « ماجلان » ايها المرشد ؟
فانحنى سرغي عليه وقال :
— نم . . . لقد قالوا انهم سيقابلونك بعد أسبوع . قرر طاقم السفينة ان يهبطوا بصاروخ انزال في منطقة الغابات . . . يبدو انهم يتجنبون صخب الاستقبال ، وقد اوحشتهم الارض ، والريح ، والغابات . وبعد عدة ايام سيصلون سيرا على الاقدام الى « شاطىء الصيف » .
وطار النوم من عينيه على الفور :
— واذا ؟ والناس . . . الا يريدون ان يستقبلوهم ؟
فقال سرغي :
— لا تقلق . . لقد وعدوا بان يقابلوك بعد اسبوع .
الان فقط لاحظ نيل ان قاعة المرشدين ليست بمثل تلك الضخامة ، فقد انطفأت الشاشات واصبحت السماء فوق القبة الشفافة منخفضة وملفعة بالضباب .
وسأل :

— اين سيهبطون ؟
— طلبوا الا نخبر احدا بذلك .
— وانا ؟ الا تخبرونني ؟
— عند شبه جزيرة الرأس الابيض .
ونهض نيل ، فاقترح عليه سرغي :
— نم هنا حتى الصباح . ثم نقرر بعد ذلك ما العمل .
— كلا . سأعود الى المنزل .
— دعني اصاحبك .
— كلا .
ها قد انتهى كل شيء . . . كانت حكاية حمقاء صدقها بلا داع . . ثلاثمائة سنة . . .
لم يصغ الى كلمات المرشد الاخيرة فنهض بسرعة ثم جرى فوق المربعات السوداء والبيضاء في الصالة ، ثم فوق ارضية الطرقة الزجاجية ، ثم على الممشى المرصوف بالحصى . ومرة اخرى وجد نفسه في الحقل الاسود ، فسار نحو الرصيف البعيد . . سار ببطء ، فما الداعي الان للاسراع ؟ « سنتقابل بعد أسبوع . . . » من يرغب في اللقاء لا يؤجله ساعة واحدة .

كان من الممكن ان ينتهى كل شىء على تلك الصورة لولا ان لمح نيل على بعد مائة خطوة من المحطة موقف مركبات « النحلة » . فراودته فجأة فكرة بدت للوهلة الاولى مضحكة . ولكنه لم يكد يقطع عشرة امتار حتى عاد فتوقف وقال لنفسه : « ربما لم يتمكن الكسندر من تغيير قراره بالهبوط بعد ان سمع من المرشد حكايتى ، فليس هو فى السفينة وحده » .

واحس بقلبه يضطرب من الامل الذى عاد يراوده ، فاقترب بتردد من المركبات . كان ينقصه ثلاثة اشهر لبلوغ الثانية عشرة ، وهى السن التى يسمح له فيها بقيادة « النحلة » منفردا . . . فهل يخالف القواعد ؟ . . .

جلس فى الكابينة وهو لا يزال مترددا ثم وضع الخوذة الواقية واختبر المحرك فأومضت اللمبات الصفراء فى لوحة الادارة وميضا مشجعا . عندئذ ادار المراوح العمودية فارتفعت « النحلة » ، وانطلق بها فى اتجاه الشمال الشرقى . سوف يتمكن بهذه السرعة الكبيرة من بلوغ الرأس الابيض بعد ساعتين .

يبدو انه نام اثناء الطيران . . . فقد خيل اليه ان الرحلة استغرقت وقتا قصيرا للغاية . ولم يكن يفكر الا فى شىء واحد : « سأقترب منه واقول له من انا . . . الامر الان سيان . . . » .

لو رأى فى العينين نظرة لا مبالاة به فسيركب « النحلة » فى صمت ويعود من حيث اتى فى اتجاه الجنوب الغربى . . .

وقعت الكارثة عندما كانت « النحلة » قد عبرت خليجا هادئا انعكست على صفحته النجوم وحلقت فوق غابة سوداء كثيفة متجهة نحو الرأس الابيض . كان الجانب الشرقى من السماء قد بدأ يضىء ، بينما ظل وسطها مظلما . فى تلك المنطقة كانت السفينة « ماجلان » معلقة فى الجو بعد ان هجرها ركابها .

وحاول نيل عبثا ان يرى فى الاسفل اضواء ما ، او حتى هيكل الصاروخ المخروطى . وحلق مرتين فوق طرف الرأس الابيض وهو يكاد يلامس قمم

الاشجار . ثم بدأ المحرك يضعف . واتضح ان البطاريات قد فرغت ، ففهم الصبى انه ركب « نحلة » لم تكن معدة للطيران . عندئذ قرر ان يلقى نظرة اخيرة على الغابة المظلمة تحته ، ولكى يتسع مجال رؤيته الى اقصى حد ارتفع بالمركبة بواسطة المراوح العمودية . وظل يرتفع حتى توقف المحرك وسكنت المراوح وبدأت « النحلة » تميل نحو الارض وقد نشرت اجنحتها .

اكتشف نيل خطأه متأخرا .. لن يستطيع الهبوط برفق كالطائرة الشراعية فتحته تمتد غابة كثيفة .

ولسبب ما لم يشعر بالخوف . أخذ ينظر الى الاشجار الراكضة تحت الجناحين مباشرة ويحاول موازنة المركبة . ثم رأى القمم السوداء امامه فجأة فضغط على الفرامل لا اراديا . وحدثت فرقعة مدوية تبعتها عدة صدمات حادة ، ثم صدمة أقل حدة ، وصدمه ظهر المقعد بشدة فى كتفيه وانغرز شىء حاد فى احدى كتفيه ، والتصقت بخده سيقان اعشاب جافة عطرة . وقال لنفسه وهو يتمدد على العشب : « اين الصاروخ ؟ »

الشمس الرابعة

— ١ —

قال الكسندر :

— لم يكن المرشدون او الصبى يعرفون بالطبع اسباب قرارنا الغريب . ولكن السبب كان الحيرة .. لم تكن تلك الحيرة البسيطة التى قد تنتابك عندما تسمع نبأ غير متوقع .. بل هى حيرة أقرب الى الضياع والخوف .. فماذا كان بوسعنا ان نقول ؟ ..

لن أحدثك عن رحلتنا .. فكل الرحلات تجرى بصورة متشابهة ، ما لم تحدث كارثة . العمل ، والنوم الطويل اللابيولوجى ... وفى الارض كان قد مر نصف قرن ، اما فى السفينه فحوالى اثنتى عشرة سنة عندما درنا حول كوكب الوردة الصفراء ، واقتربنا ، اخيرا ، من الكوكب المنشود .

فى البداية شعرنا بمرارة الخيبة فى بحثنا ، فقد رأينا امام اعيننا ارضا متجمدة جليدية .. خالية من الحياة او الحركة ، بلا غابات او هدير أمواج . ومن

فوق قمم الجبال المتكسرة تدلت شمس صفراء ساطعة مدثرة بغلالة من الضباب البارد ، كانت تشبه بالفعل الوردة الصفراء . وانعكست على المحيط المتجمد الوان صفراء ووردية ، وتكثفت الزرقة فى شقوق الصخور وكتل الجليد وظلال الوهاد المعتمة . الجليد . . والبريق البارد . . والصمت المطبق . . .

كان الشيء الوحيد الذى ابهجنا هو الهواء . . هواء حقيقى ، يكاد يكون هواء ارضيا ، الا انه بارد كماء ينبوع جبلى . ومنذ اليوم الاول نزعنا الاقنعة والخوذات واخذنا نستنشقه من خلال اسناننا المزمومة من البرد . لقد مللنا هواءنا الكيميائى النقى ، هواء غرف السفينة الخالى من أية نكهة . واعتقد انه بسبب ذلك الهواء كانت تنتابنا وحشة مضنية وحنين مستبد الى الارض ، تبعث مجرد ذكراهما الرهبة فى القلب ! اما فى الكوكب الثلجى فقد خفت وطأة ذلك الشعور . ففى هذا العالم الجليدى المغلف بالبرد كان ثمة شيء يوحى بالقرب ، غير اننا لم ندرك ذلك للوهلة الاولى . وفى كل مرة نغادر فيها السفينة كنا نرى مملكة الثلوج والصخور والجليد . . .

— ٢ —

شاهدوا شعابا سحيقة تراكم فيها ضباب ازرق . وعندما كانت اشعة الشمس تنفذ اليها عبر شقوق الجدران العمودية ، كانت تتحول من اللون البرتقالى الى الاخضر ، وتتفتق الى مئات الشرارات الزمردية وسط كتل الجليد . واذا وصلت الاشعة الى القاع توهجت باقات من الاضواء الخرافية فى مئات من البلورات الجليدية .

وفى الليالى كانت السماء خلف نوافذ السفينة « ماجلان » تمتد جدارا اسود تعلوه اشباح الابراج النجمية الزرقاء . واحيانا كانت السحب العالية الشفافة ترسل بصيصا من الضوء المائل الى الصفرة ، فينعكس على سفوح الجبال المتجمدة كاشفا فى الظلام كتل الصخور المتراكمة .

ورغم ذلك لم يكن هذا الكوكب البارد ميتا . فقد كان يحدث احيانا ان تأتى من جهة الغرب سحب ثقيلة فتغطى شمس المغيب البرتقالية ، وتمحو من على الصخور الظلال السوداء الشائهة . ويبدأ الثلج يسقط . . . ثلج حقيقى ، كما يسقط فى مكان ما على شاطىء بحر كرا او فى منطقة مدن القارة القطبية

الجنوبية . وكان الثلج يذوب فى راحاتهم متحولا الى مياه عادية ، تصبح بعد قليل دافئة .

وذات مرة وجدوا فى نصف الكرة الجنوبى واديا ليس به ثلج او جليد ، بل صخور عارية واحجار جعلتها الرطوبة بلون الفضة ، وحصى على ضفة نهير غير متجمد . ومن بين الصخور تدفق شلال مياه براق تحوطه مئات اقواس قزح صغيرة . وبدا كأن الشلال يريد بهديره ان يوقظ هذا العالم النائم تحت وطأة البرد .

وغير بعيد عن الشلال وجد كار نباتا صغيرا أوراقه سوداء ، ملتصقا بالصخر ، فنزع قفازه واراد ان يشد ساق النبتة الدقيق المغطى بالعقد . وفجأة اهتزت وريقات النبتة واندفعت نحو يد كار ؛ فسحب كار يده بحركة لاشعورية . . .

ونصحه لارسن الحريص قائلا :

ـــ دعك منه . . لسنا ندرى كنهه . . .

ولكن كار ادرك الامر من زاوية اخرى ، فقد ارتسم على وجهه طيف ابتسامة ، ومد راحته فمر بها فوق

النباتات السوداء فعادت هذه تنجذب باوراقها نحو راحته .

وقال كار بصوت خفيض :

ـــ انها تنجذب الى الدفء .

ثم صاح بالبيولوجى تايل الذى كان متأخرا قليلا :

ـــ تايل ! . . اخيرا وجدت لنفسك كنزا حقيقيا !

فى تلك اللحظة لم يكن الملاح قد ادرك اهمية اكتشافه .

* * *

اجتمعوا جميعا فى المساء فى صالون الاستراحة على متن « ماجلان » . كانوا خمسة اشخاص : كنود لارسن الاشقر الشعر العريض المنكبين الطيب القلب والذى لا يفقه كثيرا فى اى شىء ليست له علاقة بالعقول الالكترونية . وشخصان افريقيان ، احدهم البيولوجى تايل ، وهو رجل صغير مرح ، والاخر الملاح تى كارات ، وكانوا دائما يدعونه بـ « كار » اختصارا . اما قائد السفينة وفلكيها فكان يدعى جيورجى روجوف ، شعره اشقر كلارسن ولكنه اسمر كالافريقيين ،

وهو اصغر افراد طاقم السفينة سنا . وكان خامسهم الكسندر سنيج الذى كان يعمل ملاح استطلاع . . ورساما ايضا . وكان فى الفترة الاخيرة منهمكا فى رسومه حتى انه سلّم قيادة الطاقم لكار .

وعندما كانوا مجتمعين فى الصالون قال كار :

— كوكب غريب . . اليس كذلك ؟ ولكن الشيء الوحيد الواضح انه لو لم يكن الكوكب متجمدا لكانت فيه حياة . والواضح ايضا ان الشمس ، اى الوردة الصفراء ، ستذيب جليده فى يوم ما . . لكن ما لا نعرفه هو كم الف سنة سيتطلب ذلك . . . هلا أذبنا الجليد بأنفسنا ؟

واقترح ان يشعلوا فوق الكوكب الثلجى اربع شموس صناعية حسب طريقة الاكاديمى فورنتسوف ، وكانت تلك طريقة قديمة وبسيطة نوعاما . وقد اشعلت مثل هذه الشموس الذرية فوق الارض منذ زمن بعيد ، فى السنوات العشر الاولى التى تلت تحطيم الاسلحة النووية والتوصل اخيرا الى تخصيص الطاقة الذرية كلها لاغراض سلمية . وفى تلك الفترة بالذات اذابوا جليد جرينلاند وشواطىء القارة القطبية الجنوبية .

وسأل جيورجى :

— ولماذا اربع شموس بالذات ؟

— هذا هو الحد الادنى ، بأقل من اربع شموس لن يذوب الجليد كله وعندها يعود الشتاء الدائم يزحف على الكوكب كله من جديد .

ولكن اشعال اربع شموس سيستهلك ثلثى ما تبقى لديهم من وقود . وهذا يعنى ان رواد الفضاء لن يستطيعوا الاقلاع بالسفينة بالسرعة المطلوبة ، وبذلك لن يتمكنوا من الرجوع الى الارض الا بعد مائتين وخمسين عاما ، وسيضطر افراد الطاقم الى قضاء معظم هذه الفترة فى النوم اللابيولوجى . مائتان وخمسون سنة . . . ولكنهم فى المقابل سيهدون الناس كوكبا جديدا يكون بمثابة موقع متقدم للبشرية فى الفضاء ، ولن تكون رحلتهم هذه البعيدة عبثا .

وسأل لارسن :

— وما المطلوب لذلك ؟

فطاف كار على الحاضرين بنظره وقال :

— موافقتكم .

فقال لارسن :

— موافق .
وهتف تايل :
— طبعا !
وهز جيورجي رأسه موافقا فى صمت .
وفجأه صاح سنيج :
— كلا !

مرت بضع ثوان من الصمت المقرون بالدهشة ، ثم تحدث سنيج .

قال انه من الحماقة ان نجعل من الكوكب معمل تفريخ . فلا ينبغى ان يهاب الناس الجليد القاسى او الصراع مع الطبيعة فى كوكب غريب عليهم ، فبدون الصراع تفقد الحياة معناها ... وماذا يحدث مثلا لو انطفأت الشموس الصناعية قبل ان يذوب الجليد كله ؟ ماذا سيحدث للرعيل الاول الذى سيقطن كوكب الثلج لو حل بهم الشتاء الدائم فجأة ؟ حسنا ، لنفرض ان الشموس لن تنطفىء ، لنفرض ان الجليد كله سيذوب .. فما الذى سيراه الناس اذن ؟ جبالا عارية ووهادا دون غابات ، وصحراء رمادية ...

كانوا يصغون اليه ، وفى بعض اللحظات كان كل

منهم مستعدا لان يوافقه على رأيه ، لا لأن كلماته بدت لهم مقنعة ، بل كان حماسه واصراره هما المقنعين . هكذا كان سنيج يجادل دائما كلما أحس انه على حق .. وبمثل هذا الحماس دافع هناك ، فى الارض ، عن حقه فى الطيران الى « نجمه » .

— ٣ —

كان الاصدقاء يذكرون كيف كان يقف فى الغرفة الكبيرة بقصر النجوم امام رجل شاحب جاف العود يحدثه بلهجة صريحة عنيفة :

— اننى مندهش .. كيف عهد مجلس رواد الفضاء بحل هذه المسألة اليك وحدك .. اليك يا من لا تستطيع الايمان بالاساطير !

وكان الرجل يزداد شحوبا ، ولكن عصبيته لم تظهر الا فى الاضطراب الخفيف الذى ميز اجاباته الهادئة :

— كل شاب سافر الى ما وراء مدار جوبيتر يعتقد انه اصبح مستعدا للطيران الطليق والبحث عن

الكواكب ولو فى مركز المجرة . هذا امر مضحك .
لقد لعبت برؤوسكم تلك الحكايات عن كوكب
الوردة الصفراء . ولكن الوردة الصفراء نجم خبيث . .
طبعا هناك سحر خاص وراء ذلك . . فالحقيقة الخالدة :
حكاية جذابة .

— انك تدعى العلم بالحقائق الخالدة ، ولكنك
تنسى شيئا واحدا . . ففى كل اسطورة بذرة من الصدق . .
اننا نؤمن بانه توجد كواكب . . .

فأمال روتايس رأسه قائلا :

— سأسمح لنفسى بانهاء هذا الحديث العقيم . .
انا لا أرى لديك من الاسس ما يؤهلك للسفر فى بعثة
البحث الطليق . . وبالاضافة الى ذلك فانى حزين
للغاية والحديث يرهقنى . فمنذ ساعة تحطمت طائرة
فالنتين يانتار المائية ، وهو الان فى منزله وانا ذاهب
اليه .

ولكنه فيما يبدو لم يكن مستعجلا ، فعندما وصل
الكسندر الى منزل يانتار لم يجد هناك سوى الاطباء ،
وعلم منهم ان رائد الفضاء العجوز رفض ان تجرى
له عملية جراحية . . . وقال لهم :

— لن استطيع الطيران بعد ذلك . . . اما الحياة . .
فقد كانت طويلة الى درجة كافية .

ودخل الكسندر سنيج فى صمت الى الغرفة التى
يرقد فيها رائد الفضاء ، فسمعه يقول للطبيب الحائر :

— أرجوك ان تنصرف .

كانت الغرفة شبه مظلمة ، وربما بسبب الستائر
المسدلة او ربما بسبب اغصان شجر التفاح المزهرة
التى كانت تسد النوافذ . واقترب الكسندر من السرير
الذى يرقد عليه يانتار . . كان مغطى بملاءة بيضاء
تنسحب حتى رقبته . واستقرت فوق الملاءة لحيته
الشقراء الملبدة ، وامتد عبر جبينه المغضّن خط من
الدم .

وقال الكسندر :

— لن يفهمنى احد سواك . وربما اتهمنى الاخرون
بالقسوة والجنون والانانية لسلوكى هذا . . ولكنى ارى
أننا — انا وانت — نستطيع ان نواجه بعضنا بالحقيقة . .
لن تستطيع الطيران بعد اليوم . . .

— حسنا . . .

فمضى الكسندر يقول بصوت خافت :

— لا يسمحون لطاقمنا بالسفر للبحث . . فلتتنازل لنا عن حقك فى التحليق الثانى . . وساعتها سنطير .

— الى ليدا ؟ الى كوكبى ؟ هل قررتم ؟ لم تند عن يانتار حركة من رأسه او يديه ، لكن عينيه ومضتا بالفرحة .

ربما رأى فى تلك اللحظة العالم الازرق لكوكب ليدا الذى لم تحل كل الغازه ، باطلال مدنه الفيروزية وجباله البيضاء السامقة فوق كتل الغابات الكثيفة البنفسجية الملفعة بضباب سام أزرق . ثم اختفت الرؤيا الساحرة فعاد يرى امامه وجه الكسندر القاسى المتوتر .

ثم قال بصوت مخنوق :

— كلا ، طبعا لن تذهبوا الى كوكبى .

فقال سنيج :

— لكلّ نجم يدعوه .

وجلس قرب حافة السرير وحكى له كل شىء . . عن النبأ الاخير الذى وصل من « جلوبوس » ، وعن لغز الوردة الصفراء ، وعن خطة البحث الطليق التى خطرت لخمسة من الرواد الشبان ، وعن حديثه الاخير مع روتايس .

وقال فى الختام :

— ان ليدا تنتظر رجال الاثار ، اما نحن فرجال استكشاف . نريد ان نعثر على كوكب هواؤه مثل هواء الارض . . فالناس بحاجة الى كواكب مثل هذه .

واغمض يانتار عينيه ، ثم قال :

— حسنا . . تنازلت لكم عن حقى فى التحليق الثانى .

فرد الكسندر متذكرا وجه روتايس الشاحب الجامد :

— لن يصدق .

— خذ شارتى . . هناك فى المحارة الزرقاء ، على المائدة . .

فى محارة زرقاء عثر عليها فى ليدا كانت موضوعة شارة ذهبية ذات نجوم زرقاء كتبت عليها كلمة « استكشاف » .

وتطلع الكسندر الى الشارة ، ثم الى رائد الفضاء الجريح . ولاول مرة خلال الايام الاخيرة تخونه صلابته ، فضم اسنانه وقبض يده التى كان قد اوشك ان يمدها .

فعاد يانتار يقول :

— خذها . . انت على حق .

وعندما اطبق الكسندر قبضته على الشارة قال يانتار :

ـ اكسر زجاج النافذة . . كلا ، لا تفتحها بل حطم زجاجها . . انه قديم وهش جدا . . حسنا ـ قالها عندما سمع صليل الزجاج المحطم .

وكسر الكسندر غصنا كبيرا خلف النافذة فتسلل الى الغرفة شعاع شمسى .

ـ بداية طيبة ! ـ قال يانتار وهو يتحامل على نفسه ليكتم الالم المتصاعد فى صدره ـ فلتعودوا كلكم الى الارض !

ـ هذا لا يحدث الا نادرا .

ـ ولذلك أتمناه لكم . . .

وعندما خرج سنبج قابل عند الباب روتايس ففتح قبضته وأراه الشارة ، فهز هذا كتفيه بخفة وخفض رأسه . وكان ذلك يعنى استنكاره الدفين لسلوك هذا الرائد الشاب ، وفى الوقت نفسه الموافقة الاضطرارية ، فلم يكن بوسع احد من أهل المجموعة الشمسية ان يرفض حق الطيران الثانى . . اذ ان لكل رائد فضاء اكتشف كوكبا جديدا ثم عاد الى الارض الحق فى ان يطير مرة ثانية فى اية بعثة وفى اى وقت وعلى متن اية سفينة

جاهزة للاقلاع . كما كان بوسعه كذلك ان يتنازل عن حقه لقبطان آخر .

وفى لحظة خاطفة تذكر الكسندر وجه يانتار ، قبطان سفينة «البحث» المشهور ، بجبينه المغضن وخط الدم عليه ، وعينيه الزرقاوين كما لو كانتا تعكسان عالم ليدا الخرافى. «الى ليدا ؟ الى كوكبى هل قررتم ؟» . . . نعم لقد فهمه الرائد العجوز ، فماذا عن روتايس ؟

والتفت الكسندر نحو روتايس وقال بجفاء :

ـ بلغ ميناء الفضاء الشرقى . لقد وقع اختيارنا على «ماجلان» .

لقد كان الكسندر اكثر الجميع سعيا لتنفيذ هذه الرحلة ، بينما كان الذهاب بالنسبة له أصعب مما هو للاخرين ، نعم ، سيترك كل منهم اقارب فى الارض ويفارقهم . اما هو فكان عليه ان يفارق حبيبته . . هو وحده من دونهم جميعا . .

ومن ينظر اليهما من بعيد تبدو له صداقتهما غريبة ؛ فقد كانا قليلا ما يظهران معا ، ونادرا ما كان يتحدث احدهما عن الاخر ، ولم يعرف بحبهما الا الاصدقاء . . .

وقبل رحيله بأسبوع قابلها فى الحديقة الشمسية الجديدة . . وكان الهواء ينتزع الاوراق من الاشجار والشمس ترقص على رمل الممرات الابيض . كانت الفتاة تلوذ بالصمت .

وقال لها سنيج :

— ولكنك تعلمين اننى رائد فضاء .

كان يجيد اصطناع الهدوء .

وقبل السفر اعطاها الشارة الذهبية .

. . . ذات مرة دخل جيورجى صالون الاستراحة صدفة فرأى سنيج يخرج صورة مجسمة ويضعها امامه ، وظل يحدق فيها صامتا دون ان يرفع عنها عينيه فترة طويلة .

فقال جيورجى :

— لو كنت مكانك لخبأت هذه الصورة الى الابد .

فنظر اليه الكسندر نظرة لم يعرف جيورجى ان كانت نظرة سخرية ام دهشة .

— او تظن ان كل شيء ينسى ؟

واغمض عينيه براحته ورسم بقلمه عدة خطوط حادة فظهرت بدقة بالغة صورة الفتاة على لوح الكرتون .

— هكذا .

كان ذلك فى السنة الثامنة من الرحلة حسب توقيت السفينة « ماجلان » .

— ٤ —

وها هو الكسندر سنيج ، الذى كان اكثر الجميع اندفاعا للبحث ، ها هو الان يدافع عن الكوكب الجليدى كما لو كان معرضا للهلاك لا للازدهار :

— صحراء رمادية ، واعشاب مريضة ! حسنا ، لن يكون هناك جليد ، فماذا سيبقى ؟ ارض ميته ، احجار بلا حياة .

فقال تايل معارضا :

— الناس سيخلقون كل شيء ! كل ما ينبغى عمله سيعملونه .

فمضى سنيج يقول :

— ولكنى لم اذكر بعد شيئا هاما . . لا ينبغى ان نسلب الناس ذلك العالم الذى وجدناه نحن هنا ، لانه عالم رائع ، الا تدركون ذلك ؟

وألقى برسوماته على الطاولة ، فخيم عليهم السكون

وهم يرون ما سبق ان رأوه ولكنهم كانوا قد نسوه تحت وطأة مملكة الجليد . كانت الرسومات تعبر عن تسجيل دقيق مدهش للالوان هنا : اوقات المغيب البرتقالية المقرونة بالسواد ، والشعاب الزرقاء بضبابها المضىء ، والصباح المتقد بالشرارات الذهبية فوق كتل الجليد ، والسماء الصفراء وعلى صفحتها اكوام من السحب الرمادية . . .

وقلبوا الاوراق ببطء ، ثم قال كار اخيرا :

– حسنا . . ولكن هذا الحل غير معقول : البرد والموت فى سبيل الجمال . ما الحاجة الى جليد ميت ؟

فهز الكسندر رأسه :

– ليس ميتا ، بل تدب فيه حياة خاصة . . . الهواء والجداول والاعشاب . . . كل شىء هنا يستيقظ شيئا فشيئا . . لا داعى للعجلة والا تحولت الى صحراء .

– لن تتحول الى صحراء ، بل ستصبح محيطا ، أزرق بلا حدود ، كما فى الارض ، وسيكفى الجليد المذاب لذلك . وسوف تهدر الشلالات . تصور يا الكسندر : الاف الشلالات الفضية وسط الصخور والضباب الملون بالوان الطيف . ستكون هنا طبيعة

متجهمة ، ذات جمال خاص . . ولكن سيكون هنا ايضا حياة . الم نكن نبحث عن كوكب كهذا ؟

وقال تايل بصوت خافت :

– سيصبح هنا محيط به جزر تكسوها الغابات .

– من أين ستأتى الغابات ؟ هل ستنمو من الاعشاب السوداء ؟

– بل سيغرسها الناس !

– على الاحجار ؟

وقال جيورجى الذى كان صامتا حتى الان :

– لست على حق يا ساشا . تذكر القارة القطبية الجنوبية .

واراد سنيج ان يعارض ، بيد انه جلس فجأة متعبا وقال :

– لا بأس ، وهل انا أمانع ؟

– وهل ستشارك فى الحسابات ؟

– سأشارك فى العمل لا فى الحسابات . . ماذا افقه انا فى الرياضيات ؟

— ٥ —

وانفقوا وقتا طويلا فى العمل مستعينين بالآلات الاتوماتيكية ومفاتيح الهواء المضغوط ، ثم تمكنوا من اطلاق اربعة صواريخ انزال تحيط بها شبكة ضوابط مغناطيسية . ولم تكن الصواريخ تحمل اجهزة قيادة وتوجيه آلية ، فقد جلس كار ولارسن فى صاروخين وانطلقا بهما الى المدار ثم قفزا منهما فى حلتيهما الواقيتين ، وصنعا ايضا نفس الشىء بالصاروخين الاخرين . وهكذا اصبحت الصواريخ الاربعة التى تعمل بالوقود النجمى رى ـ ٢٠٢ تشبه قمم هرم مثلث يتدلى فى وسطه « الكوكب الثلجى » .

ولم يعد احد منهم يذكر النقاش الذى دار بينهم ، وانكب الكسندر على العمل ، حتى انه قام بعمل حسابات واحدة من الشموس الاربعة ، فقد اختص كل منهم بحسابات شمس صناعية ، ما عدا كار الذى تعهد ان يجمل الحسابات ويقوم بالادارة .

وعندما انتهى آخر يوم فى العمل تجمع طاقم « ماجلان » فى احد الشعاب الذى وضعت فيه محطة الادارة .

وقال كار بجدية زائدة :

ـ هيا ، ايتها الالهة التى ستصنع الربيع . . .

وتنهد تايل بصوت عال قائلا :

ـ هيا .

ـ هيا ؟

ـ نعم .

واعطيت اشارة البدء .

واشتعلت ثلاث شاشات بضوء باهر ثم ظهرت عليها صور الجبال وكتل الجليد تضيؤها شمسان او ثلاث . اما الشاشة الرابعة فظلت بيضاء لا تظهر شيئا .

وقال سنيج :

ـ انها شمسى .

نعم ، . . . لم تشتعل الشمس الرابعة .

* * *

لم يعرف أحد سبب ما حدث . . يبدو ان نظام الضوابط المغناطيسية قد تعطل . . . وربما كان يكفى مجرد صدمة خفيفة ، او خبطة من نيزك فى حجم حبة الرمل ، لكى تشتعل الشمس الرابعة بعد ثوان. ولكن اصطدام نيزك بالصاروخ كان احتمالا ضعيفا.

وصاح لارسن الطيب القلب :

— وهل هذه مأساة ؟ ستبقى القمم جليدية ، كما حدث فى زمن ما فى القارة القطبية الجنوبية . . . يا للشيطان . . . سيكون شيئا جميلا فعلا . . .

فقال الكسندر بجفاء :

— سيكون رائعا .

وصمت الجميع محرجين . وبالطبع لم يظن اى منهم ان سنيج قد اخطأ فى الحسابات عن عمد . . . وكان هو ايضا يدرك انهم لا يمكن ان يظنوا به ذلك . . ولكن بالحظه السيىء حتى يحدث ما حدث له وحده . . .

وعندما عادوا الى « ماجلان » قال سنيج بصوت خافت حازم :

— سأستقل صاروخا واحطم نظام الضوابط المغناطيسية بتيار نفاث ؟

ثم اضاف :

— هيا ننام . . وسأثبت لكم ان خطتى قابلة للتحقيق .

— ننام ؟

— ينبغى تحطيم نظام الضوابط ثم الهرب قبل اشتعال الشمس .

وجلس لارسن باذعان الى العقل الالكترونى واملى عليه الكسندر ، وعندما انتهت الحسابات قال :

— أترى . . . هذا ممكن من حيث المبدأ .

فدمدم لارسن فى ضيق :

— من حيث المبدأ . . . دع عنك هذه الحماقات . . . سوف تحترق .

وقال جيورجى :

— هيا ننم يا الكسندر . . ليست الامور سيئة الى هذه الدرجة .

ولكنهم جميعا كانوا يعرفون انها سيئة . . . سيئة للغاية .

لقد استهلكوا ثلثى ما لديهم من وقود ، ولن يتمكنوا من الوصول الى الارض الا بعد مائتين وخمسين عاما . . سيعودون دون شيء ، فبعد هذه المدة الطويلة سيعود الجليد ليطبق فكيه على الكوكب الثلجى ، ومتى اذن يرجع الناس الى هنا ليشعلوا الشموس الذرية من جديد ؟ لقد كان كل شيء على وشك النجاح ، ولو لم يحدث خطأ لعاد طاقم « ماجلان » الى الارض ليزف الى اهلها بشرى كوكب جديد صالح للحياة الطبيعية . . فالناس

بحاجة الى مثل هذه الكواكب التى تعتبر بمثابة مواقع
متقدمة فى الكون اللانهائى . . . بمثابة جسور انطلاق
الى رحلات أبعد .

* * *

فى الليل استيقظوا على اشارة استدعاء . وجاءهم
صوت الكسندر قويا عبر الميكروفون :

— اننى فى الصاروخ . . . لا تغضبوا يا اصدقاء . . .
ينبغى ان أجرب .

ورد جيورجى :

— نرجوك ياساشا . . . كلنا نرجوك . . . لا داعى :
فليذهب هذا الكوكب الى الشيطان . . . ولتتذكر
أرضنا .

— لن يحدث شىء .

— انك تجادل .

— كلا

وصاح كار :

— سنيج ! اننى امرك بالعودة .

— لا تغضب يا كار . . . القائد هو انا . . .

وقال لارسن بوجل :

— ولكنك كنت تريد ان يبقى الكوكب مغطى
بالجليد . . .

وسمعوا الكسندر وهو يضحك هازئا :

— الذنب ذنب كار . . . فقد تحدث جيدا عن
المحيط . . . والشلالات . . والجزر . وانا بطبعى
رسام فأردت ان ارسم ذلك .

واطلق كار سبابا بصوت خافت .

وقال تايل :

— افتح الفيديوفون .

وفتح سنيج الفيديوفون فرأوا وجهه على الشاشة .
كان يصفر لحنا ما وقد انحنى فوق لوحة الادارة .
ويبدو انه هادىء .

قال جيورجى :

— كن على حذر

فهز سنيج رأسه دون ان يكف عن الصفير وقال
كار بيأس :

— تفعل هذا ونحن على وشك العودة الى الارض . .
لماذا ! ربما اشتعلت الشمس على الفور ؟

— انت تعلم .. ينبغي اتمام ما بدأناه . .وطغى هدير المحرك على اصواتهم واهتزت الصورة على الشاشة ، ثم ظهر وجه الكسندر وقد تشوهت صورته بفعل الضغوط الهائلة ، ثم بدأت سرعة الصاروخ تقل . ولم يستطع الكسندر وهو منطلق بسرعة كبيرة ان يستدير بالصاروخ ويوجه التيار النفاث نحو الضوابط المغناطيسية . ولاذ الجميع بالصمت ، ولم يروا غير وجه الكسندر المتوتر . . . هكذا كان قبل تلك اللحظة التى غمر فيها الشاشة وهج ابيض ساطع . . .

* * *

وسألت الكسندر :

— وكيف تسنى لك ان تنجو ؟

فنظر الى من تحت حاجبيه وقال :

— فى الواقع ... انا جيورجى روجوف ... اما الكسندر سنيج فقد لاقى حتفه . هل تفهم بماذا احسسنا عندما أخبرنا المرشد بالصبى ؟ علمنا ان صبيا صغيرا ينتظر على الارض أخاه بلهفة . ربما كان من الصعب عليك ان تفهم ذلك ، ولكننا ، وقد غبنا عن الارض

والناس كل هذه المدة ، كنا ندرك جيدا معنى الوحشة والانتظار . ويصبح الامر صعبا خاصة اذا كنت تعرف انك لن تقابل على الارض اى شخص تعرفه . . . بعد ثلاثمائة عام . . . حتى الاسماء القديمة لن تتوصل الى معرفتها . . . ثم فجأة تسمع ان هناك أخا ينتظر . نعم ، لقد كنا نفهم الصبى وشوقه الى انسان قريب . . . وكان من الصعب جدا ان نخبره بالحقيقة ... كان مستحيلا . . .

وكان تايل ابرعنا . فقد اعطى المحطة جوابا يسمح بتأجيل الامر .

ولكن لارسن قال : «ليس هذا حلا .. ماذا سنقول له فيما بعد ؟»

وسألت : «ما اسم الصبى ؟»

واخبرني كار باسمه ، ثم نظر الى نظرة غريبة ، ولكنه لم يقل شيئا ساعتها .

* * *

تعطل محرك صاروخ الانزال قرب الارض بقليل فقفزنا فى الحلل الواقية .

كانت الارض لا تزال مظلمة وقد بدأت تلوح اشعة الفجر الزرقاء . ولست اذكر الان كل شيء سوى رائحة الارض واوراق الاشجار الرطبة . وكان تابل يقف ضاغطا وجهه الاسود الى جذع شجرة بتولا يشع بياضا في الظلام . اما لارسن فقد استلقى على الارض وقال : « انظر ! هذا عشب . . . »

وتطلعت الى السماء ، فلاحظت الفجر الاصفر الساطع يشرق فجأة بينما اصبح السمت أزرق نظيفا ، وخيل الي ان السماء ترن ، كما ترن ملايين الاوتار الدقيقة الصادحة. وتوهجت السحابة الصغيرة فوق رأسي بلون وردى ، وفجأة شعرت بالرعب ، فقد خيل الي ان ما أراه هو ذلك الحلم الممض الذى كان يعذبنا ونحن هناك على الكوكب الثلجي . وجلست على العشب واغمضت عيني واطبقت على جذر شجيرة ما . . كان رطبا وخشنا . . .

وبعد لحظة اطلقت الجذر وفتحت عيني ، وسمعت من جديد السماء الزرقاء وهي ترن فوق الغابة ، وسمعت خلال الرنين صوت لارسن يقول : « انظر ! . . هذه اوراق اشجار ! . . »

ثم اشرقت الشمس .

هل رأيت الشمس وهي تنهض من على العشب ؟ لكي ترى ذلك ينبغي ان تنظر وانت راقد . ساعتها يبدو لك العشب غابة خرافية ترتفع فوقها شمس ساطعة ، وتومض قطرات الندى بشرارات ملونة .

* * *

كان نيل ينظر الى الشمس من خلال العشب ، ويدرك كل شيء ، بل ورأى بطرف عينه مركبة « النحلة » المحطمة ، بيد انه لم يشعر بالاضطراب او الخوف المتأخر ، فقد كان ما حدث اثناء الليل يبدو حلما مضطربا ، واحس الصبي بعدم امكانية تحقيق حلمه .

وعندما ارتفعت الشمس ومس طرف قرصها رؤوس الازهار العالية المنتصبة على حافة المرج ، نهض نيل . كان رأسه يدور قليلا وكتفه المدماة تؤلمه . لكنه كان سعيد الحظ ، فقد قذفه جهاز الهبوط على عشب طرى . ونام دون ان يحاول حتى ان يستيقظ ، فقد كان في غاية التعب .

وتلفت الصبي حوله على مهل ، فلم يكن ثمة ما

يدعو الى العجلة ، الغابة تمتد حوالى مئة كيلومتر من حوله ، واوراق الاشجار تخشخش فى مهب الريح .

وفجأة سمع الصبى صوتا يقول بمرح ودهشة :

— انظر ! .. ها هو انسان ! » .

والتفت نيل الى مصدر الصوت وجمد فى مكانه فقد رأى اناسا يرتدون حللا زرقاء وفوقها احزمة بيضاء متقاطعة .

وشعر الصبى بقلبه يعصف بعنف وهو يقول :

— انتم من « ماجلان » !

وقال الطيار الاسمر والاشقر الشعر :

— نيل ...

* * *

قال جيورجى :

— لقد لاحظته بعد الاخرين . ويالالغرابة ... فقد خيل الى اننى اعرف هذا الصبى . . ربما لانى تذكرت نفسى عندما كنت طفلا ؟ ... كان يقف وكله تحفز للقائنا .. صغيرا ، أشقر ، فى قميص ممزق عند كتفه ، وعود عشب جاف ملتصق برقبته ، وكدمة

فى ركبته . . . كان يحدق فى وجهى بعينيه الزرقاوين المفتوحتين حتى النهاية . . يبدو اننى ناديته باسمه .

وقال كار فجأة وبصوت عال وهو يدفعنى فى كتفى :

« — هيا يا الكسندر . . استقبل اخاك »

ومضى جيورجى يقول :

— ربما اكون قد تصرفت بأنانية ، ولكنى نسيت فى تلك اللحظة ان نيل ليس أخى ، وينبغى ان تفهم ما معنى ان تقابل على الارض شخصا قريبا بينما لم تكن تتوقع ذلك أبدا . . . ولكن شيئا فشيئا بدأت افكر : « هل من حقى ان افعل ذلك ؟ »

ولم افهم مقصد جيورجى فقال :

— الكسندر هو الذى اشعل الشمس ، الشمس الرابعة اللازمة لتذويب الجليد . والان يوجد هناك محيط ، وجزر . . . فهل كان من حقى ان اسلب الصبى أخا كهذا ؟

— أخا ميتا ؟

— حتى ولو كان ميتا .

وسألته :

— يصعب على ان احكم يا جيورجى ، ألم تكن لدى الكسندر دوافع اخرى للمخاطرة ؟ هل كان يريد ان يعود ؟ ان تلك الفتاة ...

وابتسم جيورجى بملل . يبدو انه كان يعتبر سؤالى مجرد سؤال احمق .

— نعم كان يريد العودة . لقد كان يحب الارض حبا شديدا ... من ذا الذى لا يريد العودة الى الارض ؟

وصمتنا .

وفجأة قال جيورجى :

— كان دائما يصفر لحن اغنية غريبة ، لا اذكر منها الا بعض الكلمات :

ليكن ان الارض تبدو حبة صغيرة
فى هذا الظلام الكونى الكثيف ...
لكنها حبة عامرة بكل ما هو جميل ...

وصمت برهة ثم قال :

— اذا بقى كل شىء كما هو الان فاعتقد ان الامر سيصبح اسوأ . اننى لم اسلب الصبى اخاه فحسب ، بل سلبت الكسندر بطولته فان احدا لا يعرف كيف اشتعلت الشمس الرابعة .

— ولكنك سلبت نفسك اسمك الخاص ، فالمعروف الان ان جيورجى روجوف يعتبرا ميتا .

— ليس لاسمى قيمة .

— اذن خذها منى نصيحة فقد سألتنى النصح . ليبق كل شىء على ما هو عليه ، فلن تنطفىء الشمس الرابعة بسبب ذلك . ينبغى ان تفكر فى الصبى .

— اننى افكر فيه طوال الوقت ... ولكن ماذا عن سنيج ؟

— سيعرف الناس الحقيقة يوما ما ... بالمناسبة انت لا تعرف سوى ثلاثة اسطر من تلك الاغنية اما انا فأعرف اكثر . اننى مؤرخ . وهذه الاغنية هى اغنية مكتشفى الزهرة . استمع الى آخر مقطع فيها :

فليتذكر من سيسير على خطانا
فى الدروب الملتوية :
اننا لا نطمع فى مجد او ذكرى .
اذا ما أشعلنا النجوم للبشر .

— ولكن ذكرى الكسندر ذكرى عن البطولة ! وما فعله مثال للاحياء . وربما وجب على نيل ان يشعل شمسه هو ايضا .

نظرت الى جيورجى فوجدته يتوقع معارضة . . . كان يريد سماعها لانها تعزز من حقه فى اخوة نيل . . . فقلت :

— ربما . . . ولكن ما هو الكوكب الذى سيشعل فوقه الصبى شمسه ؟ علمه اولا ان يكون رجل استكشاف . . . الست أخاه ! اما الشمس فيشعلها بنفسه .

كانت آخر اشعة المغيب قد تلاشت منذ فترة طويلة ، وتدلى نصف القمر فوق البحر وقد طوقه من احدى الجهات قوس « حلقة الطاقة » .

وقطع حديثنا وقع خطوات على السلم الحجرى . . . وعلى العموم فلم يعد لدينا ما نتحدث عنه .

وانصرفنا مودعين بايماءة من الرأس ، وكان رائد الفضاء يمسك براحة اخيه الصغيرة بقوة .

* * *

امامى على صفحة كراس مفتوح شارة ذهبية لا يعرف أحد تاريخها ، اعطاها لى نيل قبل اقلاعنا . . . اننا نحن رجال الآثار مقلعون الى « ليدا » . . الى

ذلك الكوكب الذى لم يستطع فالنتين يانتار ان يكتشف سره حتى النهاية . . . ولن نعود قريبا .

وربما يقابلنى على الارض بعد ثمانين عاما شخص لا اعرفه . . . قد يكون صغيرا ام كبيرا .. هذا غير مهم . ويقول لاصدقائه :

— اننى ذاهب للقاء أخى .

المحتويات